د. يوسف القرضاوى

أُمتنا بين قرنين

دار الشروق

أُمـــتــنــــــا
بين قرنـــين

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص. ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

مـن الدستور الإلهي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هـذا بيان للنـاس وهدى ومـوعظة للمتقين . ولا تهنـوا ولا تحزنـوا وأنتم الأعلـون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قـرح فقـد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾

[من سورة آل عمران : ١٣٧ـ١٤٠]

مقدمة

منذ عشرين سنة كان لنا وقفة في مطلع القرن الخامس عشر الهجري، اعتبرتها في حينها وقفة (الحساب الختامي) للقرن بما لنا وما علينا، وهي وقفة طبيعية على رأس قرن، هو قرننا نحن أمة الإسلام، إذ هو يؤرخ لرسالتنا ومسيرتنا وحضارتنا، منذ أسس رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم أول مجتمع مسلم وأول دولة إسلامية بالمدينة.

واليوم نقف وقفة أخرى في مطلع القرن الحادي والعشرين الميلادي، وهو يتميز بأنه بداية الألف الثالث لميلاد المسيح عليه السلام.

المسلمون والقرن الميلادي:

وهذا القرن - وإن لم يكن في الأصل قرن المسلمين - لا يسعنا نحن المسلمين أن نتجاهله، والعالم كله من حولنا يهتم به ويتحدث عنه، ونحن جزء من هذا العالم، الذي تقارب وتقارب حتى أصبح اليوم - كما قيل - قرية كبرى. بل قلت: إنه أصبح اليوم قرية صغرى بعد ثورة الاتصالات. فإن القرية الكبرى قد لا يعلم الناس في شرقها ما يحدث في غربها إلا بعد يوم أو أكثر، على حين نحن نعلم اليوم ما يحدث في العالم بعد لحظات، وقد نتابع الحدث في أثناء حدوثه لحظة بلحظة.

على أننا نحن المسلمين لا نقف موقفا متشنجا من ميلاد المسيح عليه السلام؛ فقرآننا الكريم قد احتفى بهذا الميلاد، وأفرد له جزءا بارزا من سورة سميت باسم

أم المسيح (مريم) عليهما السلام، وذلك لما صحب هذا الميلاد من خوارق لم تكن لغيره، حتى إن القرآن ذكر معجزة لعيسى عليه السلام، لم تذكرها الأناجيل ولا المصادر المسيحية، وهي: كلامه في المهد صبيا.

ولكن الإسلام يحرص في تربية أمته وتوجيهها على أن تكون متميزة بشخصيتها المستقلة المتفردة، جوهرا ومظهرا.. تتسامح مع الآخرين، ولكن لا تذوب فيهم.

والإسلام يؤمن بالمسيح عليه السلام، وبأن ميلاده كان آية من آيات الله، ولكنه لا يتخذه عيدا، فإن لكل أمة أعيادها، التي ترتبط بهويتها وتاريخها. وللمسلمين عيداهم: عيد الفطر وعيد الأضحى، وليس عيد الميلاد.

كما أن المسيحيين للأسف يرتكبون باسم المسيح في ميلاده ما لا يقبله هو ولا أمه عليهما السلام، وما يبرأ منه رسل الله جميعا.

على كل حال، فنحن نتحدث عن القرن الجديد باعتباره حدثا عالميا مهما، فلا حرج علينا أن نهتم به، كما اهتم المسلمون في العهد المكي بالحرب الدائرة بين فارس والروم، وحزنهم لهزيمة الروم، وهم نصارى أهل كتاب، أمام الفرس، وهم مجوس يعبدون النار، ونزول قرآن يتلى في ذلك، وهو أوائل سورة الروم ﴿**آلم. غلبت الروم. في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين. لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون. بنصر الله**﴾ [الروم: ١-٥].

ولعل حديثنا عن هذا القرن الجديد، أو عن (الألفية الثالثة) كما عبروا عنها، يقرب ما بين أتباع المسيح وأتباع محمد عليهما السلام، ويطفئ تلك النار التي أججتها الحروب الصليبية ولم تزل مشتعلة في نفوس كثير من الغربيين إلى اليوم. حتى وجدنا المسيحيين تقاربوا مع اليهود، وأصدروا وثيقة تبرئهم من دم المسيح، وهم لا يعترفون بالمسيح ولا بإنجيله ولا بأمه. والمسلمون لا يصح إسلامهم، ولا ينعقد إيمانهم ما لم يؤمنوا بالمسيح وبكتابه. ومع هذا لم يقترب المسيحيون منهم إلى هذا المدى، بل رأينا الأمريكان - وهم مسيحيون - يرشحون الإسلام عدوا جديدا، يمثل الخطر المستقبلي الذي يهددهم، بعد زوال خطر الاتحاد السوفيتي.

متى يبدأ القرن الجديد؟

أكتب هــذه السطـور، ولم يبق إلا شهــر واحـد، أو أقل على مقــدم سنـة ٢٠٠٠ للميلاد، بداية القرن الحادي والعشرين، أو الألفية الثالثة، كما هو مشهور ومتعالم عند كثير من الناس، وكما تعلن عنه وتهلل له أجهزة الإعلام مقروءة ومسموعة ومرئية.

بيد أن الـذي أومن به، ويؤمـن به كثيرون غيري: أن سنة ٢٠٠٠م هي نهايـة القرن العشرين، وأن بداية القـرن الحادي والعشرين هي سنة ٢٠٠١م. وهذه بدهيـة ما كان ينبغي الخلاف فيها؛ فإن الإنسـان إذا بدأ قرنا (أي ١٠٠سنة) فإن هـذا القرن لا ينتهي بسنة ٩٩ منـه، بل بنهاية سنـة ١٠٠منه، ولا أحسب أحدا ينـازع في هذا، ومثل ذلك القرن التالي، لـو بدأنا سنة ١٠١ لوجب علينا أن ننهي القرن سنة ٢٠٠ لا سنة ١٩٩.

وهذه قضيـة قد حـدث الخلاف في شأنها عندما استقبلنـا ـ نحن المسلمين ـ القرن الخامس عشر الهجري، وكـان بعض الناس قد حسبوا أن القرن يبـدأ سنة١٤٠٠هـ ثم انتهى الرأي إلى أنه يبـدأ بيقين سنة ١٤٠١هـ. وقد كانت بدايـة الاحتفالات بهذا القرن هو إقامة المؤتمر العالمي للسنة والسيرة النبوية بدولة قطر.

ربما كان تغيير التـاريخ من١٩٠٠ إلى ٢٠٠٠، وعقدة الكمبيوتـر في ذلك، ومحاولة التغلب عليهـا، لها تـأثيرهـا العقلي والنفسي في النظـر إلى أن الألفيــة سنـة ٢٠٠٠هي الفاصل، وليست (٢٠٠١).

على كل حال، سـواء كان مطلع القـرن سنة ٢٠٠٠ أو ٢٠٠١ فـالحديث عنه وعن الألفية الثالثة مقبول في هذا الوقت، بل قد بدأ الحديث من قبل ذلك بسنوات.

وأريد أن أنبـه هنا على مسألة مهمـة تتصل بمقدم هـذا القرن، أو هذه الألفيـة وما يتوقعه الناس من تغير أو تطور إلى الأمام أو إلى الخلف بهذه المناسبة الفاصلة.

هــذه المسـألــة هي: هـل الحيـــاة ستتغير في ١/ ١/ ٢٠٠٠م عـن الحيـــاة في ٣١/ ١٢/ ١٩٩٩م أو في ١/ ١/ ٢٠٠١ عن الحيـاة في ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٠م؟ أعني هل يبيت الناس بشكل، ويصبحـون بشكل آخر؟ أو هل يتغير تفكيرهم وسلـوكهم ما بين عشية وضحاها، لمجرد انتهاء قرن وحلول قرن آخر؟

لا شك أن الناس في يناير هم النـاس في ديسمبر، والحياة في أوائل القرن الجديد هي

الحياة في أواخر القرن المنصرم. والكون والحياة والإنسان لا تتغير فجأة، لأن قرنا قد تولى، وآخر قد بدأ. فإن كل شيء يمضي في طريقه وفق قوانين الكون، وسنن الخلق ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾ [فاطر: ٤٣].

ولكن جرت أعراف الناس، وتعلقت أمانيهم من قديم: أن تحدث تغيرات وتطورات، عقب كل قرن يذهب وآخر يجيء، ولا شك أن هناك تغيرات تقع قبل انتهاء القرن، أو بعد بدء الآخر، فالحياة لا تزال تتجدد، والدين نفسه لا يزال يتجدد، كلما جد قرن، وفي هذا جاء الحديث النبوي: «إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها دينها»(١).

والمراد بتجديد الدين هنا: تجديد الفهم له، والإيمان به، وإحياء الالتزام به والدعوة إليه.

وهذا يشير إلى أن التغيير والتجديد أمر يترقب كلما مضى قرن وأهل آخر، وإن جاء ذلك أصلا في القرن الهجري، ولكن قد يستفاد من المبدأ نفسه هنا.

دورنا في الألفية الثانية:

وقد أثار بعض الباحثين المسلمين سؤالا عن دور المسلمين في (الألفية الثانية) المنصرمة، وماذا كان لهم فيها من خلاق.

والواقع أن النصف الأول للألفية الثانية، كان المسلمون فيه هم سادة العالم، وحضارتهم هي المعلمة للدنيا، في حين كانت أوربا ترى النظافة من عمل الشيطان، وترى التطبب على أيدي الكهنة، وكان رجال الدين فيها عقبة في سبيل تقدم الدنيا، وهم مشغولون بإصدار قرارات الحرمان، وبيع صكوك الغفران. كانت تلك القرون التي تسمى عندهم (القرون الوسطى) تمثل عصور التأخر والظلام.

عرف العالم أسماء كبيرة لعلماء وفلاسفة وأدباء وموجهين وحكام مسلمين، حازوا شهرة عالمية، وتركوا (بصماتهم) في الحياة الفكرية والأدبية والدينية والسياسية.

---

(١) رواه أبو داود والحاكم وغيرهما عن أبي هريرة، وصححه عدد من أئمة الحديث.

أمثال البيروني والخوارزمي وابن الهيثم وأبي بكر الـرازي والزهراوي في العلم ، وأمثال ابن سينا وابن رشد وابن طفيل في الفلسفة ، وأمثال الغزالي وابن تيمية في الدين ، وأمثال المتنبي ، وأبي العـلاء وأبي حيان وجـلال الديـن الرومي في الأدب والشعـر، وأمثال نـور الـدين محمود الشهيـد وصلاح الـدين الأيوبي في السيـاسة والحكم ، وغير هـؤلاء كثير. وأكثـر منهم من لم يبلغـوا مكانتهم وشهـرتهم من النـوابغ والعبـاقرة في العلـوم والآداب والفنون ، وهـم يعدون بالألوف وعشرات الألوف .

هكذا كنا في النصف الأول من الألف الثانية للميلاد .

على حين غدا النصف الثاني للألفية الثانيـة يتحرك لحساب الغرب ونهضته وتطوره ، وانتقـاله من الظـلام إلى النـور، ومن الجمـود إلى الحركة ، ومن النـوم إلى اليقظـة ، ومن الجمود إلى التحرر، ومن الرجعية إلى التقدم .

ولا ينكـر منصف أن الغـرب إنما تحرك وتطـور عنـدمـا احتك بـالمسلمين في الحرب والسلم ، في الحروب الصليبية وفي الأندلس ، وفي صقليـة وغيرها من قنوات الاتصال ، واستفاد الغـرب من جامعـات المسلمين ، وعلماء المسلمين ، وكتب المسلمين ، واقتبس المنهج التجريبي الاستقرائي من حضـارة المسلمين ، وطفق الغرب ينهض ونحن نتعثر، ويصحو من نـومه ، ونحن نغط في سبات عميق ، وينظر إلى الأمـام ، ونحن مشدودون إلى الخلف .

هل لنا أمل في الألفية الثالثة؟

تـرى ماذا يكـون دور المسلمين في الألفية الثـالثـة الجديدة ، أو على الأقل في القـرن الجديـد؟ أيكـون لهم مكـان تحت الشمس أم يظلـون في ذيـل القـافلـة كما هم اليـوم؟ يستهلكون ولا ينتجون ، ويستـوردون ولا يبدعون ، ويستقبلون ولا يـرسلون ، ويقلدون ولا يجددون ! !

أنا لست من المتشائمين ، وقد علمنا التاريخ أن الحضارة دورات ، وأن الدهر قلب ، ودوام الحال من المحال ، وهـذه هي سنة (التداول) الكونيـة الثابتة ، التي قررهـا القرآن الكريم حين قال : ﴿**إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قـرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

وقد كانت شعلة الحضارة في القديم لدى الشرق، أيام الحضارات الفرعونية والفينيقية والبابلية والفارسية، ثم انتقلت الشعلة إلى الغرب أيام حضارة اليونان والرومان. ثم عادت إلى الشرق أيام الحضارة العربية الإسلامية.. فلما ركد المسلمون وتخلفوا حين أساءوا فهم دينهم وتطبيقه.. هرولت الحضارة إلى الغرب، الذي يقود العالم اليوم، بل كاد الغرب يتجسد الآن في أمريكا، القطب الأعظم، بل القطب الأوحد في العالم، وهي تريد أن تفرض سيادتها الثقافية والاقتصادية والسياسية على العالم تحت اسم (العولمة) وما هي إلا (الأمركة). وسنة الله تعالى، ومنطق التاريخ، أن الدورة الحضارية القادمة لنا نحن المسلمين، حسبما يقتضيه (صراع الحضارات) الذي تحدث عنه الكاتب الأمريكي (صمويل هنتنجتون) وفق قانون (البقاء للأصلح) وليس للأقوى، فإن (البقاء للأقوى) هو قانون الغابة. أما البقاء للأصلح، فهو قانون الإنسان.

وقد كان الاتحاد السوفيتي قوة ضخمة، ويملك ترسانة هائلة من الأسلحة النووية والتدميرية، وجيوشا جرارة مدربة مستعدة، ومع هذا لم تغن عنه هذه القوة العسكرية شيئا، وانهار هذا البناء الكبير؛ لأنه أسس على شفا جرف هار، فانهار بأصحابه، والله لا يهدي القوم الظالمين. إن بقاء الأمم الكبيرة لا يدوم بقوة السلاح وحدها، فلا بد من قوة معنوية وراء القوة المادية. والقوة المعنوية لا تعني الدين وحده، كما يتصور الكثيرون، الدين والإيمان في المقدمة، ولكن القوة المعنوية تشمل الأخلاق والفكر والمعرفة والمعاني الإنسانية، وهذه كلها ضرورية للبقاء والتفوق، مع ضرورة القوة العسكرية، والقوة الاقتصادية.

وإن لدينا - نحن المسلمين - من المبشرات الدينية والدنيوية[1] ما يملؤنا ثقة بالمستقبل، ويقينا بغد أفضل، ولا يعني ذلك أن ننام على آذاننا، ونتكل على هذه البشائر، بل يجب أن تحفزنا هذه المبشرات إلى العمل، والعمل الدءوب، المبني على العلم والتخطيط، حتى نحول الأحلام إلى حقائق، والأمل إلى واقع مشهود. ومن جد وجد، ومن زرع حصد، ومن سار على الدرب وصل، ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

---

(١) انظر: كتابنا (المبشرات بانتصار الإسلام) من رسائل ترشيد الصحوة.

فإذا كان العالم من حولنا، قد أطالوا الحديث عن الألفية الجديدة، فلا علينا أن نتجاوب معهم، وخصوصا المسيحيين الذين يحكمون عالمنا اليوم، سواء بالقوة العسكرية أو بالقوة الاقتصادية، أو بالقوة العلمية والمعرفية.

ولنقف بهذه المناسبة وقفة مراجعة ومحاسبة مع أنفسنا، لا لنجلد ذاتنا، ونتحسر على ما ضيعنا، ونردد (لو) و(ليت) ترديد اليائسين المحزونين، ولننشد مع شاعرنا القديم:

وليس براجع ما فات مني   بـ (لهف) ولا بـ (ليت) ولا (لو اني)!

والحديث الشريف يعلمنا أن (لو) تفتح عمل الشيطان.

إنما علينا ـ بعد أن نعرف إنجازات البشرية وإخفاقاتها فى هذا القرن، وقد خصصنا لها الباب الأول هنا ـ أن نقف وقفة التاجر الواعي ليعرف أرباحه من خسائره، ليستكثر من الأرباح، ويتفادى الخسائر. وكذلك يجب أن نقف أمام نجاحاتنا وإخفاقاتنا (وقد خصصنا لها البابين الثانى والثالث من هذه الدراسة) لنستزيد من أسباب النجاح ونعمقها ونحسن توظيفها، وندرس أسباب الإخفاق، ونجتهد في التغلب عليها وتفاديها في المستقبل، والقرآن يعلمنا فيقول: **﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا﴾** [الفرقان: ٦٢]. أي إن تعاقب الليل والنهار يعطي فرصة للاستدراك لمن أراد.

ثم علينا أن نواجه التحديات، الداخلية والخارجية، المحلية والعالمية(وقد خصصنا لها الباب الرابع والأخير) ببصيرة نافذة، ووعي عميق، وإيمان صادق، وعزم مصمم، وجهد دؤوب، ولاسيما التحديات الكبرى؛ التحدي الصهيوني، وتحدي التجزئة والتفكيك، وتحدي العولمة. وإذا توافر العلم والعزم والإيمان والعمل فإن الله لايضيع جهد العاملين، ولا أجر المصلحين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الدوحة ـ رمضان ١٤٢٠هـ   الفقير إليه تعالى

ديسمبر ١٩٩٩م   **يوسف القرضاوي**

إنجازات البشرية وإخفاقاتها
في القرن العشــرين

- ☐ قرن الإنجازات العلمية الكبرى
- ☐ قـرن الـحقوق والحريات
- ☐ قـرن انـهيـار الـقيـم
- ☐ قـرن الـحروب والدماء

قرن الإنجازات العلمية الكبرى

حققت البشرية من المنجزات العلمية والعملية في هذا القرن ـ وفي النصف الأخير منه خاصة ـ ما لم تحقق عشر معشاره، بل ولا واحدا في الألف (٠٠٠١٪) منه، خلال القرون الماضية كلها، فقد وثبت في هذا القرن العشرين وثبات جبارة في دنيا العلم والتكنولوجيا، على كل المستويات المدنية والعسكرية والطبية وغيرها، وحققت إنجازات كان الناس يحسبونها من المستحيلات.

لقد حاول الإنسان قديما أن يجرب الطيران إلى أعلى، كما صنع عباس بن فرناس في الحضارة الإسلامية، ولكن تجربته باءت بالفشل، ولم تكتمل، ولكن الإنسان في هذا العصر صنع الطائرة، واستطاع أن يحلق بها في الجو منذ سنة١٩٠٣م.

بدأت الطائرة في أول أمرها صغيرة بسيطة، ثم لم يزل الإنسان يطورها ويحسنها؛ حتى وصل إلى المحرك النفاث، وما زال يطورها في حجمها وسعتها وسرعتها، حتى وصل إلى (الكونكورد).

ولم يكتف الإنسان بذلك، بل اخترع الأقمار الصناعية التي يطلقها في الفضاء بواسطة الصواريخ ذات القدرة الفائقة، وكان أول قمر أطلق في الفضاء هو القمر الروسي الذي كان عليه أول رجل فضاء، وهو (جاجارين).

ثم سابق الأمريكان الروس في هذا الميدان، فسبقوهم، وصنعوا سفن الفضاء، ومنها السفينة التي أقلت أول إنسان لينزل على سطح القمر، ويجلب منه بعض الصخور والأتربة. وذلك في صيف سنة ١٩٦٩م.

وتطورت سفن الفضاء، فبعضها حمل عـدة رجال، بل بعض النساء، وبعضها دار حول الأرض مددا طويلة .

وحاول العلم أن يلحـم مركبة فضـائية بأخـرى في الفضاء، وأن يصلح مـا فيها من خلل، ونجح في ذلك .

ويريد العلم أن يصل إلى الكـواكـب الأبعد مسافة من القمر، وقـد أنزل سفينته على الكوكب الأحمر، المريخ، إلى غير ذلك مما يدخل تحت اسم (غزو الفضاء) .

ولا يزال الإنسان يطمع في المزيد، والمنهوم بالعلم لا يشبع، كالمنهوم بالمال .

ويا عجبـا كيف تطورت مراكب الإنسان من الحمار والجمل، سفينـة الصحراء، إلى سفينة الفضاء! وهو ما أشار إليه القـرآن الكريم في عبارة معجزة حين حدثنا عن نعمته تعالى بتهيئته وسائل النقـل القديمة، فقال: ﴿**والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة**﴾ ثم قال: ﴿**ويخلق ما لا تعلمون**﴾ [النحل: ٨] .

ومن الإنجـازات المهمة: اختراع المذيـاع الـذي أدهش النـاس عند ظهـوره، كيف يسمع الناس صوت إنسان بينه وبينه بحار وجبال ووديان وصحارى، وآلاف الأميال!

ثم ازدادت دهشتهم باختراع (التلفاز) الذي يسمعون فيه الصوت ويرون فيه الصورة معا، وقد كان في أول أمره أبيض وأسود، ثم تطور إلى أن يظهر بالألوان، ثم دخل العالم عصر القنوات الفضائية .

وكذلك تطورت الهواتف (التليفونات) في هـذا القرن، فلم تعد بأسلاك، كما كانت من قبل، بل رأينا التليفـون المحمول والمتنقل، الذي بـدأ يصغر حجمه إلى حـد بعيد، ويؤدي أكثر من خدمة .

وهناك التليفون الذي يرى فيه مستخدمه صورة من يخاطبه .

وقد أمكن الإنسان الاتصال عن طـريق التلكس، ثم عن طريق (الفاكس) الذي لم يبرح كل حين بتطور، وهـو آية من آيـات الله . إلى غير ذلك من العجـائب التي يطلق عليها الآن (ثورة الاتصالات) . وآخرها هذه الشبكة الجبارة التي تسمى (الإنترنت) .

وفي مجال الطب: حدث تقدم هائل، وخصوصـا في علم الجراحة، ولا سيما جراحة

القلب، وجراحة العيون، ولا سيما بالليزر، وزرع الأعضاء من الكلية والكبد والقلب والقرنية وغيرها.

وعرف الطب لأول مرة أطفال الأنابيب، واكتشف مرض (الإيدز).

وفي مجال الأدوية اخترع الأمصال واللقاحات التي وقت البشر من كثير من الأمراض، بعضها وقاية دائمة (مناعة) مثل (الجدري).

واخترع البنسلين وتطوراته، الذي كان له أثره في تقدم الجراحة، وكذلك حبوب منع الحمل.

واخترعت المسكنات للآلام مثل الأسبرين وعائلته، ومسكنات المغص وآلام العظام.

وإذا كان عصر الصناعة الأول قد وفق الإنسان فيه إلى اختراع الآلة لتوفير الجهد البدني والعضلي للإنسان، فبدل أن يحمل على ظهره تحمل العربة، وبدل أن يخيط بيده تخيط الماكينة، فإن عصر الصناعة الثاني، توفر فيه الآلة الجهد العقلي للإنسان، وذلك باختراع هذا الشيء الذي سموه (الكمبيوتر) واحترنا نحن العرب في تسميته: أهو الحاسب الآلي أم الدماغ الإلكتروني أم العقل الإلكتروني أم الحسابة أم المحساب أم الحاسوب؟؟

وهذا الاختراع قد أحدث ثورة هائلة في الصناعة والحياة بصفة عامة، فعلى أساسه تسير الطائرات، وتتوجه الصواريخ، وتدور الأقمار الصناعية، وتصعد سفن الفضاء.. ولا يكاد يخلو أمر من أمور الحياة إلا دخلت فيه الثورة الإلكترونية الجبارة، حتى الأطفال أصبحوا يستخدمونه، وفرض التعليم المعاصر إدخاله في المدارس الابتدائية.

وهناك بجوار الثورة التكنولوجية، والثورة الفضائية، والثورة الاتصالاتية، والثورة الطبية، والثورة الإلكترونية: الثورة البيولوجية: هندسة الوراثة، والتحكم في الجينات، حتى أمكن أن يتحكموا في جنس الجنين، ذكرًا أو أنثى، وربما في شكله وصورته: أبيض أو أسود، ناعم الشعر أو مجعّده، أزرق العينين أو أسودهما، إلى آخر ما يقال في ذلك، حتى أطلق عليه بعضهم: طفل حسب الكتالوج.

وقد أقمنا منذ سنوات في جامعة قطر ندوة علمية عن (الهندسة الوراثية وموقف الدين والأخلاق والتشريع منها) . وذلك لوضع الضوابط لهذه الثورة؛ حتى تمضي في طريق مأمون .

وقد انتهى ذلك التطور إلى (استنساخ الحيوان) كما في النعجة الشهيرة (دوللي) وأصبح من المخوف أن يتطور ذلك إلى استنساخ الإنسان، وهو ما حذر منه علماء الدين والأخلاق والاجتماع والتشريع، لما يترتب عليه من مضار وأخطار، لا يتسع المقام للحديث عنها .

ولا مانع من استخدام هندسة الوراثة في تحسين سلالات النباتات، وتطعيم بعضها ببعض في ضوء الدراسات العلمية، والتجارب العملية، المتأنية .

وكذلك لا مانع من استخدامه في مجال الحيوان إذا لم يكن في ذلك إيذاء له، أو ضرر به، أو ضرر بالإنسان من ورائه، ذلك أن (الخروج على الفطرة) في أي مجال أمر خطير، ينبغي التدقيق والتأني فيه، وقد بدأ الحديث أخيرا حول أضرار ما استخدمت فيه الهندسة الوراثية[1] .

وهناك ثورة أخرى، هي: (ثورة المعلومات)، فنحن في عصر (انفجار المعرفة)، وقد أصبحت كمية المعلومات شيئا لا يقدر قدره، ولابد من ترتيبها وتبويبها وفهرستها وتنظيم الاستفادة منها .

وقد أنتجت هذه الثورات العلمية بألوانها المختلفة : رفاهية الحياة، واختصار المكان والزمان، وتقريب البعيد، وتوفير الوقت والجهد، والتنقل بين القارات بسهولة وسرعة، وتهيئة أسباب الراحة، من التكييف للهواء في الصيف، وتدفئته في الشتاء، وتبريد الماء أو تسخينه حسب الطلب، واختراع الغسالات الإلكترونية والأفران الكهربائية، والميكروويف، والمنظفات الآلية، وغيرها وغيرها .

كما أنتجت ثورة المعرفة والمعلومات أثرها في الاقتصاد وتطوره، حتى غدوا يتحدثون اليوم عن (الموجة الثالثة) فيه . وهي قفزة هائلة، استفاد منها العالم المتقدم، أو (العالم

---

(١) آخر ما توصل إليه الإنسان فى هذا المجال : ما أعلن عنه والكتاب فى المطبعة، وهو اكتشاف (خريطة الجنيات البشرية) أو ما يسمى (الجينوم البشري) وقد أعلن عنه الرئيس الأمريكي (كلينتون) بنفسه، وقالوا : إنه أهم من اختراع البنسلين، وأهم من وصول الإنسان إلى القمر!

الأول) كما يسمونـه، ولم يبلغ الآخرون درجـة الاستفادة منهـا، حتى (روسيا) قصرت بها معرفتها أن تجاري الغرب المتقدم واليابان.

ولم يقف هذا عند المطالب المدنية، بل تعداها إلى المطالب العسكرية، من الدبابات والغواصات والطـائرات الحربية المتطورة، مما رأينا بعضه في حـرب الخليج الثانية، حتى تكاد تكون حربا آلية، بلا خسائر من البشر المهاجمين. وقبل ذلك اخترع الغرب القنبلة النوويـة، وضرب بأول قنبلتين مدينتي هيروشيما ونجـازاكي باليـابان، ثم طـور القنبلة النووية إلى هيدروجينية، كما طور قدرتها، فأصبحت شيئا مخيفا، لا يتصور أثره، وكيف تكون حال البشرية لو قامت حرب استخدمت فيها الأسلحة النووية؟

وهناك إنجـازات على المستوى النظري مثـل نظرية أينشتين في النسبيـة، و إنجازات أخرى، يُعطى أصحابها جائزة (نوبل) في العلوم كل عام.

وتوجـد إنجازات أخرى ذات تأثير كبير في حياة البشر، وسيـاسة الأمم، وذلك فيما يتصل بالعلـوم الإنسانية والاجتماعيـة، مثل علوم النفس والتربيـة والاجتماع والاقتصاد والسياسة والفلسفة والقـانون والتاريخ واللسانيات، وغيرها، ممـا أخذه بعض الناس في بـلادنا كما هـو بجذوره الفلسفيـة، وتأثـراته الشخصيـة والبيئيـة، وتعصباتـه الدينيـة والقـوميـة، الشعوريـة منهـا والـلاشعوريـة، وهـو مـا أنكـره عليهم دعاة الأصـالـة، والمحافظون على استقلال الأمة الحضاري والثقافي، كاستقلالها العسكري والسياسي.

المهم أن هذه الإنجازات الكبيرة والهائلة خلال القرن لم يكن لأمتنا فيها نصيب، بل كانت كلها بما أنجزه الغرب بكل فصائله وأممه، ونحن في المسرح مجرد متفرجين، نصفق أو ننكر، ولا دخل لنا فيما يجري على خشبة المسرح.

كـان منا من غير ريب علماء مبرزون لهم وزنهم وقيمتهـم، ولكنهم في سياق البـلاد المتخلفة، لم يجـدوا من يعترف بهم أو يبرزهـم على الساحـة، فعاشوا مغمـورين، أو ماتـوا مجهولين أو شبـه مجهـولين. ومن وجد منهـم فرصـة للحا ق بالغرب، وبأمريـكا خاصـة، فقد وجد الطريق إلى العـالمية، كـما تجلى ذلك في الدكتـور أحمد زويل، العـالم المصري الأصل، الأمـريكي الجنسية، الـذي حصـل على جـائزة (نوبل) في العلـوم، لسنة ١٩٩٩م.

قرن الحريات وحقوق الإنسان

ومن أعظم إنجازات القرن عند الغربيين : شيوع الحريات العامة فيه ، وإعلان مواثيق حقوق الإنسان ، وخصوصا فئات المستضعفين من البشر، مثل حقوق العمال في مواجهة أرباب العمل ، وحقوق الشعوب في مواجهة الحكام ، وحقوق النساء في مواجهة الرجال ، وحقوق الفقراء في مواجهة الأغنياء ، وحقوق المسنين والأطفال والمعوقين على الأسر وعلى المجتمع والدولة .

ولم يكن تقرير هذه الحقوق والحريات ، مجرد فكرة فلسفية ، أو دعوة نظرية ، أو حبر على ورق ، بل قد سنت قوانين ، وقامت مؤسسات محلية وإقليمية ودولية ؛ لرعاية هذه الحقوق والحريات ومعونة أصحابها ، والدفاع عنهم ، أمام من يجحدون حقوقهم ، أو يجورون عليها ، أو ينتقصونها .

أصبح من حق الشعوب أن تختار حكامها عن طريق الانتخاب الحر، تشرف عليه هيئات قضائية نزيهة ، وأن تسائل هؤلاء الحكام بعد ذلك ، ومن حقها أن تقدمهم للمحاكمة أمام قضاء عادل ، وأن تسحب منهم الثقة أو تسقطهم أو تخلعهم وفق ما يحدده الدستور من نظم وإجراءات .

ليس هناك حاكم أكبر من أن يُسأل ، ولا محكوم أصغر من أن يسائل .

ومن حق كل فرد في الشعب أن يحاكم إذا ارتكب مخالفة أمام قاضيه الطبيعي ، وأن يحامي عن نفسه ، أو يوكل من يحامي عنه ، بل من حقه في قضايا معينة أن توكل الدولة عنه من يحامي عنه .

ولا يجوز أن يسجن إنسان أو يعتقل بغير جرم جناه، يثبت القضاء أنه قد اجترمه ولا يجوز القبض عليه والتحقيق معه بغير إذن القضاء . والأصل في المتهم أنه بريء حتى تثبت عليه التهمة بحكم المحكمة . ولا يجوز بحال تعذيب المتهم حتى يدلي باعترافات رغم أنفه، بل تحت سياط العذاب .

ولا ينكر منصف ما ارتقى إليه الغرب في حقوق الإنسان، ورسوخ الديمقراطية، ونزاهة الانتخابات، حتى إن حكومة حزب معين تجري الانتخابات، وهي التي تحكم وتملك السلطة التنفيذية، ثم تأتي نتيجة الانتخابات فتسقط، وتدع السلطة طواعية للحزب المنافس، وهكذا تتداول السلطة بشكل سلمي، ويتلقى الحزب المهزوم مصيره بشجاعة، ويحاول أن يبذل من الجهود، ما يحسن صورته في أعين الجمهور، ويجعله أكثر قبولا من خصمه في الانتخابات القادمة .

ورأينا في ظل الديمقراطية الوزراء يحاكمون، بل الرؤساء أنفسهم يحاسبون، وربما يعزلون، كما حدث للرئيس الأمريكي نيكسون، الذي اضطر إلى التخلي عن منصب رئاسة الجمهورية بسبب ما عرف باسم (فضيحة ووترجيت) .

وكذلك حوكم الرئيس الأمريكي الحالي كلينتون، وكاد الكرسي يطير من تحته، لولا استعطافه للشعب الأمريكي أن يسامحه ويغفر له، وقد اعترف بخطئه، وهو خطأ شخصي لا يتناول سياسة الحكم، ولا سياسة المال، ولا شأنا من الشئون العامة .

وهذا وأمثاله مما يرصد في حسنات المجتمع الغربي وإنجازاته في القرن العشرين .

ملاحظات ثلاث على الحريات في الغرب :

ولي على هذا الإنجاز الغربي حول الحريات والديمقراطية وحقوق الإنسان التي تميز بها الغرب ودافع عنها : ملاحظات ثلاث مهمة، أود أن أسجلها هنا بأمانة وإنصاف :

ازدواجية الغرب في الحقوق والحريات :

الملاحظة الأولى : أن الغرب يهتم بالحريات والديمقراطية وحقوق الإنسان غاية الاهتمام، ويقيم الدنيا ويقعدها إذا اعتدى عليها معتد، أو اجترأ عليها مجترئ، وداس

حماها المقدس، إذا كان ذلك في دياره نفسها، أعني: في ديار الغرب، وأوطان الغرب فمن حق كل شعب فيها، وكل فرد فيها أن ينعم بالحرية، وأن يمارس حقه في الديمقراطية، وأن يكون له حقه في اختيار حكامه، ومحاسبتهم، وعزلهم إذا خرجوا على الدستور. ولا يجوز لحاكم ـ مهما بلغ شأنه ـ أن يتجاوز حدوده الدستورية، فينتهك حقوق الأفراد، أو يصادر حرياتهم، أو أموالهم، أو يفصلهم من أعمالهم، أو يحاكمهم أمام محكمة غير عادية، ومن فعل ذلك فهو حاكم دكتاتوري ظالم، متعد على دستور الأمة، يجب خلعه وعزله، ولا حق له في البقاء فوق كرسيه يوما واحدا.

هذا ما عليه الغرب إزاء الحقوق والحريات في ديار الغرب، أما خارج ديار الغرب، فهو يكيل بكيل آخر، ويتعامل بمعيار آخر، فليس الحرام في الغرب حراما في الشرق، وليس الواجب المفروض في الغرب واجبا مفروضا في الشرق، إنه يتعامل تبعا لمصالحه ومنافعه، وكثيرا ما تؤدي به هذه النظرة (البراجماتية) النفعية، إلى تحليل ما هو حرام في الغرب، وإسقاط ما هو واجب ولازم في الغرب.

لهذا يسكت الغرب عن حكام العرب والمسلمين الذين يحكمون أوطانهم وشعوبهم حكما استبداديا طاغوتيا، بل كثيرا ما يقفون من خلف هؤلاء الطغاة، سرا في بعض الأحيان، وعلانية في أحيان أخرى، وكثيرا ما يسندون الديمقراطيات الزائفة، التي يحصل الرؤساء فيها على ٩٩٪ ، وأحيانا على ٩٩ , ٩٩٪!

ولم نر الغربيين احتجوا يوما على تجاوزات هؤلاء الحكام المتجبرين، ومظالمهم التي ظهرت في البر والبحر، ومست الكبار والصغار، والرجال والنساء.

بل رأيناهم يرحبون بإلغاء الانتخابات في الجزائر سنة ١٩٩١، التي حصل الإسلاميون فيها على الأغلبية الساحقة، ويشجعون المؤسسة العسكرية التي استولت على السلطة بالقوة الجبرية.

ومما لا يخفى على دارس أو مراقب لما يجرى في العالم من أحداث وتقلبات: أن الغرب يعادي كل نظام دكتاتوري، وكل حركة دكتاتورية تصل إلى الحكم، إلا في بلاد الإسلام، فهو يؤيد الانقلابات العسكرية، والحكومات الاستبدادية، ما دام استبدادها يصب في اتجاه التضييق على الإسلام والإسلاميين.

إقامة الكيان الصهيوني المغتصب :

ومن المآسي البشعة، التي تحسب على الغرب، وتجسد ازدواجيـة المعايير عنده في هذا القـرن : إقـامتـه لهذا الكيـان العـدواني المغتصب المسمى (إسرائيل) الـذي احتل فلسطين، وطرد أهلها منها بالقوة ليحل محلهم .

فالغرب هو منشئ هذا الكيان من عـدم، وهو الذي نفخ فيه الروح بعد إيجاده، وهو الذي غذاه ورعاه بعـد ولادته، وهو الذي قواه ودافع عنه بعد نشأتـه، وهو الذي مازال يمده بالوقود والطاقة كلما أعوزه شيء من ذلك .

بريطانيا هي التي وعدت اليهود بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين، كما تجلى ذلك في (وعد بلفـور) وزير خـارجية بـريطانيـا في ٢/ ١١/ ١٩١٧م . أي في الوقت الـذي كان يحارب بعض العرب مع بريطانيا دولة الخلافة التركية، ودخل القائد الإنجليزي (أللنبي) القدس في تلك السنة، وهو يقول بشماتة : اليوم انتهت الحروب الصليبية ! يعني أنه حقق بدخوله القدس ما فشلت فيه الحروب الصليبية قديما .

وقـد عينت عصبة الأمم بـريطـانيـا منتدبـة لحكم فلسطين، فكـان عهد الانتـداب البريطاني لفلسطين عهد تمكين وتـوطين للصهاينة ، وفتح البـاب لهجراتهم الجماعية إلى فلسطين ، ولم يكن لهم وجـود يذكـر بها ، وإتـاحة الفـرص لهم لبنـاء المستعمرات تلـو المستعمـرات ، في حين يضيق على أهل فلسطين كل التضييق ، وينكل بهم بأدنى سبب وبلا سبب .

وقامت ثـورات غاضبة في فلسطين ضـد التسلل الصهيوني المنظم، وضـد الانتداب البريطاني الممالئ ، والمتواطئ ، ولكنها لم تستطع مقاومـة مكر بريطانيا العظمى، ووراءها الغرب كله ، الذي يساند المشروع الصهيوني ، حتى أصبح الحلم حقيقة ، وقامت (دولة إسرائيل) على أرض ليست لها في ١٥ مايـو (إيار) ١٩٤٨م واعترفت أمريكـا بها في لحظة ولادتها ، وتتـابعت دول أوربا بعـدها تعترف بها وتـؤيدهـا ، من المعسكر الـرأسمالي ، إلى المعسكر الشيوعي ، وأعلن الجميع بصراحة مُرة : أن إسرائيل خلقت لتبقى .

وما زالت إسرائيل تصول وتجول ، وتعـربد إلى اليوم ، وتفرض سلامـا على هواها ، في فترة بـرز فيهـا الاستسـلام الفلسطيني ، والعجـز العـربي ، والـوهن الإسـلامي ، أمـام الاستكبار الإسرائيلي ، والتفرد الأمريكي ، مع التخاذل الأوربي ، والغياب العالمي .

والسلام في هذه الآونة يعني الرضا بالدون، والحياة الهون، والقبول لأرباع الحلول، بل لأعشار الحلول. ورحم الله أبا الطيب حين قال:

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميِّت إيلام!

الحرية الشخصية في الغرب معناها التسيب:

الملاحظة الثانية: أن لنا ـ نحن المسلمين ـ تحفظا على الحرية التي ينادي بها الغرب، وذلك في مجال (الحرية الشخصية) التي يرى الغربيون أن مجالها مفتوح، و لا تقف إلا عندما تصطدم بحرية الآخرين.

و معنى هذا أن الإنسان حر في أن يفعل ما يشتهي لا ما ينبغي، و إن خالف القيم العليا، أو أضر بنفسه، أو آذى من لا يستطيع أن يشكو، مثل الحيوان أو البيئة، أو العلاقات الكونية من حوله.

و معنى هذا، إما النزول بالإنسان إلى (درك الحيوان) الذي يتحرك بمقتضى غرائزه وحدها، و ليس عنده عقل يمنعه أو ضمير يردعه.

أو الصعود به إلى (منزلة الإله) الذي لا يسأل عما يفعل.

و كلا الأمرين خطأ و شرود عن الصواب، فحرية الإنسان ليست مطلقة بحيث لا يقيدها قيد، كما استقر في الضمير الغربي، الذي حول (الحرية) إلى (إباحية) تجعل الإنسان يركض وراء شهواته كالحيوان، و ربما كان أضل منه سبيلا.

و بهذا بات من حق الإنسان (العُري) و لو في الطريق العام، بل ارتكاب الفضائح الجنسية في الحدائق العامة و المتنزهات و الطرقات.

و أصبح الزنى و الشذوذ الجنسي من حق كل من الرجل و المرأة.

و صار زواج الجنس بالجنس مشروعا.

و غدا من حق المرأة أن تجهض جنينها، باعتباره جزءا من جسدها، و هي حرة في هذا الجسد، و لم ينظروا إلى هذا الكائن الحي أو المخلوق البشري الذي يسكن في أحشائها و أن له حق الحياة التي وهبها له الخالق الأعلى، وأن ليس لأمه ولا لأبيه ولا لأحد من الناس حق العدوان على حياته.

لقد أغفل الغـربيون أن الحرية المطلقة غير مـوجود في العالم، فالسيـارات في الطرق السريعة الـرئيسة، تسير في حدود معينـة، حددتها قوانين السير أو المرور، من خـالفها يعـاقب على قـدر مخالفتـه. والسفن والبواخـر في المحيطـات الكبرى تسير في خطـوط ملاحيـة مرسـومة لها، إذا تعدتها تتعـرض لكوارث مـدمرة، والطـائرات في جو السماء ليست حـرة، تذهب كما تشـاء يمنة و يسرة، بل لها خطـوط حددتها لها نظم الملاحـة الجوية، لا يجوز لها أن تتعداها.

بل نقول: إن الشمس والقمر والنجـوم في السماء، كل منها يجري في مدار محدود، ومسار معلوم ﴿**لا الشمس ينبغي لها أن تـدرك القمر، ولا الليـل سابق النهـار، وكل في فلك يسبحون**﴾ [يس: ٤٠].

ثم إن الفكـر الغربي فصل الحيـاة الشخصية عن الحيـاة العامـة. وقالـوا: إن الحياة الشخصية ملك للفرد يتصرف فيها كيف يشاء، يسكـر ويعربد، ويحيا زانيا أو شاذا أو قوادا أو ديوثا، أو ما شـاء أن يفعل، فليس لأحد أن يحاسبه على ذلك، أو يدخل ذلك في شئون الحياة الاجتماعية، أو الحياة العامة.

وهذا ليس بصحيح، فحياة الإنسان متداخلـة ومتلازمة، ويتصل بعضها ببعض، ويؤثـر بعضها في بعـض، ولا يتصـور أن يكون الإنسـان فاسـدا في حياتـه الخاصة، صـالحا في حياتـه العامـة. ولا أن يكون الإنسـان الشاذ أو القـواد أهلا لأن يـؤتمن على مسئولية ذات شأن.

ومن هنـا نجـد أجهـزة الاستخبـارات في الـدول الكبرى تصطـاد جـواسيسهـا من بين(أصحاب الشهـوات)عن طريق الخمـر والمخدرات والنسـاء، فهذه هي(المصـايد) السحـريـة التـي تـوقع في شبـاكهـا هـؤلاء الـذين في قلـوبهم مـرض، ممـن أضـاعـوا الصلوات، واتبعوا الشهوات.

أما الإسـلام فلا يفصل بين الحيـاتين الخاصة والعامـة، ولا بين العلاقتين: العـلاقة بالله والعلاقـة بالناس. ويرى أن من خان الله، لم يبعـد أن يخون قومه، ومن ضيع حق اللـه فهـو لحقـوق النـاس أشـد تضييعـا. ومن فسـدت سريـرتـه، فهيهـات أن تصلح علانيته، وكل إناء ينضح بما فيه.

احترام المرأة في الظاهر لا في الحقيقة :

الملاحظة الثالثة : أن الغرب أظهر احترامه للمرأة، وحررها من ظلم الرجال من الآباء والأزواج وأمثالهم، وخلصها من الاعتقادات التي كانت تؤمن بأنها لا روح لها، وأنها أحبولة الشيطان، إلخ. ولكن المرأة في الغرب تحترم ظاهرا وتمتهن باطنا.

لقد عوملت المرأة كالرجل، وطولبت بما يطالب به الرجل، وسيقت إلى المعامل والمصانع كالرجال، ناسين أن تكوينها ليس كتكوين الرجل، وأن وظيفتها ليست كوظيفة الرجل، وهذا ما قاله العلماء الكبار المتخصصون، وأنكروه على الغرب، مثل (ألكسيس كاريل) في كتابه (الإنسان ذلك المجهول).

إن المرأة خلقت لتكون أما، لتنشئ الأجيال في حضنها؛ ولذا تحمل وتضع وترضع وتربي، وتتوالى عليها الدورات الشهرية، وتعاني ما تعاني في الحمل والولادة كما قال القرآن: ﴿**حملته أمه كرها ووضعته كرها**﴾ [الأحقاف: ١٥] فكيف تطالب بما يطالب به الرجال؟ أليس هذا ظلما للمرأة، وتحميلا لها أكثر مما تطيق، ومحاباة للرجل على حسابها؟

لا غرو أن نشأ في الغرب ما سمي (الجنس الثالث) الذي أخرجه العمل اليومي المنهك من نعومه الجنس اللطيف، ولم يدخله في الجنس الخشن (الرجال)، فبقى جنسا ضائعا، لا هو من النساء ولا هو من الرجال.

لقد أمست المرأة في الغرب أداة للمتعة، والإثارة الجنسية، ولهذا قامت فلسفة الأزياء النسائية في الغرب على إبراز المحاسن، وتجسيد المفاتن، وإظهار المثيرات، وليس على الستر والحشمة، كما هو عندنا. كما أن المرأة باتت أهم عنصر في الإعلانات، حتى فيما يتعلق بالرجال، وما يحتاج إليه الرجال، تعلن عنه امرأة.

والويل كل الويل للمرأة التي يذبل شبابها، وتذهب بهجتها ونضرتها، هنا تكسد سوقها، وتلقي في سلة المهملات، ولا يكاد يزورها أحد، أو يهتم بها أحد، وهذا ما حدث لأشهر الممثلات في أمريكا وفرنسا وغيرهما.

ونظرا لانحلال الأسرة وانهيار القيم الأسرية، فقد أصبح كثير من الفتيات لا يتزوجن، ولا يعشن في أسر تظلهن، وتجمعهن بأزواجهن السكينة والمودة والرحمة، التي

ذكرها القرآن أركانا للحياة الزوجية المنشودة . بل يعاشرن الرجال معاشرة المخادنة والمرافقة دون ارتباط بمسئولية الزواج وتبعاته المالية والأخلاقية والاجتماعية والدينية .

ويا مصيبة من تحمل من هذه المعاشرة ، فماذا تفعل بهذا الجنين الذي لا يعرف له أب ، ولو عرف له أب فهو ليس أبا شرعيا مسئولا عن ولده وفلذة كبده .

ومن هنا راج في الغرب هذا البلاء المبين ، وهو الدعوة إلى (إباحة الإجهاض) بصورة مطلقة ، بلا ضوابط ولا قيود ، باعتبار أن المرأة حرة في جسدها ، بلا أي مراعاة للدين والفضيلة والأخلاق . وأي حرية هذه التي تبيح قتل مخلوق حي في أحشاء المرأة لا ذنب له ولا جريرة ، إلا شهوة الأبوين البهيمية؟

ومن المؤسف أن تتبنى هذه الدعوة أحزاب كبرى في الولايات المتحدة وفي غيرها ، وأن توضع على رأس قوائم الانتخابات ، وأن تحاول الأمم المتحدة فرضها في وثائقها ، كما حدث في مؤتمر السكان بالقاهرة ، وقد وقف رجال الدين في الإسلام والمسيحية ضد هذه الدعوة الفاجرة القاسية ، التي لا تليق بالإنسان ، الذي زعم أنه ارتقى إلى قمة الحضارة .

قرن انهيار القيم الإيمانية والأخلاقية

ومن الإخفاقات، بل من المآثم والمنكرات: موقف العالم الغربي وحضارته المعاصرة من الإيمان والقيم الأخلاقية، التي جاءت بها رسالات السماء جميعا، فقد خفت صوت الإيمان، وخبا نور اليقين بالله وبالجزاء في الآخرة، في ديار الغرب كلها، الليبرالية والشيوعية.

أما الشيوعية، فهي قائمة على تفريغ الحياة من الإيمان بالله، واعتبار الدين أفيون الشعوب، ودستورها يعلن: أن لا إله، والحياة مادة، فلا يتوقع في ديار الشيوعية الملحدة، أن ترتفع للإيمان راية، وأن يكون للدين سلطان. بل التعليم والتثقيف والإعلام ومؤسساتها، كلها قائمة على الإلحاد.

وأما الليبرالية، فهي لا تجحد الله صراحة، ولكن ــ كما قال ليوبولدفايس (أو محمد أسد) ـ ليس لله مكان في نظامها الفكري الحالي.

إن بلدان (العالم الحر) أو العالم الرأسمالي أو المعسكر الغربي تتبنى كلها (الفلسفة المادية) أساسا لحياتها الفكرية والسلوكية. والدين لديها مسألة فردية، ولا يكاد يرى للدين أثر في سلوك الأفراد، إلا لدى قلة قليلة، لا يمثلون الاتجاه العام في أوطانهم. ولا يكاد يذكر الدين إلا في مناسبات معينة، مثل أعياد الميلاد (الكريسماس) وقد أصبحت أعيادا قومية أكثر منها دينية.

كما يذكر الدين أحيانا باعتباره محركا من المحركات، وحافزا من الحوافز في السياسة، كما نجد ذلك عند المسيحيين الأصوليين الذين يتدينون بتأييد الصهيونية، وكما نجد

ذلك جليـا عند عـدد من رؤساء الـولايات المتحـدة الأمريكيـة ، مثل كارتـر ، وريجان ، وبوش ، وكلينتون .

ويذكر الـدين كذلك عند الغربيين عندمـا تظهر للإسلام قوة بصـورة ما ، في صورة صحوة عامة ، أو حركة منظمة ، أو دولة حاكمة كما في إيران والسودان ، فهنا تثور الروح الصليبية ، التي تـرى الإسلام (عدوها الأول) كما رأينـاهم في أمريكا بعـد انهيار الاتحاد السوفيتي يرشحون الإسلام ليكون هو عدوّ المستقبل ، ويسمونه (الخطر الأخضر) ، وقد كُتبت في ذلك كتب ، وعقدت ندوات ومؤتمرات .

أمـا التدين الحق ، بـوصفـه يقينا بـاللـه ولقائـه وحســابه ، وباعتبــاره تقوى للـه سبحانه ، تقوم على رجاء رحمته ، وخشية عقابه ، فهيهـات أن تجد له أثرا في الغرب ، إلا في القليل النادر .

ولهذا قـال بعض مفكـريهم : نحن نعيـش على ظل لظل ، فعلى أي شيء يعيش من بعدنا؟ يريد بظل الظل : ظل إيمان الجيل السابق الذي بنى الحضارة .

ومع خفوت صـوت الإيمان ، خفت صوت الأخلاق والفضـائل ، وغلبت الشهوات والرذائل ، فقـد قامت فلسفة الحضـارة الغربيـة على الفصل بين العلم والأخلاق ، وبين الاقتصاد والأخلاق ، والسياسة والأخلاق ، وبين الحرب والأخلاق .

ولهـذا اســـتخدم العـــلم الأسلحـــة الفتـــاكة التي تقتـــل الملايين ، إذ العـلم لا صـلة له بالأخـلاق .

واستخـدم الاقتصاد كل الـوسـائل لسحق المنافسين ، وطـردهم من السـاحة بأيـة وسيلة ، وكذلك للكسب والإثراء ولو من عرق الكادحين ، ودماء المستضعفين ، ودموع المسحوقين ، لأن الاقتصاد شيء ، والأخلاق شيء آخر .

واستخدمت السياسة كل الوسـائل لقهر الخصوم ، والتغلب على المنافسين بالكذب والخداع والمكر والغش ، فالغاية تبرر الوسيلة ، والأخلاق لا لزوم لها في عالم السياسة !

ومثل ذلك الحرب ، فتستخـدم فيهـا كل الـوسائل والآليـات ، وإن هـدمت قـرى بكاملها ، وقتلت الآمنين في دورهم ، والمدنيين في معـاشهم ، والنساء والأطفال والشيوخ في بيوتهم .

وفي الحياة العامة، وجدنا غياب الأخلاق التي تضبط شهوة الجنس، وتميز بين الإنسان والحيوان، وخصوصا خلق الحياء والعفاف والإحصان.

فالغرب يريد أن نفتح الباب على مصراعيه للجنسين، يستمتع بعضهما ببعض، دون قيود ولا ضوابط. إلا رغبة أحدهما في الآخر، فلا قيمة لعقد ولا لرباط زوجية مقدس. ولا لأسرة ينشأ في رحابها الأولاد، ويتعلمون في ظلالها آداب البنوة والأخوة والتعاون والمحبة، وتوقير الكبير، ورحمة الصغير، واحترام الملكيات، وإعطاء كل ذي حق حقه.

لقد رأينا الدعوة إلى الإباحية في الغرب يعلو صوتها، ورأينا أندية للعراة، وأندية للشذاذ والمخنثين من الجنسين، ورأينا هؤلاء وهؤلاء يظهرون في مجموعات لها أصواتها المكثفة في الانتخابات الرئاسية في أمريكا وفي غيرها.

بل رأينا من يمارس الجنس مع أخته، بل مع ابنته، بل مع أمه! ورأينا ألوانا جديدة من الزواج، غير الزواج الذي شرعه الله، وعرفه الناس، وهو: زواج الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة! ورأينا بعض الكنائس الغربية تبارك هذا الزواج، ورأينا من آباء الكنائس من يعلن في التلفاز أنه يعقد هذا الزواج. ورأينا بعض البلاد الأوروبية تجيز هذا قانونا، كما فعل مجلس العموم البريطاني.

ورأينا (مؤتمر السكان) الذي انعقد في القاهرة سنة ١٩٩٤م و(مؤتمر المرأة) الذي انعقد في(بكين) بالصين سنة ١٩٩٥م، كلاهما يتبنى هذا الاتجاه الذي يقوم على فلسفة الإباحية، ويتبنى هذه الألوان الشاذة من العلاقات، مثل الأسرة الوحيدة الجنس(تتكون من رجلين أو من امرأتين)! أو الوحيدة التكوين(تتكون من امرأة تتبنى طفلا)!

كما تبنّيا إباحة الإجهاض بإطلاق، واعتبار الحمل جزءا من جسم المرأة تتصرف فيه كما تشاء، متناسين هذا الكائن الحي الذي يجرى في أحشائها، وأن له حق الحياة، ولا حق لها ولا لغيرها في قتله وإعدامه.

وقد وقف الأزهر ورابطة العالم الإسلامي والمؤسسات الإسلامية مع الفاتيكان جنبًا إلى جنب (في مؤتمر السكان بالقاهرة) في مواجهة هذه الموجه العاتية التي تريد أن يتحلل الناس من سائر القيم والفضائل، وأن يعيشوا كالأنعام أو أضل سبيلا.

الشيوع والإقرار والتقنين :

لقد عرفت الخطيئة ، وعرف الشرود عن الأخلاق ، والانحراف عن الصراط المستقيم في كل الأمم ، وفي شتى الأزمنة ، ومن المعروف أن الإنسان مخلوق مزدوج الطبيعة ، اختلط فيه الخير والشر ، وامتزج فيه الطين والروح ، واصطرع فيه الفجور والتقوى . ﴿ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها﴾ [الشمس : ٧ ــ ١٠] . ولا بعد في أن يغلب الفجور التقوى لدى بعض الناس ، ويغلب الخير الشر ، ويعلو الطين على الروح ، فيخلد الإنسان إلى الأرض ويتبع هواه . ولكن الناس كانوا يستخْفون إذا وقعوا في الإثم ، ويستحيون أن يراهم أحد ، أو يعرفهم به أحد ، ويحاول أحدهم أن يبرئ نفسه إذا اتهم به . وإذا غلبته نفسه أو شيطانه تضرع إلى الله أن يتوب عليه .

ولكن المشكلة في فساد هذا القرن في الغرب ، تكمن في شيوع هذا الفساد وانتشاره انتشار النار في الهشيم ، حتى أمسى عرفا عاما ، يشب عليه الصغير ، ويهرم عليه الكبير ، فلا تنكره القلوب ، ولا تنهى عنه الألسنة ، بله أن تغيره الأيدي .

هذا هو الخطر في فشو المنكر والرذيلة والفساد في الأرض ، وهذا ما عابه الله على اليهود وبني إسرائيل ، إذ وقع فيهم الفساد ولم ينكروه ، بل سكت عنه العلماء والكبراء ، فباءوا بوزره ، كما قال تعالى : ﴿وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون . لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون﴾ [المائدة : ٦٢ـ ٦٣] .

واستحق المجتمع كله بهذا لعنة الله عز وجل وعقوبته : الفاعل باقترافه ، والساكت بإقراره ، كما قال سبحانه : ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾ [المائدة : ٧٨ـ ٧٩] .

وقد حذر القرآن من هذه النقمة الإلهية العامة في قوله تعالى : ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ [الأنفال : ٢٥] .

وقد ذكر لنا الحديث النبوي الشريف ما يصيب الناس من بلاء لم يعرفه السابقون ، ولم يجربه اللاحقون ، بسبب شيوع الفساد والمنكر ، وذلك فيما رواه ابن ماجه

والحاكم عن ابن عمر مرفوعا «ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى يعمل بها فيهم علانية، إلا سلط الله عليهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا»(١).

وهذا الإنذار النبوي صدقه الواقع المشاهد، حيث ظهرت فاحشة الزنى والشذوذ، وأصبح يعمل بها علانية، لا يستحي منها أحد، ولا يستخفي، فأصيب القوم بما أطلقوا عليه اسم (الإيدز) جزاء وفاقا، بما قدمت أيديهم، وما ربك بظلام للعبيد.

وقد حدثنا القرآن عن قوم انتشرت فيهم الفاحشة (الشذوذ الجنسي) وأدمنوها، حتى غدت آفة عامة فيهم، لا ينكرها بعضهم على بعض، وأرسل الله فيهم رسولا يدعوهم إلى توحيد الله تعالى، واجتناب هذا المنكر الذي يأتونه في ناديهم، وقال لهم رسولهم لوط: ﴿**أتأتون الذكران من العالمين. وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون**﴾ [الشعراء: ١٦٥ ـ ١٦٦].

وصفهم لوط هنا بأنهم عادون، وفي مواقف أخرى بأنهم مفسدون ومجرمون ومسرفون، وجاهلون، حتى ضيوفهم ما كانوا يدعونهم، وصدق القرآن حين قال: ﴿**لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون**﴾ [الحجر: ٧٢].

ولهذا كان لابد من تطهير الأرض من رجس هذه القرية التي كانت تعمل الخبائث، إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ﴿**فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود. مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد**﴾ [هود: ٨٢ ـ ٨٣].

ومن ثم نرى أن مشكلة الانحلال والفساد الخلقي في الغرب في هذا القرن إنما تتمثل أجلى ما تتمثل في ظهوره وشيوعه والإعلان به، وإقراره من العرف العام، وهذا أشد ما يكون خطرا على المجتمع الإنساني: أن يسكت عن المنكر فلا ينهى عنه، ثم ينحدر الأمر أكثر، فيؤلف المنكر ويعتاد، فلا ينكر الناس منكرا، ولا يعرفون معروفا، ثم يزداد الانحدار والسقوط، حتى يأمر الناس بالمنكر وينهوا عن المعروف، وهو مجتمع

---

(١) انظر السلسلة الصحيحة للألباني: جـ١ ـ رقم ١٠٦.

المنافقين، الذين هم في الدرك الأسفل من النار ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون﴾ [التوبة: ٦٧] .

وأشد من ذلك سوءا و انحطاطا: أن (يقنن المنكر) وتقره شرائع المجتمع وقوانينه السارية، وهذا هو منتهى السقوط والانحدار في الهاوية.

وهو ما انتهى إليه الغرب في أواخر هذا القرن حيث قنَّن (الشذوذ الجنسي) في بعض الأقطار وأجازته البرلمانات التي تملك التشريع.

فهذا ما هبط إليه الإنسان الغربي المعاصر(١)، في قرن الإنجازات التكنولوجية، والثورات العلمية، ولا نملك إلا أن نقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

خطر فصل العلم والاقتصاد والسياسة عن الأخلاق:

وهنا أود أن أزيد إضافة مهمة في موضوعنا هذا.

فقد لاحظت أن كثيرا من الكتاب المسلمين إذا تحدثوا عن سقوط القيم الأخلاقية في الغرب، ركزوا على جانب العفاف والإحصان والطهارة من الزنى والشذوذ ونحو ذلك مما يتصل بفضائل (الجنس).

وهذا حق لا ريب فيه، ولكن السقوط الأخلاقي عند الغربيين أوسع دائرة من ذلك، وذلك أن فلسفتهم ـ كما أشرنا من قبل ـ تقوم على الفصل بين العلم والأخلاق، وبين العمل والأخلاق، وبين الاقتصاد والأخلاق، وبين السياسة والأخلاق، وبين الحرب والأخلاق.

وانفصال هذه الأمور الجوهرية عن الأخلاق، معناه: أن الحياة كلها قد عزلت عن الأخلاق، وأن الأمة في علمها وعملها، وفي سياستها واقتصادها، وفي حربها وسلمها تمضي وفق أهوائها ومنافعها المادية، ولا يحكمها عنصر القيم والأخلاق.

---

(١) انظر: فصلي (الانحلال الأخلاقي) و(التفسخ العائلي) من كتابنا (الإسلام حضارة الغد)، ص ٣٢ ـ ٦٤ نشر مكتبة وهبة القاهرة.

وهذا سر ازدواج المعايير في السياسة الغربيـة، فهم يحرمون الشيء على قوم، ويحلونه لآخرين، وقـد يعاقبون شعبا على فعل، ولا يعـاقبون عليه إذا اقترفه آخـرون، كما نراهـم أبدا في موقفهم مـن إسرائيل، فهم يدينون الإرهاب إلا إذا ارتكبتـه إسرائيل، ويدينون قتل المدنيين ما لم ترتكبه إسرائيل.

وهذا أيضا سر استخدام العلم الغربي في التدمير والإهلاك بغير حساب.

وسر استخـدام القوة العسكـريـة الغربيـة في تنفيذ سيـاستهـا رغم أنوف الشعـوب المستضعفة في الأرض «تحكم الذئب فاخضع أيها الحمل»!

وهذا هـو السر في أن الاقتصاد الغربي لا يبـالي أن يسحق الصغار لمصلحـة الكبار، وأن يطرد من السـوق كل الناس لينفرد به وحـده، وأن يرخص الأسعار مـدة من الزمن لسلعة معينة، حتى يعجز الآخرون عن مجاراته، فيفلسوا وينسحبوا من الميدان، ويبقى هو وحده لا شريك له. ولله در شاعرنا أحمد شوقي حين قال:

وليس بعـامـر بنيـان قـوم   إذا أخـلاقهم كـانـت خـرابـا!

قدرة الحضارة الغربية على معالجة أخطائها:

ولكن لكي نكون منصفين يجب أن نعترف للحضارة الغربية المعاصرة – برغم ماديتها ونزعتها النفعيـة والإباحية – أنها قادرة على نقد ذاتها، واكتشـاف أخطائها، وتشخيص دائها، ووصف دوائهـــا، وبهذا تسـتطيع ـ إلى حـد كبير ـ أن تعـــالج كثيرا من الخـلل والاضطراب الـواقع في مسيرتها أو في كيانها نفســه. وخصوصـا الغرب الليبرالي، المؤمن بالحريات العامة، وبحرية التفكير، وحرية التعبير، وحرية النقد، من خلال الصحافة والكتب وأجهزة الإعلام والبرلمانات وغيرها.

ولهذا سرعان ما يسقط اتجاه ويأتي آخر، وتسقط حكومة وتأتي أخرى.

لقد رأينا مستر تشرشل يقود أمته (بريطـانيا) إلى النصر في الحرب العالمية الثانية، فلما وضعت الحرب أوزارها، غيره الشعب واختار غيره، فللحرب رجالها، وللسلم رجالها.

ولقد رأينا كيف نشأ الاتحاد الأوربي، وتطور بسرعة من سوق أوربية مشتركة إلى برلمان

أوربي، إلى كيـان سيـاسي يتقارب ويتـلاحم يـومـا بعـد يوم، لم تقف في سبيلـه عقبـة التاريخ، ومـا كان فيه من صراع دام استمر قـرونا، وسالت فيـه دماء عزيزة وغـزيرة، نتيجة لخلافـات دينية أو عـرقية أو إقليمية، أو مصلحيـة، وآخرهـا الحربان العـالميتان اللتان حصـدتا الملايين من أبناء أوربـا بأيديهم بعضهم لبعض، لم تحُـلْ عقبـة التاريخ دون الاتحاد، ولا عقبة الواقع وما فيه من تنـافس وتناقض وتعارض مصالح، بل تغلبوا على ذلك كله في ضـوء نظرة موضـوعية مستقبلية مستوعبـة، وفي ضوء ما نسميـه (فقه الموازنات) و(فقه الأولويات).

فانظـر إلى هذا النجـاح البـاهـر، وانظر في مقـابله إلى خيبتنا نحـن العرب، حيث لم نستطع إلى اليوم عقد قمة عربية ـ مجرد قمة ليـومين أو ثلاثة ـ لمناقشة مشكلاتنا الكبرى المعلقة، فقد وقفت حرب الخليج الأخيرة عقبـة في سبيلنا. وإن كنت شخصيا لا أعلق أملا على هذه القمـم، ولكنها مظهر من مظاهر الوحدة على أية حال.

قرن الحروب والدماء

ومن أبرز معالم هـذا القرن : أنه قرن الحروب والدماء ، التي لم يعرفهـا قرن من القرون قبل ذلك . ومن قـرأ أرقام الضحـايا ، ارتعـدت فـرائصه من هـولها وضخامتهـا ؛ فكل ضحايـا البشرية منـذ ابتدأت الخليقـة إلى أواخر القـرن الماضي لا تبلغ عشر معشـار ما حصدته هذه الحروب الوحشية من أبناء آدم في هذا القرن وحده .

لا شك أن الصراع بين البشر قـديم ، وقد تـلا علينا القـرآن قصة ابنى آدم بـالحق ، حين قتل الأخ أخـاه ابن أمـه وأبيـه ، ظلما وعدوانـا ، قتل قـابيل هـابيل ــ كما تسميهما الإسرائيليات ـ وذلك في فجـر التاريخ ، حين كانت البشرية أسرة واحـدة ، تتكون من أبوين وأولادهما ، وحين كـان الإنسان لا يعرف كيف يـوارى جثة أخيه ، فقد كـان هذا أول ميت في تـاريخ البشر، ومن المؤسف أن يكون أول ميت قتيـلا ، وأن يكون قتلـه بيد أخيه ﴿**فطوعت له نفسه قتل أخيه ، فقتله ، فأصبح من الخاسرين**﴾ [المائدة : ٣٠] .

واستمـر الصراع والقتـال بين البشر لأسبـاب شتى ، طـوال القـرون ، وفي مختلف البيئات والبلـدان ، ولا يعرف عصر خـلا من القتل والقتال وإراقـة الدمـاء ، حتى قال بعض الأدباء والمفكرين : الإنسان حيوان محارب!

ولكن البشريـة في تاريخهـا الطـويل ، لم تعـرف قرنـا وقع فيـه من الحروب الكبرى ، وجرى فيه من أنهار الدماء ، مثل ما جرى في هذا القرن الدموي الأحمر.

ذلك أن الحروب في العصور الماضية كانت حروبا محلية ، وكانت الأعداد فيها قليلة ، وكانت أدوات الحرب محدودة التأثير، فقلما يصيب السلاح إلا واحدا من الناس إذا جاء

ممن يتقن استعماله، سواء كان أضربا بالسيف، أم طعنا بالرمح، أم رميا بالنبل والسهام، حتى الرمي بالمنجنيق ونحوه، قلما كان يصيب غير المباني والقلاع والتحصينات.

أما حرب هذا العصر، فقد تطورت أسلحتها تطورا هائلا، منذ اختراع البارود، ثم الأسلحة الأتوماتيكية والصاروخية، والدبابات والمدرعات والغواصات والسفن الحربية، والطائرات المقاتلة، وحاملات الطائرات، ثم الأسلحة الكيماوية والجرثومية، والأسلحة النووية. وما زال الإنسان ـ في الغرب خاصة ـ يطور أسلحته باطراد وسرعة جنونية، حتى تغدو الأسلحة الحديثة، بعد مدة قليلة، أسلحة قديمة عفى عليها الزمن، يبيعها لأمثالنا الذين نشتري مخلفات أسلحته بعشرات المليارات.

كما تطورت مساحة الحرب، فلم تعد بين قبيلتين، ولا بين شعبين، بل ولا بين عدة شعوب، بل كتل هائلة من البشر، انقسمت إلى معسكرين يقاتل بعضهما بعضا، حتى شملت العالم كله.

وهذا ما شهدناه في الحربين الكونيتين الكبيرتين في هذا القرن: الحرب العالمية الأولى ما بين سنة ١٩١٤ و ١٩١٨م والحرب العالمية الثانية ما بين سنة ١٩٣٩م وسنة ١٩٤٥م وهي في الأساس بين دول أوربية، ومع كل منهم حلفاء من أنحاء العالم.

ومما ضاعف حجم الخسائر البشرية في حروب هذا القرن: زيادة أعداد السكان في قارات العالم كلها؛ ولهذا غدت هذه الآلات العسكرية الجهنمية تقتل الآلاف تلو الآلاف مرة واحدة، بل عشرات الألوف، بل مئات الألوف، حتى كانت الحصيلة النهائية، بالملايين بل بعشرات الملايين، كما ستقرأ ذلك بالأرقام التي أحصاها أهل الاختصاص.

ومن الفوارق بين هذه الحروب الكونية في هذا القرن، وبين الحروب القديمة: أن الحرب قديما، كثيرا ما كانت تنتهي في يوم أو أيام، كما رأينا في الغزوات النبوية في عصر الرسالة، وفي عصور الفتوح الإسلامية، ومعارك التاريخ الإسلامي الكبرى، كانت الحرب تنتهي في يوم مثل غزوة بدر أو أحد أو حنين، وكذلك نرى المعارك الحاسمة في التاريخ، كان معظمها يحسم في يوم، مثل معركة اليرموك مع الروم، ومعركة القادسية مع الفرس، ومعركة حطين مع الصليبيين، ومعركة عين جالوت مع التتار.

والعرب في الجاهلية أطلقوا على معاركهم التاريخية كلمة (أيام العرب) لأن الأصل فيها أن تقع في يوم واحد، وإن كان بعضها قد استمر مدة طويلة، مثل حرب البسوس، التي دامت أربعين عاما، ولكن ليس معنى هذا أن هذه الأربعين عاما كانت كلها حروبا بين القبيلتين المتصارعتين: بكر وتغلب، بل العداوة هي المستمرة، وقد يقع ما بين الحين والحين اشتباكات تكبر أو تصغر.

أما الحربان العالميتان، فقد استمر كل منهما نحو خمس سنوات، مشتعلة الأوار ملتهبة السعير، تغذيها الروح العدائية الكامنة، وينفخ فيها شيطان الكبر والاستعلاء في الأرض، ويغذيها العلم بما يخترع من أسلحة جبارة، وتبررها السياسة بما لها من مطامع وأهواء.

قرن الحربين العالميتين:

وقعت الحربان العالميتان الكبريان في حوالي ثلاثين سنة (١٩١٤ــ ١٩٤٥) بين أوروبا بعضها وبعض: ألمانيا ومن انضم إليها من حلفاء، وإنجلترا ومن كان معها من حلفاء في القارات المختلفة. هذه الحرب لم تكن كحرب البسوس، أو حرب داحس والغبراء عند العرب، ولا كالحرب بين الفرس والروم في أوائل الإسلام، ولا كالحرب بين المسلمين والمشركين في غزوات الرسول وقد بلغت (٢٧) غزوة، وسرايا أصحابه وهي نحو (٥٦) سرية، فقد كان كل حصيلة هذه الغزوات والسرايا لا يزيد على ٤٠٠ شهيد وقتيل من المسلمين وخصومهم.

ولم تكن هذه الحرب كالحروب التي وقعت بين المسلمين والفرس أو الروم في أيام الفتح الإسلامي، ولا كالحروب التي نشبت بين الأوربيين والمسلمين فيما سمي بالحروب الصليبية، وإن سالت فيها دماء غزيرة، ولا سيما من المسلمين على أيدي الصليبين. ولا بين الأوربيين بعضهم وبعض خلال ما سموه القرون الوسطى، ولا سيما بين الكاثوليك والبروتستانت، وقد كانت حروبا قاسية ومجازر رهيبة انتقم فيها بعضهم من بعض بشكل رهيب، وحقد أسود بغيض، قل أن يوجد له نظير.

لقد كانت هذه الحرب أو هاتان الحربان أشد وأنكى من ذلك كله بمئات المرات بل آلاف المرات، فقد استخدمت فيها أدوات حديثة لم يكن يملكها الإنسان القديم،

واستبيحت فيها الحرمات والدماء، بما لم يعرف من قبل، واتسعت مساحتها، حتى شملت العالم كله أو كادت.

وقد كان عدد القتلى في الحرب العالمية الأولى ـ حسب إحصاءاتهم أنفسهم ـ نحو تسعة ملايين (٩٠٠٠٠٠٠) قتيل.

أما الحرب العالمية الثانية ـ وقد تطورت فيها أسلحة القتل والدمار ـ فقد بلغ نحو واحد وستين مليونا من البشر (٦١٠٠٠٠٠٠).

وهذه تفاصيل الضحايا والقتلى في الحرب العالمية الثانية بالأرقام:

الاتحاد السوفيتي	٢٥,٥٦٨,٠٠٠
الصين	١١,٣٢٤,٠٠٠
ألمانيا	٧,٠٠٠,٠٠٠
بولندا	٦,٨٠٠,٠٠٠
اليابان	١,٨٠٠,٠٠٠
يوغسلافيا	١,٧٠٠,٠٠٠
رومانيا	٩٨٥,٠٠٠
فرنسا	٨١٠,٠٠٠
هذا بالاضافة إلى بريطانيا وبعض الدول الأخرى	
المجموع:	٦١ مليونا

وهذه بعض الأرقام الناطقة بعدد القتلى خلال القرن المنصرم، المعبرة عما اقترفته البشرية من جرائم شنيعة، في قرن الإنجازات العلمية:

الاتحاد السوفيتي: من عام ١٩١٧ ـ ١٩٩١ ـ ٦٢ مليونا.

الحرب العالمية الثانية: ١٣ مليونا ـ ٢٥ مليونا[١].

الصين: من عام ١٩٢٣ ـ ١٩٨٧ ـ ٣٨ مليونا.

(١) Alan Bullock - Hitler Stalin : Parallel Live

منذ عـام ١٩٧١ ـ ١١٠ مليون حالـة إجهاض متعمد، قال مـؤلف الكتاب : وإذا اعتبرت هذه جريمة، تكون أكبر جريمة في التاريخ .

ونحن ــ المسلمين ـ لا نشك في أنها جريمـة اعتداء على إنسـان حي، وإن يكن في المرحلة الجنينية، إلا أنه إنسان!

مجاعة الستينيات : ٢٧ مليونا .

الحرب العالمية الأولى : ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ـ ٩ ملايين .

الحرب العالمية الثانية : ٦١ مليونا .

قتلى الحكومات خلال القرن : ١٧٠ مليونا (دون الحروب) وهذه هي التفاصيل :

البلـد	السنـة	العـدد
الاتحاد السوفيتي	١٩١٧ ـ ١٩٨٧	٦١,٩١١,٠٠٠
الصين الشيوعية	١٩٤٩ ـ ١٩٨٧	٣٥,٢٣٦,٠٠٠
ألمانيا النازية	١٩٣٣ ـ ١٩٤٥	٢٠,٩٤٦,٠٠
الصين القومية	١٩٢٨ ـ ١٩٤٩	١٠,٠٧٥,٠٠٠
اليابان	١٩٣٦ ـ ١٩٤٥	٥,٩٦٤,٠٠٠
الثورة الشيوعية فى الصين	١٩٢٣ ـ ١٩٤٩	٣,٤٦٦,٠٠
كمبوديا	١٩٧٥ ـ ١٩٧٩	٢,٠٣٥,٠٠٠
تركيا	١٩٠٩ ـ ١٩١٨	١,٨٨٣,٠٠٠
فيتنام	١٩٤٥ ـ ١٩٨٧	١،٦٧٨،٠٠٠
كوريا الشمالية	١٩٤٨ ـ ١٩٨٧	١,٦٦٣,٠٠٠
بولندا	١٩٤٥ ـ ١٩٨٧	١,٥٨٥,٠٠٠
باكستان	١٩٥٨ ـ ١٩٨٧	١,٥٠٣,٠٠٠
المكسيك	١٩٠٠ ـ ١٩٢٠	١,٤١٧,٠٠٠
يوغسلافيا	١٩٤٤ ـ ١٩٨٧	١,٠٧٢,٠٠٠
روسيا	١٩٠٩ ـ ١٩١٧	١,٠٦٦,٠٠٠
تركيا أتاتورك	١٩١٩ ـ ١٩٢٣	٨٧٨,٠٠٠
بريطانيا	١٩٠٠ ـ ١٩٨٧	٨١٦,٠٠٠
البرتغال	١٩٢٦ ـ ١٩٨٢	٧٤١,٠٠٠
إندونيسيا	١٩٦٥ ـ ١٩٨٧	٧٢٩,٠٠٠
دول أخرى	١٩٠٠ ـ ١٩٨٧	٢,٧٩٢,٠٠٠
المجموع	١٩٠٠ ـ ١٩٨٧	١٦٩,٢٠٢,٠٠٠

الثورة الشيوعية الدموية:

ولا يتسع المجال هنا لنذكر تفاصيل هذه المذابح البشرية، وما أريق فيها من دماء، قدمت قربانا لهذا الوثن الجديد (الشيوعية) الذي أنكر الإله الواحد، وأقام (إلها جديدا) هو: المادة، ولا شيء غير المادة.

ولا يستبعد ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، أن يقترف أشنع الجرائم، وأبشع ألوان الفساد في الأرض، فلا دين يردعه، ولا ضمير يمنعه، ولا خوف من الله تعالى يقمعه.

ولهذا رأينا فرعون الطاغية المتأله في الأرض، يذبح أبناء بني إسرائيل ويستحيي نساءهم بالقهر والجبروت، لعدم يقينه بالله وحسابه، كما قال القرآن الكريم: ﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون﴾ [القصص: ٣٩].

﴿ وقال موسى: إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾ [غافر: ٢٧].

ولا عجب أن رأينا لينين الذي أشعل الثورة البلشفية، وأقام الدولة الشيوعية في روسيا، يرتكب من جرائم التقتيل والتذبيح والترويع ما لا يتصوره بشر. وأعجب من ذلك أنه لم يشعر بأي ألم أو وخزة ضمير من جراء ما ارتكب، بل كتب في رسالة له إلى ماكسيم جوركي يقول: إن قتل ثلاثة أرباع العالم يهون، في سبيل أن يصبح الربع الباقي شيوعيا!!

يتمم هذه الصورة القبيحة ما فعله خليفته من بعده ستالين، حتى بالشيوعيين الأقحاح أنصار لينين، وما فعله بالمسلمين من تقتيل وتنكيل وتهجير إلى صحراء سيبريا.

وعلى كل حال، قد قامت الثورة الشيوعية في روسيا في سنة ١٩١٧م من هذا القرن، وأقامت الاتحاد السوفيتي، وأدخلت فيه عددا من الجمهوريات الإسلامية العريقة وراء ستارها الحديدي بالقوة والغلبة المادية، وكانت القوة الثانية، والقطب الثاني في العالم، ثم قبل أن ينقضي القرن انهار هذا البنيان الضخم، وهو يملك ترسانة

عسكرية هائلـة ، من الأسلحة النووية والتدميرية ، لأنه بني على شفـا جرف هار، فانهار بأهله ، وكان مصادما لفطرة الله التي فطر الناس عليها ، وما صادم الفطرة لابد أن تغلبه الفطرة ، وأن يعاقبه القدر الأعلى ، بقدر مصادمته لها .

وقد كانت مصادمة الشيوعية للفطرة مصـادمة ضخمة ، فكانت العقوبة الإلهية على قدرها ، سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

إنجازات أمتنا
في القرن العشرين

- ☐ التحرر من الاستعمار
- ☐ انتشار التعليم
- ☐ ظهور حركات الإحياء والتجديد الإسلامي
- ☐ مقاومة التغريب والغزو الفكري
- ☐ انطلاق الصحوة الإسلامية

إنجـازاتنـا في القـرن العشـــرين

هل أنجزنا شيئا في القرن العشرين؟

أعني بنا : نحن العرب الذين بلغنا في آخر القـرن ما يقرب من ثلاثمائة مليون إنسان في الوطن العربي من محيطه الهادر إلى خليجه الثائر، كما يهتف الهاتفون .

ونحـن ـ المسلمين ــ الـذين بلغنا في آخر القــرن ـ بما فينا نحن العرب ــ نحو ألف وثلاثمائة مليون ، أي نحو مليار وثلث المليار من البشر.

ولا شك أن القوة البشرية نعمة عظيمة امتـن الله بها على عباده حين قال على لسان نبيه شعيب لقومه : ﴿واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم﴾ [الأعراف : ٨٦] .

وقال الشاعر العربي يفتخر ويباهي بكثرة عدد قومه :

مـــلأنـا البر حتى ضـــاق عنـا   ونحن البحـــر نملـؤه سفينــا

وقال الآخر:

تعيرنـــا أنـــا قليل عـــديـــدنـــا   فقلت لها : إن الكـــرام قليل

فحاول أن يعتذر عن قلة العدد .

ولكن لا قيمة لهذه الكثرة البشرية إذا لم تنجز مـن الأعمال الكبيرة ما يكافئ عددها ، وإلا كانت كمّا بلا كيف ، وأمست (كثرة كغثاء السيل) كما جاء في الحديث النبوي الذي أخبر عن تداعي الأمم على أمة الإسلام ، كما تتـداعى الأكلة على قصعتها ، أي أن هذه

الأمم التي يدعو بعضها بعضا، ويتكتل بعضها مع بعض، تريد أن تلتهم الأمة المسلمة التهام الجياع لطعام القصاع. وحين سأل الصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ «قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل»(١).

الخير والبركة إذن ليس في مجرد الكثرة، بل في العمل والإنجاز والعطاء.

وسؤالنا: هل أنجزنا شيئا؟ يعني: هل أنجزنا شيئا كبيرا ذا بال، يرصد في سجلنا، ويرفع من قدرنا، ويجعل لنا في العالمين شأنا؟

هذا هو المقصود بالإنجازات، فالإنجازات العادية يشترك فيها الذكي والغبي، والضعيف والقوي، والمتقدم والمتخلف، والعظيم والحقير.

أما ما يسمى (إنجازا) حقا، فهو الأمر المتميز، الذي يبهر الأبصار والعقول، ويعترف الناس جميعا لصاحبه: أنه أنجز أمرا مهما.

فماذا أنجزت أمتنا في هذا القرن العشرين؟

لا نزاع في أن هناك عددا من الإنجازات الكبيرة لأمتنا، لا يجوز أن نغفلها، أو نقلل من شأنها، حتى لا نصاب بالإحباط والمرارة، وحتى لا نكون جائرين على أنفسنا، فنكون نحن والزمن عليها. وجل هذه الإنجازات إنما هي من عمل الشعوب والجماهير، وليس من عمل الأنظمة الحاكمة، إلا ما ندر منها. وهذا ما يخيفنا ويفزعنا، فقد جاء في حديث البخاري: «إذا ضيعت الأمانة فانتظروا الساعة؟ قيل: وكيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظروا الساعة»(٢) ولكل أمة ساعتها التي تذهب فيها عزتها وسيادتها واستقلالها.

وسنتحدث في الفصل التالي عن هذه الإنجازات، التي نرى لها أهمية خاصة في مسيرة أمتنا.

---

(١) رواه أحمد وأبو داود عن ثوبان، وهو حديث صحيح.
(٢) البخاري: عن أبي هريرة (٥٩).

١ - التحرر من الاستعمار

لا شك أن أهم الإنجازات التي أتمتها الأمة في هذا القرن، هو: التحرر من (الاستعمار)، الذي احتل أرضها، وأذل شعوبها، على نحو ما ذكر القرآن الكريم على لسان ملكة سبأ: ﴿قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون﴾ [النمل: ٣٤]. فهي هنا تشير إلى الملوك إذا دخلوا بلدا فاتحين مستعمرين، فهم يفسدون البلاد، ويذلون العباد.

وقد احتل الاستعمار الغربي ديار المسلمين في المشرق والمغرب، والشمال والجنوب، في غفلة من الشعوب، وتتابع من الكروب، وتخاذل من الحكام، وفرقة في الصف، وغياب عن العصر، ولم ينج من هذا الاستعمار إلا اليمن والمملكة العربية السعودية. وما عداهما من بلاد الإسلام في آسيا وأفريقيا: فقد وزع بين الاستعمار البريطاني والفرنسي والإسباني والإيطالي والهولندي، فقد احْتلّت هولندا التي كان تعدادها في ذلك الوقت خمسة ملايين أو أقل: إندونيسيا التي كان تعدادها خمسين مليونا أو أكثر.

وكان لهذا الاستعمار خطره على البلاد المستعمرة ماديا ومعنويا. فقد امتص خيراتها، ووجه اقتصادها لصالحه؛ استفاد من المواد الخام التي وجدها في أرض الإسلام، فأخذها مجانا أو بأرخص الأسعار، كما استفاد من الأيدي العاملة التي كانت تعمل بأقصى جهدها، ولا تنال من الأجر ما يحييها حياة طيبة، رغم كد اليمين، وعرق الجبين، وتعب السنين. وجعل من هذه البلاد سوقا لتوزيع سلعه ومنتجاته، فهو مستفيد من كل ناحية، كالمنشار، يأكل صاعدا، ويأكل هابطا.

وقد أشاع أن هذه البلاد لا تصلح إلا للزراعة، ليبعدها عن الصناعة، ليخلو الجو له وحده فيها، وحتى الزراعة لم يحاول أن يطورها ويحسنها كما ونوعا.

وقد أدار دولاب التعليم بحيث يصب في النهاية لصالحه، فهو يخرج موظفين يعملون في دوائره ومكاتبه، لا مبتكرين ولا مبدعين، ولا أناسا ينتمون إلى دينهم، ويعرفون حضارتهم وثقافتهم ورسالتهم التاريخية. فيتخرج الفرد من مدارسه وكلياته، وقد علم عن الغرب وتاريخه ورجاله أضعاف ما يعرف عن الشرق المسلم ونبيه وكتابه ودعوته. إنه يعرف الكثير عن نابليون، ولا يكاد يعرف شيئا عن محمد (صلى الله عليه وسلم).

وأي معهد لا يخضع لهذه السياسة مثل الأزهر، فهو يعتبر (ناشزا) ومتمردا، ويجب أن نرسم الخطط على أساس عزله عن الحياة، وتركه يموت بالاختناق والحصار.

وقرب الاستعمار الفئات التي تقبل التعاون معه، وأبعد الفئات التي ترفضه، ووضع المناهج، لتغيير هوية الأمة، عن طريق إلغاء الشريعة الإسلامية، لتحل محلها قوانينه الوضعية، و عن طريق إحلال الأفكار والمفاهيم والتقاليد الغربية، محل المفاهيم والآداب والتقاليد الإسلامية، وسيادة القيم الغربية على القيم الإسلامية.

ولم تستسلم الأمة في مجموعها لهذا الاستعمار يوما ما، بل قاومت ما وسعتها المقاومة، ربما سكتت فترة من الزمن، حتى ربما ظن الظانون أنها قد استكانت ورضخت للأمر الواقع. ولكن سرعان ما تأتي الأحداث، فتهب الأمة هبتها، وتشعل ثورتها، وتنطلق كالشهاب الثاقب، يرجم ويحرق.

في مصر قاوم رجال مثل مصطفى كامل ومحمد فريد، وبعدهما سعد زغلول، وثورة سنة ١٩١٩م، حتى حصلت على استقلال منقوص، ثم استكملته بعد ذلك بعد كفاح مسلح خاضه الشباب المسلم في مصر في معارك قناة السويس سنة ١٩٥١م حتى انتهى إلى صورته الأخيرة في عهد الثورة.

في الجزائر قاوم الأمير عبد القادر ورفاقه الفرنسيين، وفي ليبيا قاوم الطليان عمر المختار ورجاله، وفي المغرب عبد الكريم الخطابي وأنصاره، وفي فلسطين عز الدين القسام وأبطاله، والحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين الأكبر، وسطر كل من هؤلاء صفحات مجيدة في كتاب الجهاد ضد الاستعمار.

وفي الهند ــ قبل التقسيم ـ كان للمسلمين دور كبير في تحرير البلاد من الاستعمار البريطاني، وبرزت رموز إسلامية لها وزنها، مثل مولانا أبي الكلام آزاد، وشيوخ الهند الكبار.

وفي إندونيسيا كان حزب ماشومي، وحزب دار الإسلام وغيرهما ممن كان الإسلام هو حافزه الأول.

لقد بلغ الاستعمار ذروته بعد الحرب العالمية الأولى، وقد اقتسم (تركة الرجل المريض) كما كانوا يسمونها، يعنون بها: بلاد الخلافة العثمانية، وانتدبت (عصبة الأمم) بريطانيا على فلسطين، فكانت فرصة لا تعوض لتحقق بها وعد (بلفور) وزير خارجيتها، بإقامة وطن قومي لليهود، و لتغرس فيها هؤلاء المستقدمين من أقطار شتى، وخصوصا من روسيا وأوربا الشرقية، وأمسى العالم العربي من محيطه إلى خليجه، والعالم الإسلامي من محيطه إلى محيطه، من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي، أو من جاكرتا إلى نواكشوط، تحت وطأة الاستعمار.

وكما قال الشاعر:

ما طار طير وارتفع   إلا كما طار وقع

فهذا ينطبق على الاستعمار الذي ارتفع إلى أقصى ما يمكن في هذا القرن، ثم لم يلبث أن وقع وسقط في القرن نفسه.

انتفضت الشعوب المستعبدة، تطالب بالحرية، وهو حق طبيعي لها، وكما قال شوقي:

يفزع الطير للوثوب من الأسـر   فكيف الخلائق العقلاء!

وتكللت جهود المقاومة المستميتة والكفاح المستمر للاستعمار بالنجاح، برغم عدم تكافؤ القوة المادية للطرفين، ولكن الحق يجعل صاحب الدار دائما أقوى من الغاصب وأسلحته وعدده وعتاده.

وقد سجل التاريخ دور الدوافع الدينية والتيار الديني في تأجيج نار المقاومة ضد المحتل المستعمر، وهذا ما شهدنا بعضه بأعيننا فيما عاصرناه من أحداث، وما قرأناه لمن راقب وأنصف من المؤرخين.

وقد شهد المؤرخ المعروف برنارد لويس في كتابه عن (الغرب والشرق الأوسط) بأثر الحركات الدينية وشيوخ الدين في معارك التحرير في البلاد الإسلامية، ومطاردة الاستعمار الغاصب، حتى يخرج من دار الإسلام.

تحرير غير كامل

ومع ما أثمرته المعارك الضارية الشريفة في مكافحة الاستعمار من تحرر البلاد العربية والإسلامية من الاستعمار الغربي العسكري، نرى هناك شوائب تعكر صفو هذا التحرر، إذ لم يكن تحررا كاملا، كما تريد الأمة. تتمثل هذه الشوائب فيما يلي:

الاستعمار الشرقي لا يزال قائما:

أول هذه الشوائب: أننا تخلصنا من الاستعمار الغربي الرأسمالي، ولكننا لم نتحرر من الاستعمار الشرقي الشيوعي، وكلاهما استعمار، بل نرى أن الاستعمار الشرقي أشد وأنكى وأقسى من الاستعمار الغربي، فهو يحارب دين الجماعة، ويحاول تغيير هويتها، وسلخها من ذاتيتها.

فقد بقيت الجمهوريات الإسلامية الآسيوية العريقة في إسلامها، مثل أوزبكستان وطاجكستان، وكازاخستان، وغيرها تحت سيطرة الاتحاد السوفيتي المتسلط، وراء الستار الحديدي الغليظ.

وقد كان الكثيرون يعدون هذه الأوطان الإسلامية ضمن الأقليات الإسلامية، فهي أقلية في الاتحاد، ولكنها في واقع الأمر، أقطار مستقلة ضمت قهرا إلى السوفيت، ودخلت قسرا تحت سلطانهم.

وحتى حين انهار الاتحاد السوفيتي، وسقطت الشيوعية، وتحررت روسيا من حكم الشيوعيين، وتحررت أوربا الشرقية (رومانيا والمجر وبولندا وبلغاريا وتشكوسلوفاكيا وغيرها) من النظام الشيوعي، ومن الحكام الشيوعيين، وانضمت إلى الأنظمة الديمقراطية، واختار كل شعب الحكام الذين يريدهم.

إلا الجمهوريـات الإسلاميـة، فقد اتفق الـروس مع الغرب على عـدم تغيير الوضع القائم في تلك البـلاد، وبقي الشيوعيـون فيها قـابضين على أزمة الأمـور، وما ذلك إلا للخوف من انبعاث الإسلام وصحوته، وأن يكون هو البديل والوارث للشيوعية في حال سقـوطها، وسقـوط ممثليهـا. فكان عجبـا كل العجب أن تسقط الشيـوعية في روسيـا نفسها، وتبقى مسلطة، شاهرة سيفها، في الجمهوريات الإسلامية وحدها.

الاستعمار الصهيوني:

وثاني هذه الشـوائب: أننا تحررنا من الاستعمار الغربي، وابتلينـا باستعمار أخبث منه وأخطـر، وهو الاستعمار الصهيـوني، وهو أعلى مـراحل الاستعمار، وشر أنـواعه، فهـو استعمار استيطاني عدواني، ولكنه ليس كـالاستعمار الاستيطاني الفرنسي في الجزائر، فقد كـان الاستـعمار الفـرنسي في الجـزائر يـزاحم أهل البـلاد في أراضيهم وأمـلاكهم، ويبقيـهم معه شركـاء. أما الاستعمار الصهيوني، فهو يعمل على اقتـلاع أهل البلاد من جذورهم، وتهجيرهم من ديارهم بالعنف والإرهاب والمذابح البشرية، ليحتل مكانهم، ويغتصب بلادهم.

ولا ريب أن هـذا الاستعمار الخبيث من ثمرات الاستعمار الغـربي، فهو الـذي مهد له، وسـاعده منـذ وعد (بلفور) وقبلـه وبعده، وخصـوصا الاستعمار البريطـاني، أيام انتدابـه على فلسطين لمدة ثلاثين عامـا. غرس فيها البذرة الصهيـونية الخبيثة وتعهـدها ونماها، في حين حـارب أهل فلسطين، وجردهم من كل قوة تمكنهم من المحـافظة على وطنهم، ولم يخرج من فلسطين، إلا بعد أن سلمها للعصابات الصهيونية، التي أعلنت دولـة إسرائيل في ١٥/ ٥/ ١٩٤٨م واعترفت بها أمـريكا في الحال، ثم روسيـا وإنجلترا وبلاد الغرب، وأعلنت أمريكا وروسيا كلتاهما: أن إسرائيل إنما خلقت لتبقى.

وسنعـود إلى قضيـة الصهيـونيـة ومشروعهـا في الحديث عن (الإخفـاقـات) وعن (التحديات).

الاستعمار الجديد:

وثالث هذه الشوائب: هو أننا تحررنا من الاستعمار القديم، ولكننا استسلمنا للاستعمار الجديد. الذي تمثله أمريكا بقوتها العسكرية والاقتصادية والعلمية، وتفردها بالنفوذ في العالم، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي. فقد كان وجوده رحمة للشعوب والبلاد المستضعفة، فإن تصارع الأقوياء، دائما من مصلحة الضعفاء، وقد كان من دعاء سلفنا الصالح: اللهم اشغل الظالمين بالظالمين، وأخرجنا من بينهم سالمين!

الاستعمار الجديد لا يقوم على احتلال الأرض، والتحكم المباشر في الشعب، بل يقوم على إملاء الإرادة من وراء ستار، بالنصائح الملزمة، والتهديدات المبطنة، وقد تبعث بقوات عسكرية لها، إلى بعض الأقطار بدعوى الاتفاقيات الثنائية، ولا يتصور اتفاق حقيقي بين قوي مستكبر، وضعيف مغلوب، إنما هو الفرض والإملاء، الذي لا يملك الطرف الضعيف فيه إلا أن يقول: سمعنا وأطعنا.

ونفوذ هذا الاستعمار في المنظمات الدولية، مثل مجلس الأمن، والبنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، يمكنه من الإغراء والتهديد بالإعطاء والحرمان، لمن يشاء، وكيف يشاء.

وقد يتدخل هذا الاستعمار تدخلا مباشرا عند اللزوم، كما تمثل ذلك في ضربه للسودان ولأفغانستان.

وقد بلغ من قوته أن يؤثر على أوربا رغم تقدمها العلمي والتكنولوجي، وهذا ما جعلها تتناسى ما كان بينها من صراع وحروب، وتتنادى بإقامة (اتحاد أوربي) يجعل منها قوة لها وزنها الاقتصادي والسياسي في مقابلة القوة الأمريكية الرهيبة.

الاستعمار الثقافي:

ورابع هذه الشوائب: هو أن الاستعمار الغربي العسكري قد حمل صولجانه ورحل عن البلاد، ولكنه أبقى وراءه استعمارا، أشد منه خطرا، وأعمق في الحياة أثرا، وهو (الاستعمار الثقافي) وقد يعبر عنه بـ(الغزو الفكري).

وهذا الاستعمار لا يحتل الأرض ولا السهول أو الجبال، بل يحتل العقول والأنفس، ويؤثر في الأفكار والمفاهيم، والقيم والمعايير، والأذواق والميول، والأخلاق والسلوك، والتشريعات والتقاليد، وفي الحياة المعنوية للأمة كلها.

وسنعود للحديث عن هذا اللون من الاستعمار، عندما نتحدث عن مقاومة التغريب؛ بالتفصيل المناسب.

الإسلاميون يزرعون والعلمانيون يحصدون:

وخامس هذه الشوائب: أن الإسلام كان هو المحرك للطاقات، والمعبئ للقوى والقدرات، والموقد لحماس الشعوب، والمقوي لإرادتها في البذل والتضحية والصمود أمام بطش الاستعمار وجبروته، وحديده وناره، وكان علماء الدين ودعاة الإسلام هم الذين يوقظون هذه الشعوب ويلهبون صدورها للدفاع عن حوزتها، وطلب استقلالها وحريتها. وخاضت الشعوب معارك التحرير بدوافع إسلامية، وحوافز إيمانية، حتى انتصرت في معركتها، وكسبت سيادتها واستقلال أرضها.

وكان من المفترض أن يكون الإسلام الذي قاد معركة التحرير والدفاع، هو الذي يقطف ثمرة النصر، فتكون له السيادة، ولشريعته السلطان والتمكين.

ولكن الذي حدث في الأقطار الإسلامية كلها: أن الإسلاميين كانوا يزرعون ويتعبون، والعلمانيين يجنون ويحصدون، فهم مدربون تدريبا عاليا على سرقة الثورات الشعبية، وتحصيل الثمرات لهم، على حين يحرم أصحاب الحق الطيبون، لأنهم لم يدركوا ألاعيب هؤلاء، فأُتوا من حيث لا يحتسبون، وسرق مجهودهم وجهادهم من حيث لا يشعرون.

وهذا ثابت كما ذكرت في كل بلاد الإسلام، حتى تركيا التي كانت أول بلد تحكمه العلمانية، ويسيطر عليه العلمانيون، بعد حربه ضد الحلفاء، فقد كان الشعب التركي يحارب بروح إسلامية، أعداء الله والدين والوطن، ويحسب أن أتاتورك يقاتل من أجل الإسلام، وكان المسلمون في أنحاء العالم يظنونه كذلك، بل كانوا يسمونه: (الغازي

مصطفى كمال) وأنشأ له شوقي أمير شعراء العرب قصيدة هنأه فيها بعد إحدى معاركه قال في مطلعها:

الله أكبر كم في الفتح من عجب   يـا خالـد الترك جدد خالـد العرب!

وخـاب ظن شوقي وظن المسلمين جميعـا، حين انكشف اللثـام عن علماني حقيقي قبيح الوجه، أخذ حَبَّ الحصيد كلـه له، وترك الزارعين والغارسين، وليس في قبضتهم غير الريح.

٢ ـ انتشار التعليم

ومن أبرز الإنجازات التي تمت خلال القرن: انتشار التعليم في البلاد الإسلامية، حتى لا تكاد توجد قرية، إلا وفيها مدرسة ابتدائية، وربما إعدادية، يتعلم فيها البنون والبنات، وفي القرى الأكبر، والمدن توجد المدارس الثانوية، والمدارس المهنية.

وفي العواصم الكبرى للإقليم ـ وربما المحافظات المختلفة ـ أنشئت الجامعات والمعاهد العالية، لتخريج المهنيين والمثقفين، من الأطباء والصيادلة والرياضيين، والمهندسين والعلميين، والزراعيين، والمحاسبين والمعلمين، وغيرهم. هناك في البلاد العربية أكثر من مائة جامعة يضمها (اتحاد الجامعات العربية) وفي البلاد الإسلامية أضعاف ذلك، تضم الكثير منها (رابطة الجامعات الإسلامية).

وتخرجت أعداد كبيرة من هؤلاء، كما انخفضت نسبة الأمية، وإن كان لا يزال هناك بعض الأقطار الإسلامية في بداية الطريق.

وبعض هؤلاء هاجروا إلى بلاد الغرب لاستكمال تعليمهم، ثم طاب لهم المقام فاستقروا فيه، إذ أغرتهم المؤسسات والجامعات، فاستبقوهم في القفص الذهبي، للاستفادة من نبوغهم وتفوقهم، في حين أن بلادهم أحوج ما تكون إلى كفاءتهم.

ومع هذا كله، هناك مآخذ على التعليم في البلاد العربية والإسلامية، من ناحية الأهداف، ومن ناحية الطرائق والآليات، ومن ناحية الفلسفة التي توجهه.

لا زال هذا التعليم في كثير من البلاد الإسلامية مقسما إلى قسمين: ديني ومدني، فالدين هو الذي يحافظ على هوية الأمة، وقيمها وثقافتها، وإن كان يؤخذ عليه أنه غالبا ما يعيش في الماضي أكثر من الحاضر، وفي التراث أكثر من العصر.

والمدني هو التعليم العصري، الذي يعلم العلوم العصرية طبيعية وإنسانية، ويستخدم الوسائل التربوية المعاصرة، ويقيم أبنية تعليمية مجهزة بأدوات العصر من مختبرات ومعينات سمعية وبصرية وغيرها.

وانقسام التعليم في البلد الواحد إلى هذين النوعين، أشبه بانقسام القضاء إلى شرعي ومدني أيضا، وهو دليل على أن الأمة لا تزال تعاني مرض الفصام و ازدواجية الحياة.

ولا زال التعليم بصفة عامة يحتاج إلى فلسفة واضحة ترتكز عليها أنظمته وبرامجه، ويستند إليها معلموه وموجهوه، والمشرفون عليه. فما هو الإنسان الذي ننشده بالتعليم والتربية؟ فالماركسية مثلا تنشد إنسانا معينا، وكذلك الليبرالية أو الرأسمالية تنشد إنسانا معينا، والوجودية تنشد إنسانا معينا، فأي إنسان ننشده نحن المسلمين، ونريد أن نربيه؟

لا شك أنه إنسان متميز عن هؤلاء وأولئك جميعا، إنه الإنسان الصالح في نفسه، البار بأسرته، النافع لمجتمعه، المنتمي لأمته، المعتز برسالته: رسالة الهداية والإصلاح للبشرية جمعاء. إنه الإنسان الناجي من الخسر في سورة العصر: ﴿**والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾.

هذا الإنسان يأخذ من علوم العصر ما وسعه أن يأخذ، ويجتهد أن يتفوق فيها ما استطاع، ولكنه يسخرها لهدف كبير، هو خدمة الحق والخير والنفع للبشرية. وهو يدرس قوانينها على أنها سنن الله في الكائنات، لا تجد لها تبديلا ولا تحويلا.

وهو يستفيد من تقنيات العصر وآلياته، ولكن لا ينسى الهدف الذي يحيا من أجله.

وهذا الروح هو الذي ينقص التعليم في أوطاننا المسلمة، فإن الذي وضع لبناته الأولى كان المستعمر، ففرغه من الأهداف الإيمانية والأخلاقية والرسالية. ولقد قرر اتحاد الجامعات العربية في إحدى دوراته ـ وكانت في الدوحة عاصمة قطر ـ ضرورة تدريس مادة (الثقافة الإسلامية) في الجامعات كلها، في كل الكليات وكل الأقسام، أدبية أو علمية، للمسلمين وغير المسلمين.

وذلك لما لوحظ أن كثيرا من الخريجين يتخرجون في تخصصاتهم المختلفة، ولا يكادون

يعرفون شيئا عن ثقافتهم أو ثقافة أمتهم الأصلية، ولا يعرفون الخطوط العريضة لهذه الثقافة التي تعبر عن هويتهم وأصالتهم.

فكان لابد من إعطاء جرعة ثقافية مناسبة، تلائم الطالب الجامعي في سنه ومعرفته وتطلعه، وتجيب عن التساؤلات التي يطرحها، أو تطرح عليه، وتهتم بالأساسيات لا بالهامشيات، بالأصول والكليات لا بالفروع والجزئيات، بحيث يأخذ الطالب منها فكرة أو أفكارا كلية عن مقومات الإسلام وخصائصه العامة، وأهدافه في تكوين الفرد الصالح، والأسرة السعيدة، والمجتمع الفاضل، والأمة الواحدة، والعالم المتعارف، المتعاون على البر والتقوى، وخير البشرية.

يعرف ذلك المسلم وغير المسلم، أما المسلم فمن باب الفقه في دينه الذي آمن به، والتزم بتعاليمه، وأما غير المسلم فمن باب الثقافة التي لا يجوز أن يجهلها، لأنها ثقافة مجتمعه كله. فالإسلام ـ بالنسبة للمسلم ـ عقيدة وعبادة، وهو ـ بالنسبة لغير المسلم ـ ثقافة وحضارة، ولهذا كان الزعيم المصري المسيحي المعروف مكرم عبيد يقول: أنا مسيحي دينا، مسلم وطنا.

وعلى كل حال أنشأ اتحاد الجامعات العربية لجنة من عدة أشخاص من بلاد شتى لوضع تصور كامل عن هذه المادة أو هذا المقرر، كنت عضوا فيها، واجتمعنا في الرياض لعدة أيام برئاسة الأستاذ الدكتور محمد مرسي أحمد الأمين العام للاتحاد، ووضعنا برنامجا مفصلا ـ إلى حد كبير ـ لهذه المادة، ثم نام الموضوع بعد ذلك، ولم يصح إلى اليوم.

هذا جزء من الفلسفة التي تجب مراعاتها في التعليم، ولكنها للأسف لم تأخذ حقها.

ولو غضضنا الطرف عن هذه الفلسفة المفتقدة، لوجدنا أن هذا التعليم ـ إذا قيس بمثله في البلاد المتقدمة ـ ينقصه أشياء كبيرة وكثيرة جدا.

فهو من حيث الكم لا يغطي حاجات الناس في المناطق المختلفة، فلا الأبنية كافية، ولا الأجهزة والمعدات متطورة بالقدر المطلوب، ولا المعلمون مؤهلون كما ينبغي، ولا البرامج تتطور التطور المنشود، ولا توجد آليات للتقويم والمراجعة المفروضة بين الحين والحين، لنرى فيم نجحنا، و فيم أخفقنا، وإلى أي مدى انتهى نجاحنا

وإخفاقنا، وكيف السبيل إلى زيادة النجاح، وإلى تفادي الإخفاق، (فهناك بلاد لم تصلها المدارس، والبلاد التي وصلتها المدارس لا تجد فيها أماكن كافية لأولادها، وتستخدم هذه المدارس لأكثر من مرة في اليوم).

ولقد رأينا أكبر دولة متقدمة في العالم منذ عدة سنوات تفتح الباب لنقد نظامها التعليمي، وظهر في ذلك كتاب شهير، بعنوان: (أمة على حافة الخطر) ترجمه للعربية صديقنا المربي الفاضل الدكتور يوسف عبد المعطي بالكويت. وطلبت أمريكا من اليابانيين أن ينتقدوا نظامها التعليمي، ويكشفوا عن نقاط ضعفه، وما يصفونه من علاج له.

ونحن مستريحون لأوضاعنا، ساكتون على عيوبها، وكأنها على أحسن ما يرام، وبعض الناس يعتقد أن نقد هذه الأنظمة إنما هو نقد للملك أو الرئيس أو الأمير، ناهيك بالوزير المسئول المباشر وأجهزته.

لقد كثرت الشكوى من الوزارات والمؤسسات العامة والخاصة من ضحالة مستوى الخريجين الجامعيين، وضعفهم العام في المعرفة، إلى جوار ضعفهم في تخصصهم. وقد أفرد الصحفي المعروف صلاح منتصر عموده اليومي في الأهرام عدة أيام منذ سنوات للحديث عن هذا الضعف، بل هذا الانحطاط، حتى في الكتابة العادية، وقد ذكر نموذجا صارخا لذلك من جامعي أرسل إليه يطلب المعونة في تعيينه، فكتب في رسالته (نحن) وهي ضمير الجمع للمتكلم هكذا (نحنوا). فتصور هبوط المستوى إلى هذا الحد المفزع، أما (النحو) فهو أمر لم يسمعوا به، ورفع المجرور، وجر المرفوع شائع عند الجميع، بل هم لا يعرفون مرفوعا من مجرور أو منصوب. ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وهناك موضوع أجمع أهل الاختصاص على أننا مفرطون فيه غاية التفريط، وأعني به: موضوع (البحوث العلمية) والعمل على تطويرها وتوسيعها وتعميقها، وتجنيد الطاقات البشرية لها، وتخصيص الميزانيات اللازمة لها، وإعطائها القدرة على سرعة الحركة بحرية واستقلالية، إننا نقرأ ما يرصد لهذا الجانب في بلاد العالم المتقدم ومنها إسرائيل، وما نرصده نحن له، فنتحسر على أنفسنا وتخلفنا.

إن العالم يتحدث عن (الموجة الثالثة) من الاقتصاد العالمي، ونحن لازلنا في إطار

الموجـة الأولى، يتحـدثـون عن عصر الصنـاعـة الثـالـث، ونحن لم نتقن آليـات عصر الصناعة الأول .

ألا يوجد عندنا نوابغ وعباقرة؟ بلى ، وقد استفاد الغرب من كثير منهم ، جذبهم إليه بما يتيحه لهم من أمـن واستقرار وغنى ، ونحن ـ لـلأسف ـ نـرى أنفسـنا قـوة طاردة ، بقدر ما نرى الغرب قوة جاذبة .

ألا يوجـد عندنـا مال؟ بلى ، وكثيرا ما نصرفـه فيما يسميه الفقهـاء (التحسينات) في حين ندع (الضروريـات) . بل قد نصرفـه للأسف في (المحظـورات) المحرمـات دينيا ، والمحرمات أخـلاقيا ، و المحرمات اقتصاديـا . وهو ما سماه القرآن(التبذيـر) وجاء فيه : **﴿ولا تبذر تبـذيرا * إن المبذرين كـانوا إخوان الشيـاطين ، وكان الشيطان لربـه كفورا﴾** [الإسراء : ٢٦ـ ٢٧] .

إن الذي ينقصنا هو حسن تـوظيف طاقاتنا البشرية ، وطاقـاتنا المادية ، والقدرة على تحريكهـا وتفعيلهـا ، وإزالـة العقبات من طريقهـا ، حتى تحقـق لأمتهـا مـا ينـاط بها من آمال .

ظهور حركات التجديد
والإحياء الإسلامي

ومن إنجازاتنا في هذا القرن : ظهور حركات التجديد والإحياء الإسلامية ، التي تسعى إلى النهوض بالأمة ، لإحياء مواتها ، وجمع شتاتها ، وتجديد شبابها ، وتحرير عقولها من الجمود ، وعزائمها من الوهن ، وضمائرها من السقم ، وذلك من طريق تجديد الدين ، الذي هو جوهر وجودها ، وسر بقائها ، ومصدر عزتها وفخرها .

وقد حفظت هذه الأمة عن نبيها حديثه الشريف : «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» رواه أبو داود وغيره ، وقد بين لنا هذا الحديث شرعية التجديد للدين ، والمعنى : تجديد الفهم له ، وتجديد الإيمان به ، وتجديد الالتزام بتعاليمه ، وتجديد الدعوة إليه ، وليس معناه إصدار طبعة جديدة من الدين ، تغير (الثوابت) وتجتهد فيما لا يقبل الاجتهاد من (القطعيات) التي تجسد وحدة الأمة في عقائدها وعباداتها وتشريعاتها وأخلاقياتها .

لهذا أعني بحركات التجديد : التي تمثل الإسلام الحقيقي بشموله و وسطيته وعمق نظرته .

فقامت حركة (الإخوان المسلمين) التي انطلقت من مصر سنة ١٩٢٩م على يد الشاب الملهم حسن البنا[١]، وامتدت بعد ذلك لتشمل العالم العربي ، ثم لتمتد اليوم في أواخر القرن ليكون لها وجود في أكثر من سبعين دولة في العالم الإسلامي وخارجه .

---

(١) انظر : كتابنا (الإخوان المسلمون : سبعون عاما في الدعوة والتربية والجهاد) .

ولقد عملت الحركة على تكوين جيل أو أجيال جديدة، تحسن الفهم للإسلام ـ بعد حملات التضليل والغزو الفكري، والاستعمار الثقافي، التي لوثت العقل المسلم ـ وتحسن الإيمان به هدفا للأمة، ومرجعا لها، تهتدي به إذا ضلت، وتحتكم إليه إذا اختلفت . . وتحسن العمل به والاستقامة على منهاجه في شئون حياتها كلها، فيصلح منها ما فسد، ويُقوم منها ما اعوج، ويقوّي منها ما ضعف، ويزكّي منها ما دُسّي . . وتحسن العمل له والجهاد في سبيله، بكل وسيلة مشروعة، علمية أو عملية، مادية أو روحية، حتى تكون كلمته هي العليا، وشريعته هي الحاكمة، وأمته هي السائدة.

وقد استشهد مؤسس الحركة في سبيلها، واستشهد بعده رجال مخلصون من أبنائها، من أمثال عبد القادر عودة، ومحمد فرغلي، ويوسف طلعت، وسيد قطب، وكمال السنانيري، وغيرهم، كما استشهد تحت آلات التعذيب عدد من الشباب الصادقين الصابرين، رأيت بعضهم بعيني، وقد لف في بطانية ـ بعد أن خر صريع العذاب الطويل ـ ليوارى في الصحراء في سواد الليل، ويكتب أمام اسمه في السجن: أفرج عنه يوم كذا.

وهناك ثلاثة وعشرون رجلا في (ليمان طره) قتلوا برصاص حراسهم في السجن، لا لشيء إلا أنهم طالبوا بتحسين معيشتهم في السجن، والسماح لأهليهم بزيارتهم.

ولقي آلاف مؤلفة من أبناء الحركة في عهد الملكية، وعهد الثورة في مصر، ما لقوا من أذى واضطهاد، وتنكيل وتعذيب، في بطون السجون والمعتقلات، وقاست عائلاتهم ما قاست من جراء التشريد والتجويع والمصادرة، والفصل التعسفي من العمل، أو منعهم منه، وسد أبوابه في وجوههم.

ومع هذا كله بقيت الحركة، حية لم تمت، قوية لم تهن، متحركة لم تتوقف، آملة لم تيأس، على الرغم مما أصابها من تعويق، أخر سيرها، وأثر في امتدادها، بغير شك، وقد أصبح للجماعة امتداد ووجود في أكثر من سبعين قطرا في أنحاء العالم، ولهم أتباع يقلون أو يكثرون، يعملون تحت واجهات شتى، وبعضهم يعمل علانية، بأسماء أحزاب مجازة قانونا، كما في الأردن واليمن و إندونيسيا.

ويبدو للمراقب المتأمل أن قاعدة الحركة تتسع وتقوى، وإن لم تقابلها قوة مكافئة في القمة والقيادة، على أن القيادة في السنوات الأخيرة أثبتت قدرتها على التطور والتجديد في قضيتين مهمتين، وهما: التعددية والمرأة.

وقامت في شبه القارة الهندية: حركة (الجماعة الإسلامية) التي أسسها العلامة أبوالأعلى المودودي سنة ١٩٤١م معلنة عن أهدافها، وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، بمعنى أن يعبِّد الناس أنفسهم لله تعالى في كل شئون حياتهم، فلا يرضوا بغير الله ربا، ولا يبتغوا غير الله حكما، ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، يشرعون لهم ويحللون ويحرمون، وبهذا يغتصبون حق (الحاكمية) التشريعية من الله، ويعطونه لأنفسهم.

كما دعت الجماعة إلى محاربة (الجاهلية) بكل معانيها، وانتزاع السلطان من أيدي أهلها، ووضعها في يد الذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا.

وأكدت دعوة الجماعة الإسلامية أن يطهر الناس عقائدهم من الشرك، وعباداتهم من الرياء، وأخلاقهم من النفاق، وحياتهم من التناقض.

كان الإمام المودودي يملك ـ مع إيمانه بربه واعتزازه بدينه ـ عقلا قادرا على التنظير، وثقافة واسعة، ورؤية واضحة، وهمة عالية، وإرادة صادقة، وقدر رأى أن البشرية في قرن تفوق العلم والتقنية أحوج ما تكون إلى (نظرية راشدة) وإلى (جماعة صالحة) تتخذ منها الأسوة والمثل. وليس هناك أرشد من الإسلام، ولا أصلح من الملتزمين به.

وبذل الأستاذ جهدا مشكورا، ليبين شمول الإسلام لكل جوانب الحياة، من العقيدة والعبادة، ومن الأخلاق والآداب، ومن الشرائع والأنظمة، ويجب أن يكون الحكم في ذلك كله لله، أي لشرعه عز وجل، ولهذا أكد فكرة (الحاكمية) لله، الذي اقتبسها منه الشهيد سيد قطب، وأضفى عليها من بيانه وروحه ما زادها وضوحا ونصاعة.

وقد زعم بعض الكتاب الذين لم يدرسوا الثقافة الإسلامية: أن المودودي اخترع هذه (الحاكمية) ولم يكن لها وجود سابق في (الفكر الإسلامي) إلا عند الخوارج. و هذا غير صحيح، فقد وجدنا علماء الأصول، يبحثون في كتبهم عن مقدمات يرونها ضرورية في العلم، تتعلق بـ(الحكم)، ومن مباحث الحكم عندهم (الحاكم). وقد اتفقوا على أن (الحاكم) هو الله تعالى، والرسول إنما هو مبلغ عن ربه، والمجتهد إنما هو مستنبط أو موضح ومفسر لحكم الشارع سبحانه.

قال شارح (مسلّم الثبوت) في أصول الفقه : (وهـذا مجمع عليه بيننا وبين المعتزلة)، فالمسلمون جميعـا متفقون على أن الحاكم ـ أي المشرع الأعلى ـ هو الله . وقـد قال تعالى : ﴿أفغير الله أبتغي حكما، وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا﴾ [الأنعام : ١١٤] .

سـاندت الأستـاذ المودودي في دعوتـه نخبـة متميزة من مثقفي المسلمين، الملتـزمين بدينهم، الـذين آمنوا معه بالإسـلام دعوة ودولة، وعبـادة ومعاملة، وعقيدة ونظـاما، وكتب في ذلك المودودي كتبه القيمة، ورسائله النيرة، التـي ترجم جلها إلى العربية وإلى عدة لغات عـالمية وإسلامية، كما أصدر كتابـه الشهير في تفسير القرآن الكريم، وسماه (تفهيم القرآن) .

كانت الجماعة الإسلامية في عهد المودودي، تعتمد على الخاصة أو الصفوة، ولم تكن تهتم كثيرا بـالجماهير والقواعـد الشعبية، إلا فيما يتعلـق بالطـلاب، فقد كـانت لها بهم عناية مشهودة .

ولكن يبدو أنهم بعـد ذلك، وبعد اختـلاطهم بالإخوان المسلمين في بـلاد العرب، بدأوا يهتمون بـالشعب، وينزلون إلى ساحتـه، ويجندونه معهم في معاركهـم ضد أعداء الأمة في الداخل والخارج . وهذا مـا لاحظناه في مسيرتهم في السنين الأخيرة في عهد إمارة القاضي حسين أحمد .

زرت الجماعـة الإسـلامية في مقـر قيـادتها في (لاهـور) سنة ١٩٦٩م، وكـان الإمـام المودودي حيـا، وسعدت بلقـائه في بيته وفي دار الجماعـة، وفي عدد من بيـوت إخوانـه الـذين أقامـوا ولائم الغداء والعشـاء، احتفـالا بي، وكنت لقيته قبل ذلك بـالقاهـرة، وبالدوحة، ولقيته آخر مرة في أمريكـا وهو يعالج هناك، وقلت للإخوة في لاهور: أنتم الإخوان المسلمون في باكستان، ونحن الجماعة الإسلامية في البلاد العربية .

والحق أنـه لا يوجـد فرق في الأهـداف بين الإخوان والجماعـة، إلا أن الإخوان أكثـر اهتماما بالتربيـة، والجماعة أكثر اهتماما بالفكـر، وأن النزعة الروحيـة في الإخوان أقوى، وأدبيـات الإخوان تسـاعـد على ذلك، ولعل شخصية كل مـن القائدين لها تأثيرهـا في قاعدة كل منهما، فالمودودي مفكر أكثر منه مـربيا، والبنا مرب أكثر منه مفكرا، كما أن عناية الإخوان بالجانب الجهادي أوضح منها عند الجماعة، والعناية بالجماهير أيضا، كما ذكرنا من قبل .

وقد بـدأت هذه الفـروق الطفيفة تضيق بحكم التـلاحم والتلاقي في ميـدان العمل المشترك، حتى تكاد تذوب الفوراق بين الجماعتين.

وقامت في الجــزائر حركة إسلاميـة تجديـدية قادهـا العالـم السلفي المصلح الشيخ عبد الحميـد بن باديس، الـذي أسس مع جماعة من إخوانـه العلماء الراشـدين: جمعية علماء الجزائر. وكان عملها إنشاء المدارس التي ترد الشعب إلى إسلامه وعروبته، وتقاوم تيار (الفـرْنسة) الـذي تبنته الدولـة المستعمرة (فـرنسا) لتغير من هـوية الشعب وانتمائه وولائه، وأساس هويته بلا نزاع هو: الإسلام دينا، والعربية لغة.

لذا عمل الشيخ وجمعيته على إعادة انتماء الشعب، وإرجـاع هويته إليه، عن طريق المسجد والمدرسة والصحيفة، والنشيد. ولا غرو أن بدأ الشعب كله ينشد معه:

شعـب الجــزائر مسـلم ... وإلـى العـروبة ينتسـب

من قـال: حـاد عـن أصلـه ... أو قـال: مـات فقـد كـذب

كان الشيخ بن بـاديس يفسر القرآن في المسجد، ويصدر مجلـة (الشهاب) ويكتب فيها هـو وإخوانـه من أمثال العـلامة الأديب البـارع الشيخ محمد البشير الإبـراهيمي، الذي ظل يكتب بعد ذلك في مجلة (البصائر) مقـالاته المضيئة الملتهبة، التي كانت تشع نورا، وتشتعل نارا. وكان يتحرك في الولايات المختلفة ليحدث أبناء الشعب، ويجمعهم على كلمة الإيمان، وتحت لواء الإسلام.

ولا شك أن هـذه الحركة هي التي أيقظت الشعب الجزائري وهيأتـه عقليا ونفسيـا، ليقوم بثورته الفذة التي حررته من الاستعمار الفرنسي الاستيطاني الخبيث.

ومن آثارها (ملتقيات الفكر الإسلامي) الشهيرة بعد استقلال الجزائر.

وقام للإسـلام عمل في (تركية) التي سيطـر عليها العلمانيون بقيادة أتـاتورك، وألغوا فيهـا كل مظـاهـر الإسـلام الحية من الخلافـة، وأحكـام الشريعـة، حتى في الأحـوال الشخصية، وفي الثقافـة والتعليم، وفي التقاليد ومظاهر الاحتشـام للمرأة، وفرض على الشعب بالنار والحديد، ألاّ يلبس الرجل على رأسـه غير القبعة. ولو كان شيخا دينيا، يسمح له فقط أن يلبس العمامة عنـد الإمامة والخطابـة داخل المسجد، ولا يجوز للمرأة أن تلبس الحجاب، ولا يُتعلم الدين في المدرسـة، وأكثر من ذلك محاربة الحرف العربي

الذي كانت تكتب به اللغة التركية، ولها تراث هائل فيه، ويستبدل به الحرف اللاتيني، وأدهى من ذلك أن يمنع الأذان في المساجد باللغة العربية.

كانت محنة قاسية على الشعب التركي، الـذي قاوم ما استطاع، وسقط منه الشهداء تلو الشهداء، ثم غلب على أمره، وانتصرت القوة على الحق إلى أن يشاء الله.

في هذا الوقت العصيب، والـزمن الرهيب قام رجل رباني بحركة إسـلامية تقوم على استبقاء الإيمان في صدور الناس، وإشعال جذوته في القلوب، حتى لا تخبو، وإذا بقى الإيمان كان جديرا أن ينهض الشعب يوما على أساس من هداه، وقبس من سناه.

لقد قام العلامة بديع الزمان سعيد النـورسي بإنشاء (حركة النور) وهي حركة تثقيفية تربـوية، تقـوم على تنوير العقـول، وإيقاظ القلوب، وشحـذ الهمم، بثقافـة إيمانية، صحيحة المضمون، قوية التأثير.

وقـد حوكم الشيـخ أمام محاكم أتـاتـورك، وحكم عليه بـالسجن، ولم يبـال الشيخ بـالسجن، وقـال ما قـال يـوسف: ﴿رب السجن أحب إلي ممـا يـدعـونني إليـه﴾ [يوسف: ٣٣]. وظل مثابرا على دعوته، حتى وافاه الأجل سنة ١٩٦٠م.

ولا ريب أن من آثار حـركة الشيخ النورسي، وتفاعل حـركة الشيخ البنا والمودودي، أن قامت الحركـة الإسلامية الشاملـة، بقيادة الرجل الصلب المحنك الناضج الـدكتور نجم الـدين أربكان، التي هـزت قوائم العلمانيـة المتسلطة على تـركية، والتي يسنـدها جيش فرّغ من زمن طويل، من كل العناصر الإسلامية، والتوجهات الإسلامية.

لقد أسس (حزب السلامة) ووصل بـه إلى البرلمان والوزارة ثم منعوه، فأنشأ بعد مدة (حزب الـرفاه) ووصـل به إلى البرلمان، فـرئاسة الحكـومة، فجـرموه وأسقطـوه، ومنعوا الحزب فأنشئ حزب الفضيلة، ولا زال الصراع ضاريا[1].

وفي شمال أفريقيـا قامت في تونس حـركة النهضة الإسـلامية بقيادة زعيمهـا الشاب المثقف المستنير المعتـدل، الـذي جمع بين فهم التراث وثقـافـة العصر(الشيخ راشـد الغنوشي)، لمقـاومة (العلمانيـة البورقيبية) التي جعلت مـن بلد (جامع الـزيتونـة) بلدا

(١) حكمت المحكمة - والكتاب في المطبعة - على أربكان بالسجن لمدة سنة، ومنعه من ممارسة العمل السياسي طوال حياته؛ لأنه نقد (العلمانية) في خطابه منذ سنوات!!

غربيا، لا يمت بصلة إلى قرآنه أو سنة نبيه، أو تراث أسلافه، وكان بورقيبة رجلا لا دين له، وكان يرى نفسه أفضل من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويعيب على قومه أن يتبعوا رجلا أميا، ولا يتبعوا مثله وهو خريج السربون! وله مقولات ومواقف تنبئ عن كفر بواح، وردة صراح[1].

ووجدت الحركة تجاوبا ضخما، ولا سيما من الشباب المثقف، وجاء ابن علي، فعقد معها صلحا مؤقتا، من باب (التكتيك) كما يقولون، ثم انقلب عليها منكلا ومشردا، ومستخدما أقصى وسائل التنكيل والتعذيب والتجويع.

ولم يقف الأمر عند محاربة الحركة، بل أعلنت حرب على الدين والتدين، حتى اعتبرت (الصلاة) وخصوصا في المساجد جريمة يحاسب من يحرص عليها، ويوضع في القوائم السوداء، كما حورب (الحجاب) واعتبرت كل محجبة متطرفة، ومنعت من دخول المدرسة والجامعة والوظيفة الحكومية، بل لا يجوز لها أن تدخل المستشفى للعلاج أو الولادة ما لم تخلع حجابها.

وتجلت هذه العلمانية المتطرفة في الإعلام والتعليم والثقافة، حتى في الجامعة الدينية العريقة: الزيتونة نفسها، التي أنشئ فيها حمام للسباحة يجمع بين الطلاب والطالبات!

وأشد من ذلك خطرا: ما انتهجته الدولة من سياسة (تجفيف المنابع)أي منابع التدين في التعليم و الثقافة و الإعلام[1].

وفي المغرب قامت في ثلث القرن الأخير حركة (العدل والإحسان) التي أسسها رجل الدعوة والتربية الشيخ عبد السلام يس، وهو ـ وإن كان رجلا صوفيا أساسا ـ يؤمن بشمول الإسلام، وشمول حركته، وضرورة شمول الإصلاح لكل جوانب الحياة: روحية وسياسية واقتصادية وثقافية.

وللشيخ مجموعة من الكتب والإصدارات تمثل منهجه، وتوضح رؤيته، وهو يعتمد التربية الإيمانية، والأسوة المحمدية، والنظرة الثورية، في الإصلاح والتجديد.

وكذلك قام في المغرب: حركة التوحيد والإصلاح، بقيادة الأخ العالم الأصولي

---

(١) انظر في ذلك: كتابنا (التطرف العلماني في مواجهة الإسلام: نموذج تركيا وتونس).

الداعية الدكتور أحمد الريسوني، ومن معه من الإخوة الدعاة القدماء، مثل عبد الإله بن كيران، الذين ضموا إلى فقه النصوص، فقه المقاصد، وفقه الواقع، وجمعوا بين الثبات والمرونة، وبين الأصالة والمعاصرة، واستفادوا من تجارب الدعوات المعاصرة في تنظيم حركتهم، وفي مواقفهم السياسية.

وفي إندونيسيا قام منذ ثلث قرن حركة (المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية) بقيادة الرجل المجاهد الدكتور محمد ناصر رحمه الله، الذي وقف بقوة في وجه حركة (التبشير) الهائلة، التي هدفت إلى (تنصير) إندونيسيا في خمسين عاما. كما كانوا يأملون. وقد خلفه اليوم عدة أحزاب، كما قام (حزب العدالة) وهو امتداد لحركة (الإخوان المسلمين) وتضم مجموعة طيبة من الشباب المثقف، الواعي لدينه ولوطنه ولعالمه ولعصره.

وفي إيران ـ حيث يكوّن الشيعة الإثنا عشرية أغلبية الشعب ـ انطلقت حركة (الإمام الخميني) التي تقوم على (ولاية الفقيه) بدلا من انتظار الإمام الغائب، ونيابة عنه، فقاوم طغيان (الشاه) وفساده، وأوذي في سبيل ذلك ما أوذي، ونفي إلى خارج البلاد، ولكنه ظل يبعث برسائله وأشرطته إلى قواعده في إيران، يحرك الساكن، ويقوي المتحرك، وينبه الغافل، ويشد عزم المتنبه، حتى تجاوبت جماهير الشعب مع قائد الثورة الإسلامية، وتحركت كالسيل الهادر، ولم تجد أسلحة الجيش الموجهة إلى صدور الناس، ولا مكر جهاز (السافاك) ولا غيرها فتيلا أمام إصرار الجماهير، فسقطت الإمبراطورية العلمانية، وفر (الشاه) الذي كان يعتبر شرطي الغرب في المنطقة، وصديق إسرائيل، ولم يجد أرضا تقبله، غير مصر السادات، وقامت (الجمهورية الإسلامية) التي كانت قذى في عين إسرائيل وأمريكا التي أطلق الخميني عليها اسم (الشيطان الأكبر).

وفي السودان قامت حركة إسلامية، امتدادا للحركة الإسلامية في مصر، وإن كانت لها اجتهاداتها ومواقفها الخاصة، وكانت أكثر انفتاحا على الواقع، وقدرة على التطور، فكوّنت فترة من الزمن (جبهة الميثاق الإسلامي) وفترة أخرى اصطلحت مع نظام النميري وتعاونت معه، وفترة أخرى أقامت (الجبهة القومية الإسلامية) وفي الفترة التي أصاب السودان فيها ما يشبه الفوضى، واضطربت الأحوال السياسية و الاقتصادية اضطرابا عظيما، أقامت (ثورة الإنقاذ) بالتحالف بين الجبهة وعسكرها الموالي للإسلام،

وقامت دولة جـديدة في السودان تتبنى أحكام الشريعة برؤيـة عصرية، وتعلن انتماءها إلى الإسلام بوضوح، وهذا ما جلب عليها سخط إسرائيل وأمريكا والغرب، وقد تآمروا على إسقـاطها، وسلطـوا عليهـا جيرانها المناوئين لها من الخارج، والمعـارضـة الجنوبيـة والشمالية من الداخل، حتى تستنزفها الحرب التي تأكل ولا تشبع، وقد ضربت أمريكا أحد مصـانعها للدواء علنا، وحتى رفضت وزيـرة الخارجية الأمريكية المبـادرة المصرية الليبية للمصالحة بين الحكومة والمعارضة، معلنة وقوفها مع قرنق بصراحة متحدية.

وقد حـدثت فتنة في المدة الأخيرة، بين الرأسين الكبيرين في السودان: الفـريق عمر البشير، والدكتـور حسن الترابي، فرح لها أعـداء المشروع الإسلامي في السـودان، ولكن سرعان ما انطفأت الفتنة بفضل الحكماء الثقات من أبنـاء الحركة الإسلامية، ولله الحمد والمنة. وأدعوا الله أن يكون انطفاؤها إلى الأبد[1].

وفي الأردن نشأ (حزب التحرير الإسلامي) أسسـه الشيخ تقي الدين النبهاني، مركزا على قضية (الخلافـة) وعودة (الخلافة) دون أن يعنى بـالعوائق وإزالتهـا، والتقريب بين الشعوب، والثقـافات والتيـارات بعضها وبعض، تمهيـدا للخلافـة، كما وجه عنـايته للفكر أولا، ولا يكاد يعنى بالسلوك، كما لا يكاد يعنى بالاجتهاد والتجديد، فهو يأخذ الموروثات الفقهية والفكـرية قضايا مسلمـة، ثم يصبها في (قوالب) صـارمة، ويلقنها لأتباعه، فيحفظونها عن ظهر قلب، ويجادلون عنها بلا هوادة، وإن كان له اجتهادات غريبة في بعض القضايا الجزئية يعجب الفقيه الحق لها.

ومن المملكة العربية السعودية انطلقت (الحركـة السلفية) داعية إلى التوحيد بعناصره الثلاثة: تـوحيد الربوبيـة، وتوحيد الألوهيـة، وتوحيد الأسماء والصفات، مـركزة على تحرير التـوحيد من الخرافـة والشرك والقبوريات والتأويـل، مشددة النكير على كل من يؤول صفـات الله الخبريـة من الأشاعـرة والماتريـدية وغيرهم، متخذة مـن تراث شيخ الإسلام ابن تيميه وتلميـذه الإمام ابن القيم، رصيدا للدعوة والمجادلـة، وكذلك تراث مجدد الجزيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

---

(١) هذا ما كنـا نرجوه حين قدمت لجنة المصـالحة المنبثقة من مجلس شورى حزب المؤتمر الحاكم برئاسـة الدكتور عبد الرحيم علي، وقد قدمت مشروع معالجة شاملة، ظننا أن الطرفين سيقبلانه، ولكن مما نأسف أن الشرخ ازداد اتساعـا، رغم محاولات الإصلاح، وقـد ذهبت على رأس وفـد إسلامي لإصـلاح ذات البين، وباءت محاولتنا بالإخفاق، وانقسمت جماعة الإنقاذ إلى جماعتين أو حزبين متعارضين، ولاحول ولا قوة إلا بالله.

وكان لها امتداد في مصر على يد الشيخ محمد حامد الفقي وجماعة (أنصار السنة) وفي الشام على يد المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، وفي الهند وباكستان على يد جماعة أهل الحديث، وعرف عن كثير من هؤلاء التشدد في الفروع، والوقوف عند الظواهر، وقلة الالتفات إلى المقاصد، وإلى تغير الزمان والمكان، والاشتغال بالمختلف فيه عن المتفق عليه، وهم في عصرنا لهم أكثر من فصيل.

فمنهم (الجاميون) في المدينة المنورة ـ ربيع المدخلي ومن انضم إليه ـ وهم يعلنونها حربا على كل من سواهم من السابقين واللاحقين والمعاصرين، ولم يسلم منهم أحد حتى مثل الإمام النووي والحافظ ابن حجر وغيرهما، ناهيك بالمعاصرين من أمثال حسن البنا وسيد قطب والمودودي والغزالي وفهمي هويدي، ومحمد عمارة، ويوسف القرضاوي وغيرهم، على غير منهج الإمامين ابن تيمية وابن القيم.

ومنهم السلفيون الجدد، الذين يسميهم بعض الناس (السروريين)[1] وهم الذين اهتموا بالجانب السياسي، مع الجانب العقدي، ونقد الأوضاع العامة، المحلية والدولية، وكان لهم موقفهم من دخول الأمريكان إلى المنطقة في حرب الخليج. وفيهم علماء ودعاة لهم وزنهم مثل المشايخ فهد سلمان العودة، وسفر الحوالي، وعايض القرني.

منهم الذين يعتزون بالشيخ ابن باز رحمه الله والشيخ ابن عثيمين وعلماء المملكة، ويعتبرونهم مراجع فذة لهم، ولا يقبلون العلم من أحد سواهم.

ومنهم من يتبعون الشيخ الألباني ويقلدون مذهبه، في حين أنه ينكر المذاهب جميعا، ومع هذا جعلوه مذهبا خامسا.

ومنهم، ومنهم.

وفي مصر تأسست (جماعة الجهاد) و (الجماعة الإسلامية) وكلتاهما تنادي باستخدام القوة في مقاومة الحكام الذين لا يحكمون بشرع الله، وكان لهم امتداد في (الجزائر) وغيرها من البلاد الإسلامية، وكانت لهم مقاومات مع السلطة، لم يسلم المدنيون العزل من آثارها، ولم يبالوا بما أصاب البرآء من جرائها. وبعض هذه الحوادث كان سببها

---

(١) نسبة إلى داعية سوري اسمه محمد سرور بن نايف زين العابدين، كان من الإخوان ثم انشق عنهم، وكان يقيم في السعودية، ثم انتقل الآن إلى الإقامة في إنجلترا، على ما أعلم.

استفزاز السلطات الأمنية وتهورها، وبخاصة أن منشأهم كان في صعيد مصر، وأهله لا يقبلون الضيم، ولا ينسون الثأر.

وقد اختلطت أفكار هؤلاء بأفكار جماعة (التكفير والهجرة)، الذين يكفرون الناس بالجملة، ولا يقتصرون على الحكام وحدهم، بما يترتب على ذلك من استباحة الدماء والأموال، وإن كان بين جماعة التكفير وجماعة الجهاد فروق في المنطلق. وقد اخترقت السلطات و بعض الجهات المشبوهة ـ وخصوصًا في الجزائر ـ صفوف هذه الجماعات، فارتكبوا أشياء فظيعة نسبت إليهم، وهي في حقيقة الأمر من صنع هؤلاء الدخلاء.

ولا أعرف لهؤلاء تراثا مكتوبا ذا بال، حتى نحاكمهم إليه، فيما عدا كتيّب (الفريضة الغائبة) ويعنون بها (الجهاد) وهذه لا تسمن ولا تغني من جوع في الإجابة عن تساؤلات الناس حول رؤيتهم في القضايا الكبرى المطروحة على الساحة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا.

والمهم أن الجوانب السلبية لهذه الفصائل والحركات كان لها تأثيرها السلبي على الحركات الأساسية الكبرى، التي تمثل الوسطية والاعتدال، وترفض العنف والدم، والتي هي أرسخ قدما، وأطول عمرا، وأوسع قاعدة من هذه الجماعات الحديثة العهد، المحدودة الجمهور. وقد غدا الإعلام الغربي ينفخ فيها عمدا ويضخمها، قصدا إلى تشويه وجه الإسلام، وتخويف الناس من ظهوره وانتشاره وصحوته. كما نرى تليفزيون (لندن) يبرز بعض الأشخاص المعتلّين والمختلّين في أفكارهم، بوصفهم يمثلون الإسلام، وهم ليسوا في العير ولا في النفير، أمثال (أبي حمزة) المصري، و (أبي قتادة) الأردني، الذي أصدر فتوى لبعض الشباب الأغرار بجواز قتل آبائهم وأمهاتهم!

وقد قرأنا أخيرا: أن جماعة الجهاد في مصر ـ وخصوصا قادتهم فى السجون ـ قد اقتنعت بأن العنف لا طائل تحته، ولا جدوى من ورائه، إلا بذل الضحايا، وإراقة الدماء من الطرفين، ولذا أرادوا أن يدخلوا المعترك السياسي، وطالبوا بإنشاء (حزب جديد) يمثلهم، ويتبنى أفكارهم.

وهكذا انتهوا إلى ما عابوا به الإخوان من قبل، وإن كان الإخوان لم يبلغوا في العنف يوما عشر معشار ما بلغ هؤلاء.

ومما يؤسف له : أن كل جماعة تبدأ مـن الصفر، ولا تريد أن تأخذ العبرة من غيرها ، وتجعل من تجاربها درسا لها ، لابد أن تجرب هي بنفسها ، ثم بعـد مدة من الزمن تعود إلى ما أنكرته من قبل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

كما أن الحركات الإسـلامية الكبرى لم تطـور نفسها ورؤيتهـا ، بالقـدر الذي يـرجى منها ، وإن كان هناك تطور ملموس في عدد من القضايا ، وهو يبشر بالقابلية للتجدد ، وغلبة تيار التجديد على تيار التقليد ، الذي لم يزل يمثله أنصار أقوياء .

وكم تمنى بعض الإخوة الدعاة والمفكرين أن تتوحد هذه الحركات الإسلامية في حركة عالمية واحدة ، وهي أمنية حلوة المذاق ، لكنها ـ وفق سنن الله ـ بعيدة المنال .

فإن قيام حركـة واحدة يقتضي أن يتفق أعضاؤها على وحـدة الأهداف ، وعلى ترتيب الأهداف ، وعلى وحـدة الوسائل وترتيبهـا أيضا ، وعلى وحدة المفاهيم الأسـاسية ، وعلى الأشخاص الذين يقـودون السفينة ، وهذا ليس من الأمور السهلة ، بل هـو يكاد يكون مستحيلا .

ولهذا نحن لا نمانع من تعـدد الجماعـات والحركات الإسـلاميـة إذا كـان تعدد تنـوع وتخصص ، وننكره إذا كان تعدد صراع وتناقض .

لا مـانع من تعدد الجماعـات على أن يكون بينهـا قـدر من التناسق والتفـاهـم ، وأن تقف في القضايا المصيرية صفا واحدا ، كالبنيان المرصوص ، يشد بعضه بعضا .

مقاومة التغريب والغزو الفكري

ومن أهم المعارك التي خاضها العالم الإسلامي في هذا القرن: معركته الدامية في مقاومة أخطر أنواع الاستعمار، وهو الاستعمار الثقافي أو الغزو الفكري، والذي يعبر عنه بكلمة واحدة هي (التغريب) الذي هدف إلى تغيير هوية الأمة ومسارها، ونقلها من الشرق إلى الغرب، ومن الإسلام إلى المسيحية أو ـ على الصحيح ـ إلى اللادينية.

إن هذا النوع من الاستعمار أو الغزو أشد وأنكى من الاستعمار العسكري والسياسي. فإن هذا يحتل الأرض، وذاك يحتل العقل والنفس، واحتلال الأرض يرى ويحس فيحارب ويقاوم، واحتلال العقل قلما يحس به، فيستسلم له.

فكيف دخل هذا الغزو المدمر لشخصيتنا المسلمة إلى أوطاننا؟

هذا ما نحاول بيانه في الصحائف التالية.

تمسك المسلمين بمرجعية الإسلام خلال القرون:

لقد عاش العالم الإسلامي ـ نحو ثلاثة عشر قرنًا ـ ملتزمًا بمبدأ واحد، ومنهج واحد، لا يحتكم إلا إليه، ولا يعول إلا عليه، ولا يستفتي في شئون حياته وما بعد حياته غيره، ولا يفكر في حل لمشكلاته إلا على أساسه وبالاستمداد منه، ذلك المبدأ وذلك المنهج هو الإسلام، الذي ارتضته هذه الأمة، وارتضاه الله لها، وأتم به عليها نعمته ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾ [المائدة: ٣].

لم يفكر حاكم من الحكام طول هذه القرون الثلاثة عشر أن يرفض الالتزام بمبدأ الإسلام، والاحتكام إلى شرعه، وإن بلغ في الاستبداد والطغيان ما بلغ، ولم يخطر ببال شعب من الشعوب المسلمة أن يحكمه يوما ما منهج غير منهج الإسلام، أو تسود فيه فكرة غير فكرة الإسلام.

وجد في تاريخ الإسلام حكام ظلمة، وحكام مستبدون، وحكام انحرفوا عن منهج الشريعة في سياسة الحكم وسياسة المال، ولكن لم يوجد حاكم واحد من هؤلاء رفض مرجعية الإسلام.

كان الاعتزاز بهذا المنهج جزءًا من عقيدة كل فرد مسلم. فقد كان يغالي به ويزهى، ويعتقد أنه وحده الحق، «وماذا بعد الحق إلا الضلال؟».

كان يؤمن أن في هذا المنهج الإلهي لكل داء دواء، ولكل معضلة علاجًا، ولكل عقدة حلا، وأن علاجه لا يدانيه علاج آخر يضعه البشر لأنفسهم، أو يستمدونه من أديان منسوخة محرفة، انقضى زمنها وانتهت مهمتها.

كان كل مسلم يعتقد أن« الحل الإسلامي» لمشكلات الحياة هو الحل الناجع، والحل الفذ، لأنه حل وضعه الله لعباده ورضيه لهم، وهو بهم بر رحيم، كما أنه بهم عليم خبير ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ [الملك : ١٤].

الزحف الغربي الحديث على الإسلام وأمته :

كان هذا الاعتقاد هو السائد في العالم الإسلامي، حتى كان هذا القرن العشرون، والذي قبله، حيث واجه الشرقَ الإسلاميَّ زحفٌ كثيف من العالم الغربي المسيحي. ولم يكن هذا الزحف عسكريًّا فحسب، كزحف الحروب الصليبية من قبل، بل كان زحفًا عسكريًّا سياسيًّا اجتماعيًّا ثقافيًّا.

ووجه العالم الإسلامي بهذا الزحف الحاقد الطامع المستكبر وهذا الغزو المنظم، فقاوم كثيرًا، ووقف موقفًا صُلبًا من الحضارة الغازية، في مختلف أقطاره، ولكنه لم يستطع أن يحرز النصر.

كان هناك انحطـاط عام في كل ميـدان من ميادين الحيـاة الإسلاميـة، نتيجة لبعـد المسلمين عن الإسلام الصـحيح فهما وتطبيقـا . أجل كان هناك تخلف في العلم، وجمود في التفـكير، وركـود في الفـقه والتشريع، وقصـور في التربيـة والتوجيـه، وفـساد في الإدارة والحـكم، وكان العدو الزاحـف المنتصـر متفـوقًا في هـذه المجـالات، فبـهر أبصـار الكثيريـن، وخلب ألبـابهم، فبـدأوا يسيروا في دروبـه، ويتبعـون سننـه، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع .

وبدأ العدو الزاحف الماكر يخطط للاستيلاء على شعوب هذا العالم الإسلامي بعد أن استـولى على أرضـه، فقـد علم أن الاستيـلاء على الأرض ليس معنـاه الاستيـلاء عـلى أهلها . إن الاستيـلاء على الأرض يتم بقـوة السلاح، أما الاستيـلاء على البشر فلا تجدي فيه الأسـلحة ولا تغـني الجيوش والأسـاطيل . فلابد ـ إذن ـ من عمل منظم «لتغريب» العالم الإسـلامي عقليا، حتى يقبل الاستعمار الغـربي، ويهضم حضارتـه، ويتتلمذ على أهله . ولهذا رسم خطتـه بدهاء ومكر، وشرع ينفـذها بأناة وصبر. لم يصنع مـا كان يصنع الفاتحون الأولـون من تدمير المسـاجد أو تحريق المصـاحف . أو إلقاء الكتـب في البحار والأنهار، فيستثير الشعـوب ضده، وإن كتمت مشـاعرهـا ضعفـا وعجزا، حتى ينفجـر غيظها عليه في يوم قد لا يكون بعيدا .

لقد صمم الغـرب الصليبي الزاحف أن يهدم ويـدمر، ولكن بأسلـوب غير أسلوب التتـار والصليبيين القـدمـاء، لقـد اتجه إلى تـدمير العقـائد والأفكـار، وهـدم القيم والأخلاق، وتحطيم الآداب والتقاليد، بمعاول خفيـة لا تراها الأعين بسرعة، ولا تلمسها الأيدي بسهولة، وبأساليب ماكرة لا تثير الشعوب . ولا تغضب الجماهير. وبهذا نجح في قتل الشعـوب، ولكن بغير إطـلاق الـرصـاص، وضرب السيـوف، بل بطـريقـة السم البطيء، يوضع في الدسم والحلوى!

لم يكن من هم المستعمر الدخيل في أول الأمر: أن يوجّـه عمله إلى الشعب ليزحزحه عن دينه، ويشككـه في منهجه الإلهي، فيهيجه على حكمـه، ويحرضه على مقـاومته، بل ترك الشعوب في غفلاتها، ووجـه أكبر همه إلى تكوين (قادة للمستقبل) قادة يصطنعهم لنفسه، ويصنعهم على عينه، ويـربيهم في أحضانه، ويغذيهم بثقافتـه وأفكاره، ويغرس فيهم الخضوع ـ عن طواعية ـ لنظمه وتقاليده، والتقديس لمناهجه وفلسفته .

إن صناعة هذا الجيل الذي قاد السفينة فيما بعد، وقبض على زمام التوجيه والتثقيف والتربية والإدارة والسياسة والتشريع، كانت أهم ما عني به الاستعمار الخبيث، وكان النجاح في صناعته أعظم نصر حققه في المعركة بينه وبين الشرق الإسلامي، لا أقول: منذ عهد الحروب الصليبية، بل منذ عهد هرقل ومعركة اليرموك وما بعدها حتى اليوم.

آثار الدعوة إلى التغريب في العالم الإسلامي:

كان للغزو الفكري الغربي المنظم المخطط ـ الذي تساندت فيه كل القوى الاستعمارية، واستخدمت فيه كل الوسائل والأساليب ـ آثاره ونتائجه الخطيرة في حياة المسلمين. تلك الآثار التي بدأت تبرز وتتسع يوما بعد يوم. ومن أظهرها بروز من يدعو من المسلمين إلى (تغريب) الأمة فكرًا وشعورًا وسلوكًا. وهو ما هدف إليه المبشرون حين قالوا: إن الشجرة لا يقطعها إلا أبناؤها أنفسهم.

صحيح أن الفكر الاستعماري لم يستطع أن ينفرد تماما بالتوجيه، وأن يستقل استقلالا مطلقا بالتأثير، فقد كان الفكر الإسلامي المتغلغل في أعماق الأمة يتحداه ويقاومه على الرغم من ضعف إمكاناته، ومن تضييق الخناق عليه. إلا أن الغلبة والتأثير الأقوى والأوسع كان للفكر الدخيل، المسلح بالدهاء والمكر، وبالعلم والمال، والمستند إلى سلطان القوة، وقوة السلطان، والذي كان يملك في قبضته أجهزة التعليم، ووسائل الإعلام، وكان أخطر نتائجه ولا شك هو شيوع التبعية الفكرية للغرب، والعبودية الذليلة لكل ما يصدر عنه من مبادئ وقيم، ومناهج وأنظمة، وأخلاق وتقاليد، وأفكار ومفاهيم، وتشريعات وقوانين.

وكان من مظاهر هذه العبودية بروز أناس يدعون إلى اتباع الغرب في كل شأن من شئون حياته الفردية والأسرية والاجتماعية، المادية والروحية والثقافية.

فقد كان الاستعمار في أول أمره يعتمد على جيش مكون من كتيبتين يجندهما لتغريب المسلمين:

الأولى: كتيبة المستشرقين، الذين كان كثير منهم مستشارين لوزارات الاستعمار ونحوها.

والثانية : كتيبة المبشرين ، الذين تجندهم الكنيسة لتنصير المسلمين .

ولا فرق بين المستشرقين والمبشرين في غالب الأمر، إلا أن الأولين يلبسون مسوح العلم، والآخرين يلبسون مسوح الدين .

ومن المستشرقين من هم رجال دين أساسا .

ثم استراح هؤلاء وأولئك إلى حد كبير، حين خرج من تلاميذهم من أبناء المسلمين من يكفيهم مؤونة الدعوة إلى التغريب ، فقد قاموا بها عنهم .

وبرز من بين ظهراني المسلمين من يدعو ـ في صراحة حينا ، وبالتواء أحيانا ـ إلى اطراح الإسلام ، وشريعة الإسلام ، وثقافة الإسلام ، وحضارة الإسلام .

رأينا ذلك في الهند ، ورأيناه في تركيا ، ورأيناه في مصر، وفي غيرها من بلاد العرب والإسلام .

رأينا في الهند مثل السيد أحمد خان مؤسس الكلية الإسلامية الإنجليزية ـ التي سميت فيما بعد جامعة « علي كره » ـ يدعو إلى السير وراء الحضارة الغربية وأخذها بحذافيرها ، وقال : إنه لابد للمسلمين أن يقبلوا حضارة الغرب بتمامها ، حتى يعدوا في الشعوب المتمدينة والمثقفة ، ولا تزدريهم أعين الأمم المتحضرة!

لم يدع أحمد خان إلى اقتباس الجانب العلمي والصناعي من حضارة الغرب ، الذي هو سر قوة الغرب ومبعث نهضته وتقدمه . وهو الجانب الذي كانت تحتاج إليه الهند وغيرها من البلاد الإسلامية . بل كان أكثر ما عني به ودعا إلى تعلمه وأخذه هو الجانب الآخر من الحضارة : جانب الآداب والعلوم الاجتماعية . حتى إنه في بعض الأحيان عارض تعليم الصناعات والعلوم معارضة شديدة ، وكتب في هذا الموضوع مقالات عنيفة اللهجة مريرة النقد!![1]

ورأينا في تركيا مثل « ضياء كوك ألب» الأديب التركي الذي يعتبر أحد المؤسسين الفكريين لتركيا العلمانية الحديثة يقول : « علينا أن نختار إحدى الطريقتين : إما أن نتقبل الحضارة الغربية ، أو نظل مستعبدين لقوى الغرب ، لابد أن نختار أحد الأمرين» .

(١) انظر في تقويم حركة أحمد خان : التفكير الإسلامي الحديث للدكتور محمد البهي ص ١٩ ـ ٢٥ ـ والصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية للأستاذ أبي الحسن الندوي ص ٨٢ ـ ٩٢ .

ثم تحولت تركيا إلى (تغـرب شبه كامل) على يد كمال أتاتورك وجماعته، الـذين فرضوا (العلمانيـة الغربيـة)على تركيـا الإسلاميـة بـالحديد والنـار، فاتبعت الغـرب في التشريع والتربيــة والتعليم والثقـافــة والتقــاليـد، حتى استبــدلــوا بـالحرف العـــربي الحرف الـلاتيني، وكان أبلغ معبر عن ذلك هـو تحريم لبس (الطـربوش) والعمامـة، وإيجاب لبس (القبعة)!

كان من أبرز الذين دعوا ـ في العالم العـربي ـ إلى تقليد الغرب واتباع مناهجه في الخير والشر الـدكتور طـه حسين في كتـابه « مستقبـل الثقافـة في مصر » فهـو يرى في هـــذا الكتاب أن سبيل النــهضة « واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عـوج ولا التواء . وهي أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنـدادا، ونكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرهـا، حلوها ومرّهـا، وما يحب منها وما يكـره، وما يحمد منها ومـا يعاب»[١] «وأن نشعر الأوروبي بأننا نرى الأشياء كما يراهـا، ونقوم الأشياء كما يقومها، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها»[٢] .

ويقول : «فأمـا الآن وقد عرفنا تـاريخنا وأحسسنا أنفسنـا، واستشعرنا العزة والكـرامة واستيقنا أنــه ليس بيننا وبين الأوروبيين فـرق في الجوهر، ولا في الطبع ولا في المزاج، فإني لا أخاف على المصريين أن يفنوا في الأوروبيين»!![٣] وهكذا بلغت الدعوة إلى حد الفناء في الأوروبيين .

النصارى أجهر بالدعوة إلى التغرب الكامل :

وقد دعا إلى سلـوك هذا السبيل في العالم العربي نصـارى ومسلمون، ولكن النصارى كانوا أسبق وأصرح وأجرأ، ولعل أبرز مثـال لهؤلاء هو الكاتب المصري المسيحي المعروف «سـلامـة موسى» الـذي كتب في هـذا الموضـوع عدة مقـالات نشرت في خـلال سنتي ١٩٢٥، ١٩٢٦ ثم نشرها في كتاب «اليـوم والغد» بعد أن أضاف إليهـا مقالين آخرين سنة ١٩٢٧، يقـول المؤلف في مقـدمة كتابـه بكل وضـوح : «أنا كافـر بالشرق، مـؤمن بالغرب . يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوروبا» ومعلوم أن مصر ليست من

---

(١) مستقبل الثقافة فقرة ٩ ص ٤١ .   (٢) نفسه ص ٤٤ .   (٣) نفسه ص ٦٣ .

آسيا، ولكنه يريد الخروج من ثقافة الإسلام وحضارته وتعاليمه التي جاءت من آسيا.

يريد الكاتب «حرية المرأة كما يفهمها الأوروبي» كما يريد من الأدب «أن يكون أدبا أوروبيا ٩٩٪». ويريد من التعليم «أن يكون أوروبيا لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه» ويقول: «نحن في حاجة إلى ثقافة أبعد ما تكون عن الأديان، ولا بأس أن تعتمد على الترجمة إلى حد بعيد».

وهو يريد أن يعطل شريعة الإسلام في تعدد الزوجات وفي الطلاق «بحيث يعاقب بالسجن كل من يتزوج أكثر من امرأة، ويمنع الطلاق إلا بحكم محكمة»!!

وهو ينكر أشد الإنكار كل دعوة تنادي بالتعاون أو التقارب بين المسلمين، وتوثيق الروابط بينهم كما أمر الله، ويقول في ذلك بكل جرأة: «إن الرابطة الدينية وقاحة، فإننا - أبناء القرن العشرين - أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا»؟؟!

ويقول في صراحة يحسد عليها: «إن الأجانب يحتقروننا بحق، ونحن نكرههم بلا حق».

كما يدعو في غير مواربة إلى التعاون مع الإنجليز (المستعمرين) لتصفية الرجعية في مصر، يعني: القوى الإسلامية، مثل الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية، والجماعات الإسلامية(١).

ومثل سلامة موسى في مصر: زميل له من نصارى لبنان، لا يقل عنه جرأة أو وقاحة، هو: (جميل معلوف) الذي يقول في كتابه(تركيا الجديدة) أي بعد أتاتورك:

« إن خلاص الشرق يتوقف على تفرنج الشرقيين بكل معنى الكلمة»ص٣٤.

وكلمة الشرق كانت تعني (العالم الإسلامي)و(الشرقيين)تعني(المسلمين).

«لا عهدة شرعية تربطنا بأسلافنا... يجب أن نكون أبناء اليوم لا بقايا الأمس. كل جيل يجب أن يعمل لذاته، وكل سلالة يجب أن تشرع لنفسها»ص٤١.

و نحن نقول: عمل كل جيل لذاته لا يقتضي التنكر للإسلام، والانسلاخ من التراث، والسير في ركاب الآخرين.

---

(١) انظر: كتاب (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) للدكتور محمد محمد حسين جـ ٢/ ٢٠٧ - ٢١٣، نشر دار الإرشاد ببيروت.

ويقول :

« استناد الشرقيين على الـدين في أحوالهـم العالمية عمـل عقيـم يبعدهم عـن محجـة التقـدم ، لا بـل إنني أجـد بـلاء الشـرق كلـه من الأديـان ، ومصيبـة الشرقيين من الأنبياء» ص٩٦ .

«وعلى كل حال فإذا اضطررت أن أختار لأبناء وطني واحدا من أمرين :

الكفـر أم التعصب . فأختار لهم الأول ، بـه يتوحـد مبدؤهم ، فيكسبـون الدنيـا على الأقل» ص٩٨ .

«ولابد أن يعقب هـذا الانقلاب (يعني الانقلاب الـذي أطاح بالخلافة الإسـلامية) السيـاسي الصغير ثـورة أدبيـة عظيمـة ضد المبـادئ القـديمـة كلهـا ؛ فيثـور الابن على أبيه ، والمرأة على زوجها ، والخادم على سيده ، والرعية على كاهنها وشيخها ، ورجال الدين على كتبهم» ص١١٢ .

«إن فصل الدنيا عن الدين أمـر واجب لتقدم الشرق ، وبدونه لا يستطيع الشرقي أن يدخل في دائرة المدنية ، ويتمتع بنفس الحرية الحقيقية» ص١٤١ (١) .

تهافت دعوة التغريب :

هذه هي دعـوة عبيد الغرب من مسلمين ونصـارى . دعوة التبعية المطلقـة للحضارة الغـربيـة ، والذوبـان الكـامل فيهـا ، وأخذ كـل شئ منها ، واستمـداد كل قيمـة ، وكل مفهـوم ، وكل تشريـع ، وكل تقليـد ، منهـا : الخير والشر ، والحلـو والمر ، والعلم والأدب ، والمادة والفكر ، والتصور والسلوك .

لم يفرق هؤلاء بين ما يصح اقتباسـه وما لا يصح ، وما يجوز استيراده وما لا يجوز . ولو أنهم نادوا بـاقتباس الجانب «العلمـي» المحض ، الذي ينشأ عنـه رقي الصناعـة وزيادة الإنتاج ، ونمو العمران ، وازدهار الحياة المادية ، ما رأينا بذلك بأسًا ولا حرجًا ، فإن العلم المحض ـ بطبيعته ـ عالمي لا دين له ولا جنسية ، ومن انتفع بقانون أرشميدس لم يكن به

(١) انظر : « تركيا الجديدة » لجميل معلوف .

يـونانيـا، ومن أخـذ بنسبية أينشتـاين لم يصر أمريكيـا أو رأسماليـا، ومن اقتبس قانـون الجاذبية لإسحاق نيوتن لم يصبح به إنجليزيـا أو استعماريا، كما أنه من اقتبس نظريات ومكتشفـات جـابـر بن حيـان في الكيميـاء أو الخوارزمي في الجبر أو البستـاني في علم المثلثات، أو الحسن بن الهيثم في البصريات، لم يصر بذلك عربيا ولا مسلما!

إن الولايات المتحدة الأمريكية التي تتربـع علـى قمة الرأسمالية، والاتحـاد السوفياتي ـ البـلاد الأم للاشتراكية العلميـة ـ كل منهما قد استفـاد من خبرة خصومهم ومحاربيهم الألمان في بحوث الـذرة والفضاء بعد الحرب العالميـة الثانية، وأصبح العلم الـذي خدم النازية الألمانية من قبل، يخدم الرأسمالية الأمريكيـة والشيوعية الروسية من بعد، وها هي كلتاهما تحاول أن تخطف الأسرار العلمية أو تختلسها من الأخرى إذا استطاعت، ولا ترى في ذلك خطـرا ولا ضيرا، أما الـذي تقف كلتـاهما في وجهه، فهـو الاتجاهـات الثقافيـة والأدبية التي تحمل فلسفة كل من البلدين، وتعبر عن وجهته في الحياة، ونظرته إلى الفرد والمجتمع، والله والإنسان، والكون والتاريخ .

لا حـرج ولا بأس إذن من اقتبـاس العلم الطبيعي والـريـاضي ونحـوه، وإنما الحرج والبأس في اقتباس الثقـافة والتقاليـد، والأفكار والمفـاهيم، والقيم والموازين، والأخلاق والتشريع، التي تتميز بها كل أمة عن غيرها .

بل الـواقع أننا حين نقتبس الجانب العلمي من الغـرب لا نفعل شيئًا إلا أننـا نسترد بضاعتنا، فنحـن أصحـاب هذا العلـم وأولى الناس بـه، فقد أخـذ الغرب أصـول هذا العلم ومنهجه منـا كما اعترف بذلك بـريفولت ودوهرنج ولـوبون وسـارتون وغيرهـم من المؤرخين المنصفين .

خطر التغريب على الحياة الإسلامية :

لقد كان (التغـريب) أشد ما أصاب العـالم الإسلامي من أخطار، وكـان له في الحياة الإسلامية أبعـد الآثار، ولقد شهد بشـدة خطره كل المراقبين، والمؤرخين المعنيين بالشأن الإسلامي، مثل المؤرخ الغربي الأمريكي اليهودي المعروف الذي كان رئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات الشرقية بلندن والذي قال في كتابه (الغرب والشرق الأوسط) :

«لقد مـرت فترات من الخطر الشديـد كان الإسـلام مهددًا فيها في الـوقت نفسه من الشرق والغرب، غير أن الإسلام تغلب عليها، واجتازها دون أن يتأثر. جاءه الأتراك غزاة فـاتحين فتحولـوا إلى مسلمين مؤمنين، وتمثلهم المجتمع الإسـلامي الكبير فانصهـروا في بوتقته، وكـانوا هم أنفسهم من أقوى أعمـدة الإسلام التي أقامت مجتمعًا متـدهورًا كاد يفنى اجتماعيًّا وسيـاسيًّا، بهذه القوة والحيـوية تمكن الإسلام من الصمـود، بل من دحر غزوات أعدائه الصليبيين الذين جاءوه من الغرب».

«ثم واجـه الإسلام بعـد ذلك لطمتين أشـد وأقسى وأحـدث وأخطر، فلقـد سحق الشرق الأوسط الإسـلامي مرتين. واحتلـه الغـزاة الأجانب الـذين سيطـروا عليه بقـوة السلاح، وعلى الرغم من أنهم لم يستطيعوا تحطيم حضارتـه الإسلامية القديمة الأصول، فإنهم لغموا أو (زلزلوا) ثقة الذين صانوا هذه الحضارة بأنفسهم، وهكذا حولوا وجهتهم نحو اتجاهات جديدة.

أولى هـاتين اللطمتين كـانت الغـزو المغـولي في أواسط آسيـا التي حطمت الخلافـة القـائمة، وأخضعت للمـرة الأولـى منذ عهـد النبـوة، قلب العـالم الإسلامي لحـكم غير إسلامي.

أما اللطمة الثانية فهي تأثير الغرب الحديث...»[1].

والذي يبدو لي أن اللطمـة الثانية كانت أقسى وأشد خطـرًا من الأولى، فقد استطاع الإسلام بقوته الذاتية أن يقاوم اللطمة الأولى، وينتصر عليها مرتين سجلهما التاريخ:

الأولى: في انتصاره العسكري الرائع، الذي رد الثقـة إلى الأمة بالإسلام، والذي تحقق بعد سنتين فقط من سقوط بغداد سنـة ٦٥٦هـ، وذلك في إحدى (المعارك الحاسمة) في التـاريخ، وهي معـركـة (عين جـالوت) الـذي قـادهـا الجيش المصري بقيـادة الـرجل الصالح، القائد المملوكي المظفَّر سيف الدين قطز، في ٢٥ من رمضان سنة ٦٥٨هـ ولم يستطع التتار بعد ذلك أن يحققوا نصرا يذكر.

والثـانيـة: في انتصـاره المعنـوي على التتـار الـذي قل أن وجـد لـه نظير في تـاريخ الأمم، وذلك حين استطاع الإسـلام، باعتبـاره دينا ورسالـة ـ والتتـار هم المتحكمون في

---

(١) الغرب والشرق الأوسط ص ٣٢ ـ ٣٣ تعريب الدكتور نبيل صبحي.

عدد من دياره وأقطاره ـ أن يؤثر في التتار المنتصرين، ويجذبهم إلى ساحته، ويغريهم بدعوته، فتقع المعجزة الإسلامية، ويدخل التتار في دين الله أفواجًا، ويسجل التاريخ اعتناق الغالبين دين المغلوبين!

هكذا واجه الإسلام الغزو التتاري أو المغولي، وحول التتار إلى مسلمين، وحسن إسلامهم فيما بعد، ودافعوا عن الإسلام.

أما اللطمة الأخرى: لطمة (التغريب) فقد كانت من القوة والنفاذ والخطر، بحيث لم تزل أمة الإسلام، تواجه نتائجها، وتعاني آثارها في الأنفس والعقول والحياة إلى اليوم[1].

وأخطر ما نجح فيه (التغريب) أنه كون جيلا أو أجيالا من أبناء الأمة نفسها، يقومون بمهمته، ويلعبون دوره، ويغنون عنه. هؤلاء هم (المتغربون).

يقول برنارد لويس في مقام آخر:

«والتغريب» الذي كان أكثره من عمل(المتغربين)من أبناء الشرق، جاء بتغييرات يشك كثيرا في قيمتها، أول هذه التغييرات هو الانحلال السياسي الذي أدى إلى تفتيت المنطقة وتجزئتها، فقبل ذلك التاريخ كان في الشرق الأوسط نظام سياسي مستقر، فالشاه يحكم إيران والسلطان هو عاهل المملكة العثمانية التي تشمل كل ما بقى من الشرق الأوسط. وقد لا يكون كل السلاطين الذين تعاقبوا على الحكم محبوبين من رعاياهم، ولكنهم كانوا في موضع احترام، والأهم من ذلك أنه لم يكن هناك خلاف على مشروعية الحكم، فالسلطان هو الحاكم بلا منازع، لأنه عاهل لآخر خلافة إسلامية تضم جميع مسلمي العالم تقريبا . . ثم عزل السلطان . . وهدمت الخلافة، وقام مقامه عدد من الملوك والرؤساء والدكتاتوريين الذين دبروا لمدة معينة أمرهم، وربحوا تصفيق وتأييد شعوبهم . . ولكنهم لم يكونوا أبدا موضع الرضا التام، والقبول الطبيعي، والولاء الأكيد، الذي كان ممنوحا لحكومة السلطان الشرعية، وهذا الولاء والقبول والرضا جعل السلطان غير محتاج للضغط والعنف والإرهاب أو للديماغوجية السياسية في الحكم.

---

(١) انظر: كتابنا (الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا) نشر مؤسسة الرسالة في بيروت ص ١٨ ـ ٢١ الطبعة الخامسة عشرة.

«وبضياع الشرعية والولاء خسر أهل الشرق الأوسط «هويتهم الواحدة» القديمة، فبعد أن كان كل مواطن عضوا من أعضاء إمبراطورية إسلامية كبيرة لها ألف سنة أو تزيد من التراث والتاريخ، وجد الناس أنفسهم مواطنين لسلسلة من الدول التابعة، والوحدات السياسية الجديدة المفتعلة، والتي تحاول الآن إيجاد جذور لها في ضمير الشعب وولائه، وصاحب نسف وانهيار النظام السياسي القديم حالة تفسخ، ولكنه على أية حال كان قائما بوظيفته، حيث كانت الولاءات والمسئوليات واضحة الحدود والمعالم، تجمع جميع فئات الشعب في إطار واحد، ثم دمرت الأساليب القديمة، وسخر من القيم القديمة ثم أهملت، وقام محلها مجموعة من المؤسسات والقوانين والمقاييس الوضعية المستوردة من الغرب، والتي بقيت لمدة طويلة غريبة عن أحاسيس وآمال المسلمين في الشرق الأوسط، بالإضافة إلى كونها تافهة بالنسبة لحاجاتهم»(١) .

معركة المقاومة للتغريب :

وقد ذكرنا في دراسة لنا : أن المسلمين لم يبتلوا في تاريخهم بمثل هذا الغزو الفكري الغربي. لقد عرفوا لونا من الغزو فيما سمي بـ(الإسرائيليات) ولكنها ـ وإن كدرت الثقافة الإسلامية ـ لم تؤثر فيها تأثيرا يذكر .

وعرفوا ما هو أشد منها خطرا حين ترجمت فلسفة اليونان ، وفتن بها كثير من المسلمين ، ولا سيما الجانب الميتافيزيقي منها ، حتى اعتبر بعضهم (أرسطو) المعلم الأول ، وليس محمدا صلى الله عليه وسلم، واعتبروا فلسفة أرسطو (أصلا) يرد إليها ما جاء في القرآن والحديث ، فإن وافقها فبها ، وإلا وجب تأويله .

ولكن هذه الفلسفة لم تؤثر إلا في خاصة الخاصة ، ولم تفعل ما يفعله الفكر الغربي الآن ، الذي تغلغل في الحياة كلها .

و المهم هنا : أن الفكر الإسلامي لم يستسلم يومًا للغزو التغريبي المتمكن ، المدجج بالسلاح ، المعزز بالسلطان ، المؤيد بالمال ، بل قاوم منذ أول يوم بما يملك من أسلحة

---

(١) الغرب والشرق الأوسط ص ٦١ .

ضعيفة ، وربما هزم أنصاره في بداية الأمر ، وحسب الغزاة أن الأمر قد استتب لهم ، وأن الجو قد خلا لهم ، وأن شمس الإسلام قد غربت .

وخاب فألهم ، فالأمة المسلمة قد تنام ، ولكنها لا تموت ، والقوة الإسلامية قد تكمن ، ولكنها لا تزول ، والمقاومة قد تتوقف فترة ، ولكنها سرعان ما تنتفض ، ويطلع فجرها مرة أخرى أشد ضياء وجلاء .

إن طبيعة الإسلام : بقرآنه المحفوظ ، وبسنة نبيه المبينة ، وبسيرته الحية ، وبهدي أصحابه الذين تربوا في حجره ، وببطولات سلف الأمة وأخلاقياتهم الهادية ، يستحيل أن تخبو جذوته ، أو ينطفئ سراجه ، أو تغيب شمسه ، قد تغيب عن قوم لتطلع عند آخرين ، وقد يحجبها سحاب طارئ ، لتبزغ بعد ، أضوأ وأنور.

لقد علمنا القرآن والسنة أن هذه الأمة لا تجتمع كلها على ضلالة ﴿ **فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين** ﴾ [الأنعام : ٨٩] . ﴿ **وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون**﴾ [الأعراف : ١٨١] . وقد روى عدد من الصحابة حديث (الطائفة المنصورة) التي تظل قائمة على الحق حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ، وروى الحديث الآخر: « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين» .

ولا عجب أن هيأ الله للمسلمين في أقطار شتى من وقفوا في وجه هذا الغزو ﴿**رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا**﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

وقامت حركات الإحياء والتجديد التي تحدثنا عنها بدورها في هذه المعركة ، التي تكاد تكون أطول المعارك وأعنفها وأخطرها ، وسرعان ما تراجع الغزاة المسلحون ، وإن لم يهزموا تماما ، ولم يلقوا أسلحتهم ، فلا تزال لهم بقايا في كل الأقطار. تعمل بجدّ ودأب ، والمعركة مستمرة ، والنصر في النهاية لأهل الدار، وأصحاب الحق ، والعاقبة للمتقين .

هدف التغريب إلى (علمنة)الدولة ، و(علمنة)المجتمع ، بتشريعه ، وثقافته ، وتعليمه وإعلامه وتقاليده ، ووقف رجال الإسلام لهذه العلمنة بالمرصاد . وقف رجال الجامعات

الـدينية كـالأزهر وغيره، والجماعـات الإسلاميـة، يعملـون ويجاهدون لاستعـادة هويـة المجتمع، وإفشال دعوة التغريب والعلمانية.

تطور الفكر الإسلامي من التبعية إلى المواجهة:

وكل دارس أو مراقـب للفكر وتطوره خـلال هذا القـرن يلحظ: تطور الفكـر لدى المسلمين من حالة التبعية المطلقة إلى حالة الاعتزاز والمواجهة.

فقد مر الفكر الإسلامي ـ أعني فكـر المسلمين ـ بمراحل، ابتدأت بالهزيمة المطلقة أمام فكر الحضارة الغربية الغـازية، التي كان يمثلها في ذلك الوقت الاستعمار المتمكن من جل بلاد المسلمين في المشرق والمغرب.

كـان الغرب في أوج تفـوقه وتقـدمه ونفـوذه وقوتـه، علميا وتكنـولوجيـا وعسكريـا واقتصـاديـا وسياسيـا، وكـان المسلمـون في حضيض ضعفهم وتخلفهم، في كل هـذه النـواحي، وكـان لابـد لهذه الحالـة أن تعكس أثـرهـا على العقـول والأنفس، والفكـر والثقافة.

وقد توهم بعض الناس المتعجلين الخاطفين للأفكار: كأنما الإسلام هو سبب تخلف الأمة، وكأن التخلف - بطبيعته - إسـلامي، والتقدم بطبيعته غربي! فـلا غرو أن بـهر الغرب أفكارهم، وخطف سنا برقه أبصارهم.

ولو كان هذا صحيحا ما سدنا العالم، وسادت حضارتنا لنحو عشرة قرون، كنا فيها معلمي البشرية، وكـانت جامعـاتنا تستقبل الطـلاب من أنحاء العـالم، وكانت أسماء علمائنا أشهر الأسماء، وكتبهم هي مراجع العلم العالميـة، واللغة العربية هي لغة العلم الأولى، بل الفذة في تلك العصور.

ولو كان ما ذكـروه صحيحا ما كان الغرب لعدة قـرون يعيش في عصور الظلام، ولا يرى الضوء إلا من سم الخياط. فقد كـان يشكو الفقر والأمية والقذارة والتفكك في كل جـوانب الحياة، حتى مسته نفحـة من الشرق الإسلامي، فهب من رقـود، وتحرك من جمود، في حين نحن بدأنا نسلك سبيل الانحدار وأسفاه!

لقد رأينا رجالا كبارا سلموا للغرب الزمام، واستسلموا لتيار التغريب، بل منهم من كانوا دعاته ومروجيه من البدء، وكان غير المسلمين أشد جرأة، وأعلى صوتا في ذلك من المسلمين، كما رأينا أمثال سلامة موسى وغيره.

ثم ظهر في أثناء ذلك مسلمون كان لهم نفوذهم وجاههم، مثل طه حسين ومنصور فهمي.

هناك من تبنوا الفكرة الداروينيه في النشوء والتطور ودافعوا عنها، وقاتلوا دونها مثل شبلي شميل في لبنان، وإسماعيل مظهر في مصر.

ومن تبنوا فكرة (دوركايم) في علم الاجتماع ومن تبنوا فكرة (فرويد) في التحليل النفسي.

ومن أهم هذه الأفكار التي شغلت الناس وقسمتهم: فكرة(كارل ماركس) في فلسفة المادية الجدلية، والصراع الطبقي، والفلسفة الجماعية، والتخطيط الاقتصادي المركزي، والتي قامت على أساسها الدول الشيوعية الكبرى: روسيا، والاتحاد السوفيتي في الغرب، والصين في الشرق، وإن كان (ماوتس تونج) قد أضفى على الشيوعية الصينية طابعا خاصا. وقد قامت في بلادنا أحزاب وجماعات تتبنى هذا الفكر وتروج له، وتجمع الشباب عليه، وتخوض المعترك السياسي على أساسه، منهم من كانت قبلته (موسكو)، ومن كانت قبلته (بكين). منهم من كان زعيمه وملهمه (لينين) ومن كان ملهمه (ماو) ومن كان ملهمه (غيفارا). وكلهم (ماركسيون).

وفي مقابل الفكرة الماركسية: كانت الفكرة الليبرالية، التي تتبنى الفلسفة الفردية، وحرية الفرد الاقتصادية والسياسية، والتي كان من ثمراتها العملية: الرأسمالية في الاقتصاد، والديمقراطية في السياسة. والتي قامت على أساسها الدول المتقدمة في أوربا الغربية، وكذلك الولايات المتحدة الأمريكية.

وكانت معظم النخب المثقفة في أوطاننا في أوائل القرن وأوسطه منقسمة بين التيارين الجديدين المتعارضين: التيار اليساري الماركسي، والتيار اليميني الليبرالي، وإن كان الليبرالي أكثر عددا، وأقوى عدة. وكلاهما غربي النشأة والجذور والوجهة، كما أن كليهما مادي الوجهة، حسّي النزعة، نفعي التوجه.

أما الفكر الإسلامي الحقيقي فكان في أوائل القرن كأنه غائب عن الساحة إلا ما كان من أصوات هنا وهناك، تقاوم وتقاوم، مثل (مجلة المنار) وصاحبها محمد رشيد رضا - امتداد مدرسة محمد عبده - في مصر، ومثل جماعة ندوة العلماء ومؤسستهم (دار المصنفين) في الهند، وعلى رأسهم العلامة شبلي النعماني والسيد سليمان الندوي، في الهند، ومثل العلامة عبد العزيز الثعالبي في تونس.

وبعد مرحلة المناداة بالتبعية المطلقة وبصراحة للفكر الغربي بخيره وبشره، جاءت مرحلة أخرى، هي مرحلة (التبرير) بمعنى أخذ مسلّمات الفكر الغربي، ثم محاولة تبريرها إسلاميا، وتمريرها لدى الأمة، بالبحث عن فتاوى لتسويقها شرعا.

وكانت هذه في الواقع عملية تدليس أو تلبيس من إبليس؛ لأنه يريد منا أن نأخذ الخواجة الغربي، ونلبسه عباءة عربية، أو عمامة إسلامية.

وهذا كما رأينا الذين يحاولون أخذ الربا من النظام الرأسمالي الغربي، ثم يسوغونه بأسانيد شرعية فيما زعموا، مثل أنه ليس من ربا الجاهلية، أو أنه ليس من ربا الاستهلاك، أو أنه ليس أضعافا مضاعفة أو غير ذلك من التبريرات، التي رد عليها العلماء الراسخون وأبطلوها.

وبعد هذه المرحلة جاءت مرحلة أخرى، هي مرحلة (الدفاع) عن الإسلام، أو (الاعتذار) عن الإسلام، أي اعتبار الإسلام كأنه في قفص الاتهام، وعلينا أن ندافع عنه، ونطلب له العفو والرحمة.

فكل ما تميز به الإسلام من أحكام وتعاليم يجب أن يوضع هذا الوضع، مثل قضية (حجاب المرأة) أو(ميراثها على النصف) من أخيها، وقوامة الرجل عليها في الأسرة، أو (قضية الربا) أو غيرها من القضايا التي للإسلام فيها موقف مخالف لما استقر عليه الأمر عند الغرب.

ثم جاءت بعد ذلك مرحلة الاعتزاز بالذات، والمواجهة مع الفكر المغاير، وخصوصا فكر الحضارة المادية المعاصرة بشقيها الرأسمالي والشيوعي، وقد تجلى ذلك في تراث الدعاة الكبار في هذا القرن، في العالم العربي، وفي باكستان والهند و إيران وغيرها من بلاد الإسلام، مثل المودودي في باكستان، وحسن البنا وسيد قطب ومحمد البهي، ومحمد عبدالله دراز، ومحمد الغزالي والشعراوي وغيرهم في مصر، ومثل السباعي وحوى

في سوريا، ومثل باقر الصدر في العراق، ومثل علي شريعتي في إيران، وفي الأحياء كثيرون يصعب حصرهم.

وقد تميزت هذه المرحلة ـ مع الاعتزاز والمواجهة ـ بالانفتاح والمرونة الفكرية والتسامح مع الآخر، المخالف في الدين أو المغاير في الفكر. ودعت إلى الحوار، وغلب فيها (تيار الوسطية) الذي يدعو إلى الاعتدال في فهم الدين وتنـزيله على الواقع، وفي التعامل مع الآخرين.

ومن أتباع التيارين الماركسي والليبرالي من استمروا على عبوديتهم لفكرهم القديم، ومنهم من تغير إلى النقيض، وخصوصا من الماركسيين، ومنهم من تغير في السياسة لا في الفكر، فأصبح من أتباع الموقف الأمريكي، وأحسب أن منهم دعاة التطبيع المطلق مع إسرائيل في مصر وغيرها، وهم الذين عرفوا بـ (جماعة كوبنهاجن).

ومن هؤلاء وأولئك من تحول إلى الإسلام صادقا.

من هؤلاء الدكتور منصور فهمي.

ومنهم: الأستاذ إسماعيل مظهر.

ومنهم: الدكتور مصطفى محمود.

ومنهم: الأستاذ خالد محمد خالد، الذي خرج على الخط الإسلامي في كتابه الشهير (من هنا نبدأ) وما تبعه من كتب عدة، ثم رجع إلى خطه الأصلي - الخط الإسلامي - وخطأ نفسه في شجاعة نادرة، وصراحة باهرة، في كتابه (الدولة في الإسلام) وما بعده من كتب.

ومنهم الدكتور محمد عمارة، والمستشار طارق البشري، والأستاذ عادل حسين، وقد كانوا في مرحلة من حياتهم تأثروا بالماركسية، بل دخل بعضهم السجن من أجلها.

وهم الآن ثلاثتهم من أقوى وأبرز الدعاة إلى الإسلام، والمدافعين عنه، كل في موقعه.

بل منهم الشيخ علي عبد الرزاق، الذي لم يسع إلى طبع كتابه (الإسلام وأصول الحكم) طوال حياته، ولم يتابعه بأي بحث أو مقال يؤيد الفكرة، بل نقل عنه الدكتور عمارة أنه قال لبعض المجلات عن عبارة (الإسلام رسالة روحية ولا صلة لها بالدولة أو السياسة) إنها عبارة ألقاها الشيطان على لسانه. وقد كان في أواخر حياته يصلي وراء

الشيخ الغـزالي في الجامع الـزهر، ويحرص على ذلـك، ولم يكن الشيخ الغزالي يعـرفـه، فسأله أن يعـرفه بنفسه، فقـال له : أنـا علي عبد الرزاق. وجـرى بينهما حديث سريع حـول الماضي وكتابـه الشهير، فقـال لـه : تلك مرحلـة انتهت. سمعت هـذا من الشيخ الغزالي، رحمهما الله.

وكـذلك تغير الـدكتـور محمـد حسين هيكل من النـزعة الفـرعـونيـة إلى النـزعة الإسلاميـة، كما ظهر ذلك في كتبـه المعروفة : حيـاة محمد، الصـديق أبو بكـر، الفاروق عمر، في منـزل الوحي.

بل طه حسين نفسـه في أواخر حياته غيره في أوائل حيـاته، كما يظهر ذلك في كتـابه (مرآة الإسلام) وغيره. وقد حكوا أنه عندما كان وزيرا للمعارف زار المدينة المنورة، فكان ممـا كرمـه به السعـوديون : أنهم فتحـوا له بـاب القبر النبوي ليـزوره من الداخل، قـال مرافقه : وعند دخول القبر وجدته يرتعش، وعيناه تدمعان، فسألته مندهشا، فقال له : ألا تدري قبر من هذا؟ إنه قبر رسول الله محمد!

وكذلك العقـاد، لم يكن في أوائل حياتـه، كما كان في آخـرها، فقـد غدا لسـانا من ألسنـة الإسلام، دعـوة إليه، ودفـاعـا عنه. وكتب عبقـريـاته الإسـلامية، والفلسفـة القرآنيـة، والإسلام في القرن العشرين، وحقائق الإسـلام وأباطيل خصومه، والشيـوعية والإنسانية، وما يقال عن الإسلام، وغيرها.

وأحسب أن الاستعمار لن يكـون سعيدا ولا قـريـر العين اليوم، إذا رأى أن جهـوده الطويلة المتتـابعة المكثفة المخططة، لم تحقق هدفها الأسـاسي في تحويل أمة الإسلام عن نهج دينهـا، وشرع ربها، ونسخها إلى أمـة أخرى، فهـا هي الصحـوة الإسلاميـة تقلب الأوضاع رأسا على عقب. وترعب القوى المعادية للإسلام، في الغرب والشرق، حتى باتوا يكيدون لها كيدا، ويمكرون بها مكرا كبّارا، والله من ورائهم محيط.

﴿ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين﴾ [الأنفال : ٣٠].

لقـد قلبت الصحـوة الموازين، وغيرت الأفكار والأوضـاع، حتى أصبح الشـارع مع الحركة الإسـلامية في عامة الأقطـار، في مصر وفي الأردن، وفي اليمن، وفي غيرها. حتى الجزائر التي استمر فيها أخبث أنواع الاستعمار ــ وهو الاستعمار الاستيطاني ـ ١٣٠ مائة

وثلاثين عاما، تنتصر عسكريا على هـذا الاستعمار، وتعود طوعا إلى حقيقتها وذاتيتها، وتقـوم فيهـا صحوة إسـلاميـة لا نظير لها، تنتـهي بإيصـال الإسـلاميين إلى أغلبيـة سـاحقة انتخبهـا الشعب مختارا لمجلسـه الوطني، وإن أبى ذلك العسكـريون الموالـون للثقافة الفرنسية .

وقام للإسلام دولة شيعية في إيران، ودولة سُنية في السودان، ولو ترك الأمر للشعوب لقامت دول في أكثر من مكان .

وسنفرد الفصل القادم عن(الصحوة الإسلامية)وأثرها في الحياة الإسلامية .

انطلاق الصحوة الإسلامية

ومن أعظم إنجازاتنا نحن المسلمين في هذا القرن: ظهور حركة (الإحياء) أو (البعث) أو (اليقظة) أو ما شئت من التسميات التي تدل على ظهور الإسلام في صورة (تيار جديد) أثر في الحياة الإسلامية، وجدد الثقة بعودة الإسلام إلى قيادة الحياة، وأقلق القوى المعادية للإسلام، والخائفة منه، هذه الحركة، أو هذا الانبعاث، أو هذا التيار هو ما عرف باسم (الصحوة الإسلامية). ولا سيما في الثلث الأخير من هذا القرن.

ولا أعرف بالضبط من هو أول من أطلق هذا الاسم أو صكّ هذا المصطلح، لكنه مصطلح صحيح ومعبر عن مضمونه: فإن الأمة قد تنام أو تنوّم أو تعطى ما يسكرها أو يخدرها، ثم تصحو وتفيق مما أصابها من نوم أو تنويم أو سكر أو تخدير.

فالصحوة تعني (عودة الوعي) بعد غياب: الوعي بالنفس، والوعي بالغير (صديق أو عدو) والوعي بالرسالة، والوعي بالزمان والمكان.

وقد عاد الوعي، أو برزت الصحوة في أمتنا، وسرت في كيانها سريان الكهرباء في الأسلاك، وجرت في رجالها ونسائها، مجرى الدم في العروق، وانتشرت في بلاد الإسلام انتشار أضواء الصباح، وتنقلت من بلد إلى بلد، كما تنتقل الرياح التي تسوق السحاب بشرى بين يدي رحمة الله، وهو المطر.

لا أعرف أين بدأت، ولكن أحسبها بدأت في مصر بلد الأزهر، والبلد الأم للدعوة الإسلامية في العالم العربي، ومنشأ كبرى الحركات الإسلامية، ومصر بلد مؤثر في العالم العربي والعالم الإسلامي كله، إنها تصدر الخير، وتصدر الشر. أعظم قارئي القرآن يخرج

من مصر، وأعظم داعية إلى الدين يظهر في مصر، وأعظم مفسر للقرآن يبرز في مصر، وأعظم مطرب أو مطربة، و ممثل أو ممثلة يظهر أيضا في مصر.

فلا عجب أن يبزغ فجر الصحوة من مصر، ومنها انطلقت إلى البلدان الأخرى، مشرّقة ومغربة. إلى العالم العربي، فالعالم الإسلامي، فالجاليات الإسلامية في أوربا وأمريكا الشمالية والجنوبية، والشرق الأقصى.

لقد رأيت هذه الصحوة رأي العين، ولمستها لمس اليد، وعايشت أبناءها وبناتها في المشارق والمغارب، والشمال والجنوب.

رأيت هذا الشباب الذي عاد إلى الإسلام بفهم جديد، وإيمان جديد، وعزم جديد، شبابا يشرق كضياء الفجر، ويتدفق كأمواج البحر، نراه في رقة الزهر، وفي صلابة الصخر، يصوم الإثنين والخميس، يتلو القرآن ويتعبد بتلاوته، ويدرس سيرة الرسول ﷺ، ويتأسى بهديه، ويتابع سير الصحابة ويتمنى أن يقتدي بهم. شباب والله مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، يمشون على الأرض وأعينهم ترنو إلى السماء، ويعيشون في الدنيا وقلوبهم موصولة بالآخرة. ولقد قلت يوما في مصر: إن هذا الشباب الذي خالطت قلبه بشاشة الإيمان، وعاش للإسلام وبالإسلام، هو أثمن ما في مصر من ثروات، إنه أثمن وأغلى من الذهب الأبيض (القطن) والذهب الأسود (البترول) والذهب الأصفر المعروف.

إنه الثروة التي لا تدانيها ثروة، وهي التي تغالي بها الأمم، وتعقد عليها الخناصر، وبها تقوم النهضات، وتنتصر الرسالات ﴿**إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى**﴾ [الكهف: ١٣].

لقد باتت الصحوة حقيقة واقعة في عالم الإسلام، لا ينكرها إلا جاحد أو مكابر، وقد سر بها كل من يحب الإسلام ويرجو له الخير. وكرهها أو خاف منها كل عدو للإسلام، يتربص به السوء، أو يخاف من انتصاره، أو يكره علو كلمته في الأرض.. وقد قال تعالى: ﴿**وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين**﴾ [الفرقان: ٣١].

كانت هذه الصحوة الإسلامية ـ كما شهدناها ـ صحوة شاملة:

فهي صحوة عقول وأفكار.

وهي صحوة قلوب ومشاعر.

وهي صحوة عزائم وإرادات .

وهي صحوة سلوك والتزام .

وهي صحوة غيرة ودعوة .

وهي صحوة كفاح وجهاد .

وهي صحوة مسلمين ومسلمات .

ولقد أثبتت وجودها على هذه الأصعدة كلها .

أسباب ظهور الصحوة وجذورها :

وقد تساءل الكثيرون عن ظهور هذه الصحوة التي فاجأت الكثيرين، وصدمت الكثيرين، في الداخل والخارج، ممن ذهبت بهم الظنون : أن الإسلام قد غربت شمسه، أو انتهت مدة صلاحيته، وأن الضربات القاصمة التي أنزلت بحركته ودعوته، وأصابت أصحابها بجراحات غائرة، شتّتت شملهم، وعوقت سيرهم، وقوضت خيامهم، فإذا هو يحيا من جديد، أشد قوة، وأصلب عودا، مرفوع اللواء، عالي النداء، متين الأسس، شامخ البناء .

أسباب مزورة للصحوة :

ما سبب هذه الصحوة؟ وما العامل المؤثر في ظهورها؟

كتب كاتبون كثيرون في ذلك، يمثلون شتى الاتجاهات، وكل يغنّي على ليلاه، وكل يفسر الأحداث وفق فلسفته التي يؤمن بها، وتبعا لمدرسته التي ينتمي إليها .

فهناك أتباع (التفسير المادي) الذين أرادوا أن يردوها إلى أسباب اقتصادية برزت في المجتمع . وهذا هو ديدنهم في تفسير كل وقائع التاريخ، وتغيراته . حتى ظهور النبوات والرسالات السماوية، أسبابه اقتصادية . ومن لم يؤمن بالله ولا بملائكته وكتبه ورسله، لا يستبعد عليه ذلك . وقد يكون للاقتصاد بعض الأثر في ظهورها ، ولكنه ليس السبب الوحيد ، ولا السبب الأول، ولا السبب القوي ، من غير شك .

وآخـرون ردوها إلى أسبـاب نفسية، نشأت بعـد نكبة سنـة ١٩٦٧م، التي سموهـا (النكسـة) والتي احتلت بها إسرائيل مـا بقي من فلسطين بعـد نكبـة سنـة ١٩٤٨م، وأضافت إليها الجولان، وسيناء.

ولا غرو أن توقظ النكبات الكبرى الناس، ما داموا على بقية من سلامة الفطرة.

وقد بين لنا القرآن مـوقف الإنسان ـ ولو كان مشركا ـ إذا مسـه الضر، ونابه الكرب؛ فهو يـدعو ربـه منيبا إليـه. كما صور مـوقف ركاب الفُلك، إذا عصفت بهم الـريح، وأحاط بهم الموج من كل مكـان، وظنوا أنهم أحيط بهم: دعوا الله مخلصين لـه الدين: أي أنهم في هذه الحالة رجعوا إلى الفطرة، ولم يذكـروا إلا الله وحده. فلا يستبعد أن تهز النكبة الثانية[1] ـ بعد نكبـة سنة١٩٤٨م ـ نكبة سنـة ١٩٦٧م: كيان الإنسان المسلم، وتـرده إلى ساحـة الله تعـالى، بعـد أن استنسر في أرضه البغـاث، وتجرأ عليه الجبـان، وانتصر عليه اليهود، أحرص الناس على حياة!

هل الصحوة من صنع حاكم عربي؟

وأغرب ما كتبه بعض اليسـاريين والعلمانيين العرب في مصر: أن أحد الحكام[2] هو الذي أنشأ هذه الصحـوة وأوجـدها من العـدم، ليقـاوم بها التيـار الشـيوعي المتنامي في نظره!

وإن تعجب فعجب أن يقول ذلك الذين يـزعمون أنهم ينطقون بلسان الجماهير! ولا أدري كيف جهل هـؤلاء أن صحوات الشعـوب لا تصنعها إرادة الحكـام، ولا سيما إذا كانت صحـوة عميقة الجذور في الفكر والشعـور والإرادة والسلوك، كما هو المشـاهد في الصحوة الإسلامية المعاصرة، وليست مجرد زبد طاف على السطح!

لو كانت هذه الصحوة من صنع حاكم، لاستطاع أن يلغيها كما أنشأها؛ فإن الذي يقدر على البناء يقدر على الهدم، بل هو أسهل.

---

(١) هكذا سميناها في كتابنا (درس النكبة الثانية: لماذا انهزمنا وكيف ننتصر؟).
(٢) يريدون: الرئيس المصري الراحل أنور السادات!

وليت شعري، من الذي صنع الصحوة في سائر ديار العرب غير مصر؟! ومن الذي صنعها في سائر ديار الإسلام؟! ومن الذي صنعها خارج العالم الإسلامي؟!

قد يفكر حاكم ما في وقت ما استغلال الصحوة في إضعاف عدو له، لا محبةً في زيد، ولكن كراهية في عمرو! وقد ينجح في ذلك، وقد يخفق، وقد يتفق هدفه هذا مع هدف الصحوة نفسها، وقد تعتقد أنها هي التي تستغله! ومهما يكن، فلا يعني شيء من هذا أن الصحوة من صنع يده.

ربما غاظ هؤلاء أن هذا الحاكم أتاح للتيار الإسلامي ـ في وقت ما ـ أن يعبر عن نفسه، كما يعبر غيره، كما أتيح لكل التيارات من يمين ويسار أن تعبر عن نفسها، بل هيّئ لها في سنوات طويلة أن تثب على أجهزة إعلام الدولة، وتسيطر عليها، وتوجهها لخدمة فكرها، وتشويه الفكر الإسلامي والافتراء عليه، ولا أحد يملك الرد أو الاعتراض!

أجل.. هذا ما ملأ قلوب هؤلاء غيظا، لأنهم يعلمون ويوقنون من تجارب الماضي والحاضر: أن التيار الإسلامي هو التيار الوحيد الأصيل المتجاوب مع فطرة الأمة ووعيها وتاريخها، وأن حرية الكلمة والحركة هي دائما في مصلحة التيار الإسلامي، وأنه لا يقاوَم إلا بالحديد والنار، وقهر الشعوب على غير ما تريد، وأنه يكمن، ولكن لا ينمحي، وقد يضعف، ولكن لا يموت.

إن كل ما يطلبه التيار الإسلامي: أن تترك له الحرية ليخاطب الشعب، ويجنّد الجماهير، ويدعو إلى حقائق الإسلام، ويرد على أباطيل خصومه. وهذا حق من حقوق الإنسان، كفلته المواثيق الدولية، والدساتير المحلية، ونادت به الديمقراطية التي يتغنون بها.

أم يريدونها ديمقراطية لهم وحدهم، وهم ـ بأفكارهم المستوردة ـ غرباء عن الأمة، دخلاء عليها؟ فحرية الرأي والتعبير والحركة والاجتماع حق لكل اتجاه وكل فلسفة، إلا الاتجاه الإسلامي صاحب الدار!! ورحم الله شوقي الذي قال:

أحرام على بلابله الدوح، حلال للطير من كل جنس؟!
كل دار أحق بالأهل إلا في خبيث من المذاهب رجس

والغريب أن هؤلاء الذين يدّعون لأنفسهم ـ أو يَدّعي لهم مروجو بضاعتهم ـ القدرة على الغوص والتحليل، ينظرون إلى الصحوة كأنها ظاهرة شاذة، أو خارقة لقوانين الكون وسنن الاجتماع البشري.

وكأن الأصل في الأمة المسلمة، أن تنام فلا تصحو، وأن تفقد الوعي، فلا تُفيق. وإذا أفاقت وصحت، وجب أن يكون صحوها وإفاقتها بغير الإسلام، ولغير الإسلام!

حقائق الدين والتاريخ:

ولعمري، إن هذا كله باطل. فالأصل في أمتنا أن تصحو وتتنبّه بالإسلام وللإسلام. ومن رجع إلى تراثنا وجد علماءنا يقولون: ما جاء على الأصل لا يُسأل عن علته. ذلك، لأن من شأن الأمة الإسلامية ألا يطول غيابها عن وعيها، بمقتضى طبيعة الإسلام الذي تؤمن به، والذي تستمع لقرآنه صباح مساء، والذي لا تغيب عن ذاكرتها سيرة رسوله ﷺ وسير أبطاله. طبيعة هذا الإسلام تأبى إلا أن توقظها من سُبات، وتحييها من موات. فالإسلام يدعوها أبدا إلى العلم والعمل، ويرغبها في الفكر والنظر، ويحرّضها على الكفاح والجهاد، ويَعدها بالنصر وعلو الكلمة، ويؤكد لها أن الله مع المؤمنين، وأن العاقبة للتقوى، وأن النصر مع الحق، وأن الباطل زاهق لا محالة: ﴿**فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض**﴾ [الرعد: ١٧]. ﴿**بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق**﴾ [الأنبياء: ١٨].

ومن شأن هذه الأمة ـ وفق ما جاء به القرآن وأخبر به الرسول، وما نطق به التاريخ ـ ألا تجتمع على ضلالة، وأن تظل فيها طائفة ثابتة على الحق، داعية للخير، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون.

يقول الله في كتابه: ﴿**وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون**﴾ [الأعراف: ١٨١].

ويقول الرسول الكريم: «لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»(١).

---

(١) متفق عليه: اللؤلؤ والمرجان (١٢٥٠) عن معاوية، وقد صح الحديث عن عدد من الصحابة بألفاظ متقاربة كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته.

ويقول: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[1].

ويقول: «يحمل هذا العلم (علم النبوة) من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»[2].

ويقول التاريخ: إن هذه الأمة قد أصابتها نكسات ونكبات كبرى، منذ فجر تاريخها، ظن الناس معها بها الظنون، وابتلي بها المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا. ولكن الأمة استطاعت أن تتغلب على عوامل الضعف من الداخل، وعوامل الغزو من الخارج، وأن تحول الهزائم إلى انتصارات، وأن تخلق من الضعف قوة، ومن التفرق وحدة، ومن الأشلاء المبعثرة جسما عملاقا.

وقال التاريخ أيضا: إن هذه الصحوات الكبرى لم يصنعها غير الإسلام حين يجد من يعلي كلمته، وينادي باسمه، ويجند قوى الأمة تحت رايته.

سجل التاريخ ذلك في حروب الردة منذ عهد الخليفة الأول، يوم ارتدت قبائل العرب، وتبعوا المتنبئين الكذابين، ولم يبق على الإسلام غير المدينة ومكة.

وسجل ذلك في حروب الصليبيين في عهود عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود الشهيد، وصلاح الدين الأيوبي.

وسجل ذلك مرة أخرى في غزو التتار للعالم الإسلامي، وبعد أن دمروا بغداد وأسقطوا الخلافة العباسية، ثم لم يلبث الإسلام أن أثبت وجوده، وانتصر على التتار عسكريا في معركة حاسمة من معارك التاريخ، قادها سيف الدين قطز، مع جنود مصر، وهي معركة (عين جالوت) في ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ، أي بعد سنتين فقط من سقوط بغداد (سنة ٦٥٦هـ).

وسجل ذلك في معارك التحرير والاستقلال في الأوطان الإسلامية كافة. فقد كان الإسلام هو المحرك الأكبر، وهو القائد الحقيقي، لكل معارك الجهاد، ضد الاستعمار الغازي لبلاد المسلمين.

---

(١) رواه أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه والبيهقي في المعرفة عن أبي هريرة وصححه عدد من الأئمة الثقات.

(٢) روي عن وجوه متعددة عند ابن عدي وابن جرير والخطيب والدارقطني والخلال وتمام في فوائده والقاضي إسماعيل، وقواه ابن القيم في (مفتاح دار السعادة) ١/ ١٦٣، ١٦٤، وسئل عنه الإمام أحمد فقال: صحيح.

حركات الإحياء والتجديد والدعوة وأثرها في الصحوة :

على أن هناك حقيقة يجب أن تعرف وتذكر، إذا تحدثنا عن أسباب الصحوة ومكوناتها، وهي : أن الصحوة المعاصرة التي نشهد آثارها ومظاهرها منذ أوائل السبعينيات، لم توجد من فراغ، ولا ولدت دفعة واحدة، ولا كانت (نباتا شيطانيا) ظهر وحده، بغير زارع ولا راع، كما تصور بعض الناس.

إن هذه الصحوة امتداد وتجديد لحركات الإحياء، والبعث والتجديد الإسلامية، التي تحدثنا عنها في بحثنا هذا.

ابتداء من حركة مجدد الجزيرة العربية : محمد بن عبد الوهاب (ت : ١٢٠٦هـ، ١٧٩٢م) مرورا بحركة مؤسس الدعوة السنوسية في ليبيا : محمد بن علي السنوسي(ت : ١٢٧٦هـ ، ١٨٥٩م).

ثم بحركة الزعيم الديني الثائر المجاهد، الذي أقام حكم الشريعة في جنوب وادي النيل : محمد أحمد المهدي (ت : ١٣٠٢هـ، ١٨٨٥م)، ثم بحركة عدو الاستعمار داعية (الجامعة الإسلامية) جمال الدين الأفغاني (ت : ١٣١٤هـ، ١٨٩٧م).

وكذلك معاصره الأديب المصلح، عدو الاستبداد : الشيخ عبد الرحمن الكواكبي(ت : ١٣٢٠هـ، ١٨٠٢م).

ولن ينسى التاريخ تلميذ الأفغاني وصاحبه وشريكه في تحرير (العروة الوثقى) وفي حركة الإيقاظ والتجديد، رائد الإصلاح الفكري والتعليمي، وشيخ المدرسة الإسلامية العقلية الحديثة : الأستاذ الإمام محمد عبده (ت : ١٣٢٣هـ، ١٩٠٥م).

رجال كان لهم أثرهم في الصحوة لا ينساهم التاريخ :

وكل هؤلاء محسوبون على ما قبل القرن العشرين : أما القرن العشرون، فيذكر التاريخ رجالا كان لهم دور يذكر فيشكر(١).

---

(١)انظر : كتابنا (الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي) نشر (دار الشروق) بمصر، ومؤسسة الرسالة ببيروت.

يذكر منهم تلميذ الشيخ محمد عبده وصاحبه، وناشر علمه، الذي أخذ من شيخه الاستقلال في الفكر، والثورة على الجمود والتقليد، وأضاف إليه التوغل في علم الحديث وآثار المدرسة السلفية، فجمع بين القديم والجديد، ووازن بين المعقول والمنقول، وأصبح يمثل بجلاء (السلفية المجدّدة)، التي تجسد الأصالة والمعاصرة بحق. ذلكم هو: العلامة السيد رشيد رضا، صاحب مجلة (المنار)، و(تفسير المنار)، والكتب التي كانت في وقتها نماذج تحتذى، ومصابيح بها يهتدى (ت: ١٣٥٤هـ، ١٩٣٥م).

ويذكر منهم الداعية المربي، المجاهد الصابر، الذي قاوم علمانية الكماليين، وطغيان أتاتورك، وأشعل جذوة الإيمان في قلوب الأتراك، بالتربية والقدوة، وبالكتب الرصينة، وبالرسائل الموجهة، وبالثبات على الحق في مقاومة الباطل: الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي (ت: ١٩٦٠م).

ويذكر منهم الرجل القرآني، والمعلم الرباني، الذي جسد بدعوته شمول الإسلام وتوازنه، وربانيته وواقعيته، فربط الفكر بالحركة، ومزج العلم بالعمل، وجمع بين التربية والجهاد، كما جمع بين نقاء العقيدة السلفية، وروحانية الصوفية السنّية. ودعا إلى الإسلام عقيدة ونظاما، دينا ودولة، عبادة وقيادة، مصحفا وسيفا. وحارب الفساد والظلم في الداخل، والاستعمار والصهيونية في الخارج. وربّى على الإسلام جيلا جعل الله غايته، والرسول أسوته، والقرآن شرعته، والجهاد وسيلته، والموت في سبيل الله أسمى أمانيه. إنه مؤسس كبرى الحركات الإسلامية الحديثة في العالم: الإمام الشهيد حسن البنا(ت: ١٣٦٨هـ، ١٩٤٩م)، واضع أسس العمل الإسلامي الجماعي، الذي انتشرت رسائله وتلاميذه، وتلاميذ تلاميذه في العالم كله انتشار أنوار الفجر. وشاء الله أن تكون المحن المتتابعة التي صبت على إخوانه وتلاميذ مدرسته، سببا في هجرتهم بدعوتهم، وتفرقهم في أقطار الشرق والغرب، فتنتشر بهم الدعوة والصحوة في كل مكان.

ويذكر منهم المفكر المجدد، صاحب النظر العميق، والتحليل الدقيق، ناقد الحضارة الغربية على بصيرة، والداعي إلى نظام الإسلام عن بينة. صاحب الكتب والرسائل التي ترجمت إلى عشرات اللغات، الذي وقف في وجه دعاة (التغريب) و(أعداء السنّة) والمنادين بنبوة جديدة (القاديانيين)، و(المرتزقة) من الخرافيين

والقبوريين، و(مشوّشي الفكر) من المقلدين الجامدين.. مؤسس كبرى الجماعات الإسلامية في شبه القارة الهندية: العلامة أبو الأعلى المودودي (ت١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م) الذي اتفقت أصول دعوته مع أصول دعوة حسن البنا، وإن لم يلتقيا، وإنما الْتَقَى أبناء المدرستين، وتعاونوا في مجالات شتى، وخصوصا في أوربا وأمريكا والشرق الأقصى.

ويذكر منهم العالم الداعية المربي، الذي عاش للقرآن مفسرا ومطبقا، ودعا إلى السلفية الواعية، والروحانية الصافية، وحارب الجمود في الفكر، والانحراف في العقيدة، والعوج في السلوك، ووصل العلم بالتربية، مؤسس (جمعية العلماء) في الجزائر، ومنشئ مجلة (الشهاب) التي كانت كاسمها نورا يهدي الحائرين، ورجْما يرهب الشياطين، الشيخ المصلح: عبد الحميد بن باديس (ت: ١٣٥٩هـ، ١٩٤٠م).

ويذكر منهم الداعية الفقيه، الصابر المجاهد، صاحب الروح المشرق، والبيان المغدق، والعقل المتفتّح، الذي قاوم أعداء السنّة فأسكتهم، ودعاة العلمانية فأفحمهم، مؤسس الحركة الإسلامية في سورية، ومنشئ مجلة (حضارة الإسلام) وصاحب الكتب القيمة، والرسائل النافعة: الشيخ الدكتور/ مصطفى السباعي (ت: ١٣٨٥هـ، ١٩٦٥م).

ويذكر منهم الرجل الصلب، الذي أوذي في الله، فما وَهنَ وما ضَعُفَ وما استكان، وقدم عنقه فداء لفكرته.. صاحب القلم البليغ، والأدب الرفيع، والروح المحلق، والبيان المشرق، والمنهج الواضح، والفكر الثائر.. صاحب (التصوير الفني)، و(العدالة)، و(الظلال)، و(المعالم)، وغيرها من الكتب التي انتشرت في لغات العالم الإسلامي، شرقا وغربا.. الأديب الكبير، الداعية الشهيد: سيد قطب (ت: ١٣٨٦هـ، ١٩٦٦م)

ومنهم الداعية الكبير، والكاتب القدير، والخطيب الأصيل، أديب الدعوة الإسلامية، ولسانها الناطق بالحق، الجاهر بالصدق، المعبر عن خلجات الجماهير، الذي قاوم الظلم الاجتماعي، والاستبداد السياسي، والاستعمار الصليبي، كما قاوم التدين المغشوش، والفهم المعلول للإسلام، ببيانه الزاخر، وأدبه الساخر، وكتبه التي شرقت وغربت: الشيخ محمد الغزالي (ت: ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م).

ومنهم: العالم الداعية البحاثة، صاحب التآليف التي راجت بين شباب المسلمين،

والتي تحمل الروح الثوريـة ، والدعوة الجهاديـة ، مثل (الأصول الثلاثة : اللـه والرسول والإسـلام) ، و(الأسـاس في التفسير) و (الأسـاس في السنـة) : الشيخ سعيـد حـوى (ت : ١٩٨٩م) .

هؤلاء الميـامين من الدعـاة والمفكرين كان لكل منهم تأثيره في جـانب من الجوانب ، على عدد من الناس ، يقل أو يكثر ، وفي رقعة من الأرض ، تضيق أو تتسع ، وعلى مدى زمني يقصر أو يطول ، وإن كان كل واحـد منهم يؤخذ منه ويرد عليـه ، باعتبارهم بشرا غير معصومين ، يجتهدون في خدمة الإسلام ؛ فقد يصيبون ، وقد يخطئون ، وهم على كل حال مأجورون على اجتهادهم ، حتى فيما أخطأوا فيه إن شاء الله .

وكان لأصحابهم وخلفائهم وخريجي مدارسهم الفكرية والحركية نصيب لا يجحد في حركة البعث والإحياء الإسلامي ، التي نقطف بعض ثمراتها اليوم .

نوادر البطولة والبذل والثبات :

ولا ننسى هنا نوادر البطولة ، ومواقف البذل والتضحية والثبات ، التي وقفها رجال صدقوا مـا عاهدوا الله عليـه ، من رجال الدعوة الإسلاميـة ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظـر ، عـرفت منهم مـن عـرفت ، فما رأيت إلا الحق ، ومـا شهـدت إلا الصدق ، وما علمت إلا الخير ، مثل القـاضي الفقيه الداعية عبد القـادر عودة ، والعالم الـداعية الشيـخ محمد فـرغلي ، والمحـامي الملتـزم إبراهيم الطيـب ، والجندي الصـادق الصبور يـوسف طلعت ، (الـذين شنقهم عبد النـاصر سنة١٩٥٤م) والشيخ الـداعية المتحمس عبد الفتاح إسماعيل ، وزميله المجاهد محمد يوسف هواش ، اللذين شنقا مع سيد قطب سنة ١٩٦٦م . . وموقف الرجل الصـامد الشامخ : الأستاذ حسن الهضيبي (ت : ١٣٩٣هـ ، ١٩٧٣م) ، المرشـد الثاني لجماعـة الإخوان المسلمين ، ومـواقف جماعة الشهداء الأبطال من إخوانه وأبنائه الأبرار ، وغيرهم ممن بذل حياته ودمه لله قرير العين .

فكانت هذه المواقف الإيمانية الفذة ، غذاء ووقودا للصحوة الإسلامية .

حركات الجهاد ورجالها :

كما كانت حركات الجهاد الإسلامي في العصر الحديث مددا للصحوة لا يخفى تأثيره على دارس. كما كان لرموز هذه الحركات الجهادية تأثيرهم ودفعهم، مثل حركة الأمير عبد القادر (ت: ١٣٣٦هـ، ١٩١٨م) في الجزائر، والزعيم محمد أحمد المهدي (ت: ١٣٠٢ه، ١٨٨٥م) في السودان، والأمير عبد الكريم الخطابي (ت: ١٣٨٢هـ، ١٩٦٣م) في المغرب، والشهيد عمر المختار (ت: ١٣٥٠هـ، ١٩٣١م) في ليبيا، والشيخ عز الدين القسام (ت: ١٣٥٤هـ، ١٩٣٥م)، والمفتي أمين الحسيني (ت: ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م) في فلسطين.

علماء ودعاة ومفكرون كان لهم دورهم :

وإلى جوار رجال الجهاد والعمل، كان هناك رجال يعملون في ميدان الفكر والثقافة والأدب، يوقظون العقول، ويحركون المشاعر، ويصححون المفاهيم، ويقاومون الاستعمار الثقافي.

ومن هؤلاء شاعر الإسلام في الهند، الفيلسوف المفكر، الذي أيقظ بفكره العقول، وبشعره القلوب، الدكتور محمد إقبال (ت: ١٣٥٧هـ، ١٩٣٨م).

ومنهم أمير البيان، ومحامي الإسلام، الأديب العالم الموسوعي المؤرخ المصلح، صاحب المقالات الناصعة، والتعليقات الرائعة، والكتب النافعة، الأمير شكيب أرسلان (ت: ١٣٦٦هـ، ١٩٤٦م).

ومنهم أديب العربية والإسلام، الذي جعل الله من قلمه للحق سيفا يمحق به الباطل، صاحب الروائع البيانية، والمعارك الأدبية في نصرة الإسلام، ومقاومة دعاة التغريب: مصطفى صادق الرافعي (ت: ١٣٥٦هـ، ١٩٣٧م).

ومنهم الكاتب و الباحث الموسوعي، مؤلف (دائرة معارف القرن العشرين) في عشرة مجلدات، وعدد من الكتب في فضل الإسلام وموقفه من المدنية، و في الرد على الماديين، وقد تولى تحرير (مجلة الأزهر) نيفا وعشرين سنة: محمد فريد وجدي (ت١٩٥٤م).

ومنهم الكاتب العلامة، المؤرخ المحقق، أحد رواد الصحافة الإسلامية، والمحامين عن التاريخ الإسلامي، وأستاذ مدرسة التمحيص والتحقيق فيه، صاحب مجلتي (الفتح) و (الزهراء): السيد/ محب الدين الخطيب (ت: ١٣٨٥هـ، ١٩٦٩م).

ومنهم الكاتب العملاق، صاحب العبقريات الإسلامية، الذي سخر قلمه في سنواته الأخيرة لبيان حقائق الإسلام، وأباطيل خصومه، ومقاومة الدعوات الهدامة من الشيوعية وغيرها: عباس محمود العقاد (ت: ١٣٨٣هـ، ١٩٦٤م).

ومنهم: داعية النهوض الحضاري، المفكر المسلم، المتميز بعقلانيته وعمق تحليله، صاحب (الظاهرة القرآنية) و (شروط النهضة) و (صراع الأفكار) وغيرها: المفكر الجزائري مالك بن نبي (ت: ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م).

ومنهم المفكر المربي الداعية الناقد البصير، مؤلف (نظام الإسلام) وغيره من الكتب المتميزة الأصيلة: الأستاذ محمد المبارك(ت: ١٩٨١م).

ومنهم العالم الاجتماعي المرموق، الذي كشف عن فلسفة الإسلام الحق للغربيين، وصحح مفاهيمه لهم، ورد على أباطيلهم، وتبنى فلسفة (إسلامية المعرفة) ولا سيما في العلوم الاجتماعية، الأستاذ الشهيد إسماعيل الفاروقي(ت: ١٩٨٦م).

ومنهم الخطيب المصقع، الذي هز أعواد المنابر، وأرعب أرباب الكراسي، صاحب الطريقة المتميزة، والبيان المتدفق، والأسلوب الساحر، الذي شدت خطبه الجماهير المسلمة في مصر، وانتشرت أشرطته في المشارق والمغارب: الشيخ عبد الحميد كشك (ت: ١٩٩٦م).

ومنهم العالم الجليل، والداعية النبيل، والمفسر البارع للقرآن الكريم، وصاحب النظرات واللفتات الرائعة، لكتاب الله، الشاعر المطبوع، والمعلم الموهوب: الشيخ محمد متولي الشعراوي (ت: ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م).

ومنهم أديب الفقهاء، وفقيه الأدباء، الكاتب المبدع، والمحدث الممتع، والقاضي الفاضل، والمعلم البارع، الذي شد الناس بأحاديثه التليفزيونية والإذاعية الرائعة: الشيخ علي الطنطاوي (ت: ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م).

ومنهم: علامة الهند، ورباني الأمة، وبقية السلف، العالم العامل، والحبر الكامل،

الزاهد الجاهد المجاهد، صاحب الكتب الفائقة، والرسائل الرائقة، والمحاضرات النافعة، الذي أجمع عليه السلفيون والمتصوفون، والمذهبيون واللامذهبيون، والتقليديون والمعاصرون، الداعية الكبير: الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي (ت: ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م).

وهناك رجال كبار لهم دورهم وأثرهم الذي لا ينكر، مثل الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر، ومثل رجل الإصلاح والدعوة، الفقيه الأصولي السيد محمد الخضر حسين شيخ الأزهر، و الفقيه المفسر العلامة الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر، والشيخ العلامة الفقيه محمد أبو زهرة، والعلامة الفقيه والكاتب الشيخ محمد المدني، والشيخ العلامة الفيلسوف الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز، والشيخ الداعية المتصوف الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر، وأستاذ الفلسفة الدكتور محمد البهي، وفقيه العصر الشيخ مصطفى الزرقا، وعلامة تونس الفقيه الأصولي المفسر الشيخ الطاهر بن عاشور، ورجل الفقه والسياسة في المغرب علال الفاسي، ورجل الدعوة والربانية الأستاذ البهي الخولي، ورجل الأدب والشعر والنقد والتحقيق العلامةمحمود محمد شاكر، وأساتذة الاقتصاد الإسلامي الكبار: الدكتور عيسى عبده، والدكتور محمد أبو السعود، والدكتور أحمد عبد العزيز النجار.

وآخرون لا نستطيع حصرهم من رجال العلم، ورجال الأدب، ورجال التربية، ورجال الدعوة ، ورجال الصحافة والإعلام، وخصوصا في المجلات الإسلامية، في عدد من بلاد الإسلام، وبعض خطباء المساجد المؤثرين، أسهم كل منهم ـ بقدر يقل أو يكثر ـ بلسانه أو بقلمه، بقوله أو بفعله.

وقد قصرنا حديثنا هنا ـ عن الدعاة الكبار ـ على الأموات رحمهم الله، على أن في الأحياء رجالا كان لهم دور كبير في إحياء الصحوة وفي ترشيدها، بكتبهم وخطبهم وبمحاضراتهم ودروسهم وحلقاتهم، سيذكرها التاريخ في حينها.

جماعات ساهمت في الصحوة:

ولا ننسى جماعات وحركات كان لها أثرها ومساهمتها في مجال الصحوة، على اختلاف اتجاهاتها ومشاربها، بالإضافة إلى أم الجماعات، وكبرى الحركات الإسلامية: حركة الإخوان المسلمين.

منها : جماعة الدعوة والتبليغ ، التي تاب على أيدي أتباعها كثير من العصاة في بلاد العجم والعرب ، وعرفوا الطريق إلى المسجد والصلاة والتوبة ، بعد شرور المعصية ، وشرود الغفلة . وقد بدأت في الهند وباكستان ، ثم انتشرت في العالم ، ومن مؤسسيها وروادها : الشيخ محمد الياس ، والشيخ محمد يوسف ، وخلفاؤهما .

ومنها : الحركة السلفية ، التي عنيت بتصحيح العقيدة ، وتصحيح العبادة ، وتحريرهما من الشركيات والمبتدعات ، والدعوة إلى الاعتماد على الكتاب والسنّة ، لا على تقليد المذاهب أو اتباع الطرق ، ومن روادها : الشيخ محمد حامد الفقي في مصر ، والشيخ عبد العزيز بن باز في المملكة العربية السعودية ، والشيخ محمد ناصر الدين الألباني في بلاد الشام ، والشيخ عبد الرحمن عبد الخالق في الكويت .

ومنها : الجمعية الشرعية ، للعاملين بالكتاب والسنة ، في مصر خاصة ، التي كان لها دورها في إقامة السنة ، ومحاربة البدعة ، وإنشاء المساجد الملتزمة بإقامة الصلاة على الوجه الأكمل ، ومؤسسها الشيخ محمود خطاب السبكي ، وخلفه ابنه الشيخ أمين ، وبعدهما الشيخ عبد اللطيف مشتهري ، والشيخ محمود عبد الوهاب قايد .

ومنها : جماعة الجهاد التي ربت أتباعها على معاني القوة والصلابة ، والخشونة إلى حد العنف ، وحب البذل والتضحية ، والاستشهاد في سبيل الله ، ومن أشهر رجالها : العالم الأزهري الكفيف الشيخ عمر عبد الرحمن ، والسيد عبود الزمر .

ومنها : حزب التحرير الإسلامي ، الذي وقف جهده على الدعوة لإقامة الدولة الإسلامية ، وإعادة الخلافة الإسلامية ، والذي أسسه الشيخ تقي الدين النبهاني .

وتأثير هذه الجماعات ليس متساويا . كما أن لكل منها مالها وما عليها من ناحية فكرها ، وأهدافها ، ومناهجها وأساليبها ، ولكن ليس هذا مقام النقد أوالتقويم لها .

إنما نتحدث عن كل من أسهم في ظهور الصحوة بجهد ما . كما لا ننسى دور الجامعات الإسلامية القديمة والحديثة ، كالأزهر بمصر ، والزيتونة بتونس ، والقرويين بالمغرب ، وديوبند وندوة العلماء بالهند ، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وجامعة أم القرى بمكة ، وجامعة محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، والجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد ، وكوالالامبور ، وغيرها من المؤسسات العلمية الإسلامية ، التي لا يجحد أثرها وفضلها مثل (المعهد العالمي للفكر الاسلامي) في واشنطن و فروعه ، والذي

قام على تأسيسه ورعايته إخوة فضلاء مثل الدكتور عبدالحميد أبو سليمان، والدكتور طه جابر العلواني، وإخوانهما. وهو يعمل في مجال (أسلمة المعرفة) وخصوصا العلوم الإنسانية والاجتماعية. وله منشوراته القيمة بالعربية والإنجليزية.

من ثمار الصحوة:

وثمار الصحوة الإسلامية وآثارها دانية القطوف، ظاهرة للعيان، يشاهدها الناس، بل يلمسونها في كل مكان يوجد فيه أهل الإسلام.

التنادي بتحكيم الشريعة:

ومن هذه الثمار والآثار: التنادي بتحكيم الشريعة الإسلامية في سائر أرض الإسلام، بعد أن غلبت العلمانية في وقت من الأوقات، وأسكتت أصوات دعاة الشريعة، فصمتوا حينا حتى ظن الظانون ـ ظن السوء ـ أنهم قد اختفوا إلى الأبد.

وقد رأينا هؤلاء في كل مكان، حتى في أول بلد طبق العلمانية بالقوة والعنف، وهو (تركيا) الحديثة، التي أنشأها أتاتورك على أنقاض (تركيا) دار الخلافة العثمانية. ولولا حماية الجيش التركي ـ الذي فرغ من كل عنصر إسلامي ـ للعلمانية المفروضة على الشعب، لرأينا تركيا راجعة إلى الإسلام، وتجلّى الشعب التركي على حقيقته، التي عرفها الناس طوال التاريخ.

دولتان للإسلام:

ومن ثمرات هذه الصحوة ودلائلها الحية: قيام ثورتين إسلاميتين، أقامت كل منها دولة للإسلام، تتبناه منهجا ورسالة، في شئون الحياة كلها: عقائد وعبادات، وأخلاقا وآدابا، وتشريعا ومعاملات، وفكرا وثقافة، في حياة الفرد، وحياة الأسرة، وحياة المجتمع، وعلاقات الأمة بالأمم.

أما الثورة الأولى، فهي الثورة الإسلامية في إيران، التي قادها الإمام آية الله الخميني

سنة ١٩٧٩م، وأنهت حكم الشاه الذي بلغ في الفساد ما بلغ، والذي كان يعتبر شرطي الغرب وحضارته في الشرق الأوسط، والذي كانت له علاقة وطيدة بإسرائيل.

وأقام الخميني دولة للإسلام في إيران على المذهب الجعفري، وكان لها إيحاؤها وتأثيرها على الصحوة الإسلامية في العالم، وانبعاث الأمل فيها بالنصر، الذي كان الكثيرون يعتبرونه من المستحيلات.

والثورة الثانية: هي ثورة الإنقاذ الإسلامية في السودان، سنة ١٩٨٩م أي بعد ثورة إيران بعشر سنوات، وقد أنهت حالة الاضطراب والفوضى التي أصابت السودان بعد حكم الأحزاب، والتي كان يمكن أن يثب على الحكم فيها بعثيون أو شيوعيون، فانتهزها الإسلاميون فرصة، وقاموا بهذه الثورة البيضاء، التي لم ترق فيها قطرة دم واحدة، وقد أخفت الثورة وجهها الإسلامي في أول الأمر، حتى لا تقف في طريقها كل القوى المحاربة للإسلام، في الداخل والخارج، واعتقلت الشيخ حسن الترابي مع الزعماء الآخرين، وهو الرأس المدبر للثورة، وكان هذا من الحكمة التي يفرضها الواقع، ويجيزها الشرع، فالحرب خدعة.

وقد تجلت هذه الحكمة حين بدأ ينكشف القناع عن وجه الثورة الحقيقي، فإذا الذين أخذوها بالأحضان تنكروا لها، وإذا المؤامرات تكاد لها، والحصار يضرب عليها، من العرب من حولهم، ومن الغرب عامة، والأمريكان خاصة، ولكن الله تعالى حفظ هذه الثورة التي دفعت الناس إلى العمل والإنتاج، ليأكلوا مما يزرعون، ويلبسوا مما يصنعون، ويعتمدوا بعد الله على أنفسهم.

أقامت ثورة الإنقاذ في السودان دولة للإسلام على المذهب السني، وعلى الفقه المنفتح للاجتهاد والتجديد، والذي يراعي ظروف الزمان والمكان والإنسان، وأخذ الدين دوره في توجيه الحياة، وصبغها بصبغته الربانية ﴿**صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة**﴾ [البقرة: ١٣٨]. وظهر ذلك في التربية والتعليم، وفي الثقافة والإعلام، وفي التشريع والدستور، وفي الدفاع والجهاد، كما في جيش الدفاع الشعبي، وغيره من مؤسسات الدولة.

إحياء الجهاد في سبيل الله :

ومن هذه الثمار: الاستجابة لدعوات الجهاد في سبيل الله والمقاومة للغزاة الطغاة لأرض الإسلام، كما رأينا ذلك في (الجهاد الأفغاني) المجيد، الذي وقف يقاتل أعتى قوة إلحادية في الأرض ـ قوة الاتحاد السوفيتي الشيوعي ـ بل في التاريخ، بإمكاناته المحدودة، وأسلحته الضئيلة، قبل أن تفكر الولايات المتحدة في نصرة هذا الجهاد، ومحاولة استغلاله لصالحها. ولكن المؤكد أن الأفغانيين كانوا يقاتلون من أجل أفغانستان، وإسلام أفغانستان، وكرامة أفغانستان، لا من أجل الأمريكان، وأطماع الأمريكان، والمسلمون الذين انضموا إليهم من أنحاء العالم وجدوها فرصة ليحصلوا إحدى الحسنيين: إما النصر على الملاحدة الكفار الغزاة، وإما الشهادة والجنة.

وقد حقق الإخوة المجاهدون الأفغان النصر المبين على أعدائهم الروس، وكانوا من أبرز الأسباب في إضعاف الاتحاد السوفيتي، ثم انهياره من قريب.

ومثل ذلك: قيام (الانتفاضة الفلسطينية) وثورة (أطفال الحجارة) التي سميت في أول أمرها (ثورة المساجد) التي انطلقت أول ما انطلقت من مساجد غزة، وجعلت راياتها المصاحف، وشعارها (الله أكبر) ونشيدها: خيبر خيبر، يا يهود، جيش محمد سوف يعود!

ثم قيام حركة المقاومة الإسلامية (حماس) وحركة (الجهاد الإسلامي) في فلسطين، وقيام كل منهما بالأعمال البطولية والاستشهادية، في القدس وفي تل أيب، وفي غيرهما، تلك التي أرعبت أعداء الله المغتصبين، وأقضت مضاجعهم في إسرائيل، فسعوا هنا وهناك لعقد المؤتمرات لمحاربة ما سموه (الإرهاب) وإسرائيل هي (الإرهابي الأكبر) الذي أقام دولته على سفك الدم، والمجازر البشرية التي روعت الآمنين، وأجبرت السكان المدنيين على الخروج من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله.

ومثل ذلك: ما يقوم به جنود (حزب الله) البواسل في جنوب لبنان من عمليات فدائية، زلزلت قلوب الإسرائيليين، وحيرتهم ماذا يفعلون، فلم يجدوا إلا ضرب المدنيين العزل في (قانا) وفي غيرها. كما ضربوا محطات الكهرباء والبنية التحتية أخيرا في بيروت(١).

(١) وقد أثمرت هذه المقاومة أخيرا: انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان، وهو درس ثمين لليائسين والمثبطين في فلسطين.

وكل ذلك يدلنا على أن الإيمان هـو مصدر قوتنا، وأن الاعتصام بـالإسلام هو الملاذ الأمين، والحصن الحصين، الذي لا يخشى على أمتنا أبدا إذا لاذت به وأوت إليه ﴿ومن **يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط المستقيم**﴾ [آل عمران : ١٠١] .

وآخر أنباء الجهاد، ومعاركه، التي فجرتها الصحـوة الإسلامية في هذا القرن: معركة الجهاد في (جمهـورية الشيشان) إحـدى جمهوريات روسيـا، التي أرادت الاستقلال عن الـروس، فهي تـراهم غـربـاء عنهـا، كما هي غـريبـة عنهم، فهي ليست من الـوطن الروسي، وشعبها ليس من الجنس السلافي، ولغتها الأصلية ليست هي الروسية، ودينها ليس هو المسيحيـة الأرثوذكسيـة، وقد قاتلت من أجل هـذا الاستقلال منـذ نحو أربع سنوات ودخلت مع روسيا في حـرب شرسة ضروس، أصاب الشيشان فيهـا ما أصابهم من قرح في رجالهم، ومن دمار لبلادهم، ولكنهم في النهاية قهروا الروس، وردوهم عن دارهم مدحورين، لم ينالوا خيرا، ولم يحققوا هدفا .

ثم هاهم اليوم يعيدون الكرّة من جديـد، يردون الحرب جذعة مرة أخرى، ويجندون نحو مائة ألف جندي روسي، مجهزين بأحـدث الآلات الجهنمية وأقواها، وأقدرها على التدمير والإبـادة، ولكن الشيشـانيين الأشاوس، لم يستسلمـوا، وثبتوا ثبـات الجبال، وقاوموا مقاومة الأبطال، وما وهنوا لما أصـابهم في سبيل الله، وما ضعفوا وما استكانوا، وقد كبدوا القوات الـروسية المسلحة الغازية، خسائر فـادحة في الأرواح والمعدات، ولا تزال المعـركة مستمـرة، على أشدها، وأنـا أكتب هذه السطور في الـرابع والعشرين من شهر يناير ٢٠٠٠م .

رجعة الشباب إلى الدين :

ومن أحلى ثمرات الصحوة وأجلاها : رجعة الشبـاب إلى الدين، بعد أن كاد يذوب ويضيع في بعض مراحل هذا القـرن، حين بهرته الحضارة الوافـدة، وغره السراب الذي ظنه ماء، فطفق يقلد أبناء هذه الحضـارة تقليد القردة، ويأخذ عنهـم أخذا أعمى، بلا تمييـز ولا انتقـاء . حتى وجـدنا من الشبـاب من يلبس لبسـة النسـاء، ومن يتشبـه في حركاتـه ومشيته بالنساء، متجـاهلا أن رسول الله عليـه الصلاة والسلام لعن المتشبهين من الرجال بالنســاء، كما لعن المتشبهات من النساء بالرجال . وكتـب الشاعر المعروف محمود غنيم قصيدته التي يرثي فيها حال الشباب الجديد، وقال فيها :

شبـاب العرب يـا زين الشباب ... ويـا أشبـال آساد غضـــــاب
أرى منكم فـريقـا حين يمشي ... يحك بأنفـه منن السحــــاب
كليث الغـاب في صلف وكبر ... وليس لـدى الكريهة ليث غـاب
تفنن فـي محاكـاة العــذارى ... وخـالفهن في لبـس النقــاب
ولا يخشى على شيء، ويخشى ... إذا ثــار الغبــار على الثيـــاب

وسخر الـرافعي الأديب من هذا الشباب فقـال عنه : إنه إذا سخر من العـدو بنكتة فكأنما هزمه في معركة!

هذه هي صـورة شباب الأمة في تلك المرحلـة، مرحلة الانبهـار بالحضارة الغـازية : بأفكارها وتقاليدها وسلوكياتها .

وليته أخذ من الحضارة خير ما فيها : العلم والتكنولوجيا، وحسن الإدارة والتنظيم، والعمل الدءوب لكسب العيش، وخدمة المجتمع . بل أخذ منها شر ما فيها : التحلل الأخلاقي، والانحراف السلوكي، والإباحية الجنسية .

هجـر هـؤلاء الشبـاب المسـاجـد، وعمـروا الملاهي والسينمات، وتخلـوا عن أفضل أخـلاقياتنـا الموروثة، التـي أمر بها الـدين، والتزم بها المجتمع : بـر الـوالدين، وصلـة الأرحام، وإكرام الجيران، وتوقير الكبار، ورحمة الصغار، ومساعدة الضعفاء، ومعاونة الفقراء، وإغـاثة الملهوفين، وتفـريج كربـة المكروبين . . تركـوا هذه الفضائل وعـاشوا لأنفسهم، أعنى للذاتهم، لا لربهم، ولا لوطنهم، ولا لأمتهم، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات .

لقـد رأيت في صباي الـذين يعمرون المسـاجد، ويحافظـون على الصلوات، فكـان أكثرهم من الكهول والشيوخ، وأقل القليل من الشباب .

واليـوم ـ في عصر الصحـوة الإسلاميـة ـ أرى الأمـر بالعكس تمامـا، فالشبـاب هم العمـود الفقـري للصحـوة، هم الـذين يعمرون المسـاجـد، ويمـــلأون مـواسم الحج والعمرة، وهم الـذين يقـرأون الكتاب الإسـلامي، والمجلات الإسلاميـة، وهم الذين يتجاوبون مع صيحـات الجهاد الإسلامي، في كل أرض إسلاميـة، فينطـلق كل منهم كالشـهاب الثـاقب، واضعا رأسه على كفه، في سبيل اللـه، لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه .

ولا سيما الشباب المتعلم، شباب الثانويات والمعاهد والجامعات، فهم الذين يكتسحون في الانتخابات الجامعية، ويحصلون بسهولة على الأغلبية، ويكونون اتحادات الطلاب، رغم ما كان يوضع في سبيلهم من عقبات، وما يحاك لهم من مكايدات، ما دامت الانتخابات تجرى بحرية ونزاهة.

وهم الذين يكتسحون أندية هيئات التدريس في الجامعات.

وهم الذين ينالون الأغلبية الساحقة، وأحيانا كل الأصوات، أي يحصلون على الإجماع من جماهير النقابات المهنية، كنقابات الأطباء والمهندسين والصيادلة والمحامين وغيرهم.

ولا غرو، فالشباب دائما هم عصب الدعوات، وحملة الرسالات، وكما قال الإمام حسن البنا[1]: إنما تنجح الفكرة إذا قوى الإيمان بها، وتوفر الإخلاص في سبيلها، وازدادت الحماسة لها، ووجد الاستعداد الذي يحمل على التضحية والعمل لتحقيقها. وتكاد تكون هذه الأركان الأربعة: الإيمان، والإخلاص، والحماسة، والعمل، من خصائص الشباب؛ لأن أساس الإيمان القلب الذكي، وأساس الإخلاص الفؤاد النقي، وأساس الحماسة الشعور القوي، وأساس العمل العزم الفتي، وهذه كلها لا تكون إلا للشباب، ومن هنا كان الشباب قديما وحديثا، في كل أمة عماد نهضتها، وفي كل نهضة سِرّ قوتها، وفي كل فكرة حامل رايتها ﴿**إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى**﴾ [الكهف: ١٣].

عودة المرأة المسلمة إلى الحجاب:

ومن المكاسب التي تحققت خلال الربع الأخير من هذا القرن، وتعتبر من ثمار الصحوة الإسلامية: عودة المرأة المسلمة في أكثر البلاد الإسلامية إلى (الحجاب) طواعية واختيارا، دون أن يفرض ذلك عليها من أب أو زوج أو سلطان.

بل كثيرا ما كان الأب يمانع، والزوج يعارض، والسلطان ينكر، ولكن أبت الفتاة

---

(١) في رسالته (إلى الشباب).

المسلمة إلا أن تطيع ربها، وتعمل بواجب دينها، غير مبالية برفض الرافضين، وإنكار المنكرين، فهذه حركة إسلامية نسائية طوعية بلا نزاع.

ولا زلت أذكر أني كنت فترة من الزمن أمر في بعض العواصم العربية، فلا أكاد أجد امرأة تلبس الحجاب، وإن كانت عجوزا شمطاء، فقد هزم المسلمون أمام الحضارة الغربية في عدة ميادين، منها ميدان الإعلام، وميدان الاقتصاد، وميدان المرأة.

والحمد لله رأينا الإسلام يستعيد رايته التي سقطت في الميدانين الأخيرين: المرأة والاقتصاد إلى حد بعيد، ولكنه لم يستعد موقعه بالنسبة إلى ميدان الإعلام إلى اليوم، وإن كسب شيئا قليلا، لا يكوّن توجها أساسيا، ولا ثقلا ثقافيا إلى اليوم.

منذ عهد قاسم أمين وهدى شعراوي في مصر، والمرأة تبتعد عن الإسلام فكرا وسلوكا، وتقترب من الحضارة الغربية نظريا وعمليا، حتى ارتمت في أحضانها نهائيا، وسارت وراء أفكارها وتقاليدها، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، وفي وقت من الأوقات اندفعت نساء بعض الأقطار الإسلامية وراء الغرب أكثر من النساء الغربيات أنفسهن، وانسلخن من جلدتهن، وخلعن جلباب الحياء الموروث، والمستقى من الدين والأعراف.

وقد ساعد على هذا الغلو في التحلل من قيم الدين والتقاليد: غلو بعض من يمثلون الدين في التضييق على المرأة، واعتبارها حبيسة البيت، ومنعها من التعلم ومن العمل، ومن الخروج من البيت لحاجاتها، وإجبارها على الزواج بمن يريد الأب وإن لم ترده. فكان رد الفعل هو التحرر من هذا كله، والسير وراء دعاة التفرنج والتحرر، بلا ضابط ولا رابط.

ولما برز تيار الصحوة الإسلامية المعاصرة، وقد كان تيار الوسطية الإسلامية هو الأعلى صوتا في الصحوة، والأقوى نفوذا، والأرسخ قدما، والأوسع قاعدة، تجاوب معه شباب الإسلام من الجنسين، فكرا وحماسا والتزاما وتطبيقا لأحكام الإسلام. فكان الالتزام بالحجاب هو التعبير العملي عن هذا الالتزام، الذي تتميز به المسلمة الملتزمة عن غير الملتزمة.

وانتشر هذا الحجاب انتشارا هائلا في وسط المدارس والمعاهد والجامعات، وأصبح

بعضهن يقلد بعضا، ويتنافسن في الخيرات، حتى غدا هو الزي الغالب في بعض البلاد، بعد أن كان نادرا، أو شاذا أو معدوما.

بروز الاقتصاد الإسلامي فكرا وتطبيقا:

ومن ثمار الصحوة الإسلامية، التي لا يخطئها الدارس لمسيرة الأمة في هذا القرن: بروز ظاهرة (الاقتصاد الإسلامي) نظريا وتطبيقيا.

لقد كان هذا الاقتصاد غائبا من الناحية النظرية عن الكاتبين في الفكر الاقتصادي، وفي التاريخ الاقتصادي، وقد لمست هذا بنفسي عندما كنت أبحث في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات حول الزكاة، وكنت أقرأ في كتب الاقتصاد السياسي، وقد كانوا يتحدثون عن الاقتصاد عند الرومان قديما، وعند اليونان، وعند الفرس والهنود، وغيرهم، ولكنهم لا يذكرون ما كان عند العرب والمسلمين، الذين سادت حضارتهم نحو عشرة قرون، وكان لهم نظرياتهم وأحكامهم التي تنظم شؤون المال والاقتصاد، وكان لهم مراجعهم ومؤسساتهم.

ثم لم تمض مدة طويلة، حتى بدأت دورة جديدة ظهر فيها الاقتصاد الإسلامي بقوة، على المستوى النظري وعلى المستوى العملي.

في منتصف السبعينيات (١٩٧٦م) عقد المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي في مكة المكرمة، وشارك فيه نحو ثلاثمائة من رجال الاقتصاد ورجال المحاسبة والإدارة من جانب، ورجال الشريعة والفقه الإسلامي من جانب آخر.

وقد شاركت في هذا المؤتمر، وكان مما شهدته ولمسته: أن كثيرا من رجال الاقتصاد كانوا أشد حماسا للأفكار الإسلامية من كثير من رجال الشريعة.

وقد أسر إليّ الكاتب الإسلامي المعروف الأستاذ فهمي هويدي بملاحظة مهمة، وهو أنه شهد منذ نحو عدة سنوات مؤتمرا في ماليزيا انقسم فيه المشاركون إلى فريقين، فريق يحرم الفائدة تحريما باتا، وآخر يحاول تبريرها بوجه وآخر. وأما هذا المؤتمر فقد كان كله فريقا واحدا، مجمعا على تحريم الفوائد، واعتبارها هي الربا المحظور شرعا.

وكان مما قدم في هذا المؤتمر: قائمة ببلوجرافية أعدها الأستاذ الدكتور محمد نجاة الله

الصديقي أستاذ الاقتصاد في كلية التجارة بجامعة الملك عبد العزيز، تتضمن القائمة الكتب والبحوث التي كتبت بالعربية والأوردية والإنجليزية، فكانت عدة مئات.

وهذه القائمة قد تضاعفت بعد ذلك ولا شك، وقد أضيف إليها كتب وبحوث جمة، ليس من السهل حصرها، منها رسائل وأطروحات علمية (أكاديمية) للماجستير والدكتوراه في كليات الشريعة والاقتصاد والتجارة والحقوق وغيرها، في عدد من البلاد العربية والإسلامية.

كما أنشئت أقسام علمية للاقتصاد الإسلامي في عدد من الجامعات.

وأسست كذلك مراكز لأبحاث الاقتصاد الإسلامي، أشهرها (مركز أبحاث الاقتصاد الإسلامي) بجامعة الملك عبد العزيز بجده، وفيه عدد من الباحثين الأكفاء، مثل الأساتذة: محمد عمر زبير، وأنس الزرقا، ورفيق المصري و إخوانهم.

وكذلك (معهد البحوث و التدريب) في البنك الإسلامي للتنمية، وهو بنك الأمة الإسلامية الذي يقوم بدور مهم في تمويل مشروعات ضرورية ونافعة في كثير من البلدان والأقليات الإسلامية.

وصدرت أكثر من مجلة تتحدث عن الاقتصاد الإسلامي، منها مجلة (الاقتصاد الإسلامي) التي تصدر عن بنك دبي الإسلامي، ومجلة (النور) التي يصدرها بيت التمويل الكويتي.

وعلى المستوى العلمي والتطبيقي، ظهر أول بنك إسلامي تجاري في دبي من دولة الإمارات العربية المتحدة أوائل السبعينيات من القرن العشرين، ثم قامت بنوك إسلامية أخرى، مثل بنك فيصل الإسلامي المصري، وبنك فيصل الإسلامي السوداني، وبيت التمويل الكويتي، والبنك الإسلامي الأردني، ثم مصرف قطر الإسلامي، وبنك البحرين الإسلامي، وبنوك البركة الإسلامية، ومصرف فيصل الإسلامي بالبحرين، ثم توالى إنشاء البنوك الإسلامية في بلاد شتى عربية و إسلامية، مثل البنك الإسلامي في ماليزيا، وشركة الراجحي للاستثمار في المملكة السعودية، ومصرف أبوظبي الإسلامي، وقد تزايد عدد البنوك الإسلامية حتى وصل إلى أكثر من مائة مصرف.

وقد قامت مؤسسة مهمة للإشراف على البنوك الإسلامية، هي الهيئة العامة للمحاسبة المالية للمصارف والمؤسسات المالية الإسلامية، وكان اسمها قبل ذلك (مجلس المعايير) وهي هيئة تعمل على إصدار معايير تحتكم إليها المصارف الإسلامية، وقد صدرت منها عدة معايير ذات أهمية بالغة، مثل معيار الإفصاح، ومعيار المرابحة.

وقد أنشأت هيئة المحاسبة مجلسا شرعيا، يعتبر بمثابة هيئة عليا للفتوى والرقابة الشرعية للمصارف الإسلامية.

وأنا أذكر هنا كيف مر الفكر الإسلامي في قضية (الربا) باعتبارها حجر الزاوية في المجال الاقتصادي، ففي وقت من الأوقات كان هناك من يريد أن نقبل الربا، كما نقبل الخمر والمسكرات، بل الزنى نفسه، وأن المدنية الحديثة تفرض علينا أن نأخذها بخيرها وشرها، وما يحمد منها وما يعاب، وحتى قال بعضهم: لماذا نغلق أبواب البغاء؟ ولماذا لا نفتحه لمن يريده تحت إشراف الدولة؟ يريد أن تعمل الدولة قوادة للزناة والفاجرين!

ثم ارتقى الفكر إلى مرحلة أفضل من هذه، ولم تكن هي المرحلة المقبولة، وهو أنه أراد أن يفرق بين أنواع الربا بعضه وبعض، وأن الربا المحرم إنما هو ربا الاستهلاك لا ربا الإنتاج والتجارة، وأن الربا الحالي ليس هو ربا الجاهلية الذي جاء القرآن بتحريمه.

ومنهم من قال: الربا المحرم هو ما كان أضعافا مضاعفة. وليس ١٠٪ ونحوها.

ومنهم من زعم أن الربا حرام، ولكننا في حالة ضرورة، وهي ضرورة عامة للمسلمين جميعا، والضرورات تبيح المحظورات.

وكلها محاولات (تبريرية) لتحليل الحرام، وإباحة المحظور، الذي آذن القرآن مرتكبيه بحرب من الله ورسوله، والذي لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكله ومؤكله وكاتبه وشاهديه.

ثم جاءت مرحلة أقوى من هذه المرحلة، وهي الرد القوي على المدرسة التبريرية، وتفنيد شبهاتها، وإعلان حرمة الربا بصراحة، وبيان أن على المسلمين أن يتحرروا من رجس الربا، ومن لعنة الله لمقترفيه، وذلك بأن يقيموا (بنوكا بلا فائدة) وأن هذا ممكن إذا تعاون المخلصون من علماء الاقتصاد وعلماء الشرع وأصحاب رءوس الأموال.

ثم كانت المرحلة الأهم، وهي مرحلة إيجاد (البديل الشرعي) فنشأ أول بنك إسلامي في دبي، تبعته بنوك وبنوك في آسيا، وأفريقيا، وفي أمريكا وأوربا.

ونحن الآن في مرحلـة (تحسين البدائل) وتطويـرها إلى ما هـو أفضل، ومن سار على الدرب وصل، ولكل مجتهد نصيب.

بل أقول: إن هناك في داخل حركة (المصارف الإسـلامية) اتجاهات ودراسات ناقدة تحاول أن ترتقي بهذه المصارف نـوعا وكيفا، بعد أن قويت وتكـاثرت عددا وكمّا. وذلك بالخروج من دائرة النظام الرأسمالي القائم، والـذي يتحكم في اقتصاد العالم، والذي لا تزال البنوك الإسلامية تعمل في إطـاره، بمعنى أنها تحاول أن توجد لكل عملية تجري في البنوك الـربويـة، بديـلا شرعيا لها، عن طـريق مخارج فقهية، بتغيير بعـض الصور أو وضع بعض الشروط أو القيـود، أو نحو ذلك مما قد يغيّر الشكل نـوعًا مـا، و إن بقي الجوهر كما هو.

وأبرز مثل لذلك هـو (بيع المرابحة للآمر بالشراء) الذي تجريـه المصارف الإسلامية، وهو بـديل شرعي للتمويل الربوي الصريـح، وهو لا شك مباح، وقد ألفت كتـابا في الـدفـاع عن شرعيتـه، ولكني مع هـذا حـذرت البنـوك الإسـلاميـة أن تظل (سجينـة المرابحة)، فإنها في هـذه الحالة تعيش في كنف الاقتصـاد الرأسمالي، ولا تقدم نمـوذجا آخر متميزا في جوهره ومضمونه.

وأذكر هنـا ما قالـه صديقنا العـالم الجليل الشيخ صالح الحصين نـائب رئيس الهيئة الشرعيـة لشركة الـراجحي للصرافـة والاستثمار، حين علق على استغراق بعض البنـوك الإسلاميـة في عملية المرابحـة، حتى إن بعضها لتبلغ فيـه ٩٠٪ أو أكثر من معـاملات البنك، قال: إن كان هذا هو أكبر هم البنوك الإسـلامية ومحور عملها، وغاية سعيها، فما أجدرنا أن نتمثل بقول الشاعر:

إن كان منـزلتي في الحب عندكمو   مـا قد لقيت فقـد ضيعت أيامي!

وأذكـر هنـا أن أحـد البنـوك الإسـلامية، وهـو (بنـك التقـوى) لم يدخــل في بيع المرابحــة قط، كما لم يـدخل سـوق السلع والمعادن الـدولية، لما يحيط بها من شبهـات الشكلية والصورية.

فإذا أضيف إلى مـا تقدم أن كثيرا من المصـارف الإسلاميـة لا يطبق كل الشروط التي تفرضها وتلزم بها هيئات الرقابة الشرعية في بيع المرابحة ازداد الطين بلة.

وآفة المصـارف الإسلاميـة أنها ابتليت منذ إنشـائها و إلى اليـوم بقيادات جـاءتها من البنـوك الربـوية، ولا تملك خلفيـة ثقافيـة إسـلامية، ولا حتى إيمانـا برسـالة الإسـلام الاقتصادية، وملئوا المصارف بأتباع لهم على شاكلتهم، فهم يخربون المصارف الإسلامية من داخلها للأسف، بسوء فهمهم، وسوء تطبيقهم، وربما بسوء نيتهم.

والواجب على المصارف الإسلامية أن تعمل بـالتضامن فيما بينها على تطوير نفسها، والدخـول في مجال التنمية والاستثمار والتجـارة المباشرة، والتعامـل مع الأسواق، لا مع الأوراق، وأن يقوم ذلك كله على دراسات علميـة موضوعية، وعلى تخطيط واع سليم، ثم يكـون العـزم والتـوكل على اللـه تعـالى ﴿**ومن يتـوكل على اللـه فهـو حسبـه**﴾ [الطلاق: ٣].

وعلى المصارف الإسلامية واجب آخر، وهو العناية بالعنصر البشرى فيها، ابتداء من حسن الاختيار وفق معـايير إسلامية وعلمية، وهو اختيـار (القوي الأمين) أو (الحفيظ العليم) الـذي يجمع بين الجانب المتعلق بـالكفـايـة والخبرة، والجانب المتعلق بـالـدين والأخلاق وخشية الله تعالى.

ثم على المصـارف الإسـلاميـة أن تـوالي هؤلاء الموظفين بحسن الـرعـايـة والتـدريب والتـذكير، حتى يظلـوا شاعـرين بأنهم يقـومـون على ثغرة مـن ثغرات الإسـلام، وأنهم يتعبدون لله تعالى بعملهم، ويجاهدون في ميدان خطير هو ميدان الاقتصاد.

ولا صلاح للمصارف الإسلامية ما لم تصلح قيادتها وموظفوها.

إخفاقات الأمة
خلال القرن العشرين

- ☐ ضياع الخلافة الناظمة لعقد الأمة
- ☐ هزيمتنا أمام المشروع الصهيوني
- ☐ إخفاقنا في مسيرة التقدم والتنمية
- ☐ إخفاقنا في التحرر من التبعية للغرب
- ☐ إخفاقنا في مجال الشورى والحريات
- ☐ إخفاقنا في توحيد الأمة
- ☐ إخفاقنا في تحقيق العدالة الاجتماعية
- ☐ إخفاقنا في مجال قضايا المرأة
- ☐ إخفاقنا في التربية الإيمانية والأخلاقية للأمة

إخفاقات الأمة خلال القرن

الناظر في إنجازات أمتنا الكبرى خلال القرن العشرين، يجدها محدودة نسبيًّا، على خلاف ما يتوقع من أمة في حجمها ووزنها وتاريخها وإمكاناتها المادية والروحية والحضارية.

أما إخفاقات الأمة، فهي كثيرة جدًّا من ناحية الكم، وقوية من ناحية الكيف أيضًا، بحيث لو قورنت بالإنجازات لتجلى ذلك واضحا للعيان.

ولا ريب أن لذلك أسبابًا داخلية وخارجية، وإن كان أنصار (التفسير التآمري) للتاريخ وللأحداث يركزون دائمًا على الأسباب الخارجية. وأنا لا أنكرها تمامًا، فنحن نراها أحيانًا رأي العين، ولكني أركز على الأسباب الداخلية، فهي الأساس، وهي التي مهدت السبيل للأسباب الخارجية، فلو كان لدى الأمة مناعة آتية من إيمانها ووعيها وضميرها، ما استطاع العدو الخارجي أن يخترق أسوارها، وأن يتسلل إلى قلبها، وأن يحرف مسيرتها.

والقرآن الكريم يدعونا ـ عند وقوع الهزائم والمآسي ـ إلى النظر في داخلنا أولاً، كما قال تعالى بعد (غزوة أحد)، وما وقع فيها من انكسار للمسلمين، فقدوا فيه سبعين من خيرة رجالهم، بعد انتصارهم في (غزوة بدر) وقتلهم لسبعين من أئمة الكفر، و رءوس الضلال، وأسرهم لسبعين آخرين فقال: ﴿**أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها، قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم**﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وعلى أية حال أيا كانت الأسباب، داخلية أم خارجية، يجب أن نعترف بإخفاقاتنا، وهي بلا شك أكثر من نجاحاتنا، فلنذكرها هنا أو ـ على الأقل ـ أبرزها والمتفق عليه منها.

ضياع الخلافة

١ - أول هذه الإخفاقات الكبرى، هو (ضياع الخلافة) تلك القلعة التاريخية التي استظل بها المسلمون أكثر من ثلاثة عشر قرنًا، ثم فرطوا فيها، واستسلموا لمن خططوا لهدمها حتى هدمت بالفعل.

والغريب أن يتم هدمها على يد رجل كان المسلمون يتخيلون أنه يعمل لنصرة الإسلام، وهو أتاتورك، الذي كان المسلمون يسمونه (الغازي مصطفى كمال) وكانوا يتابعون معاركه بنبضات قلوبهم، ودفقات مشاعرهم، ويهللون ويكبرون كلما انتصر في موقعة، حتى أنشأ شوقي رحمه الله قصيدة خاطبه فيها بقوله:

الله أكبر، كم في الفتح من عجب   يا خالد الترك جدد خالد العرب!

ثم ما لبثوا أن فوجئوا بما لم يكن في حسبانهم، وإذا بالرجل الذي أكنوا له الحب، وأخلصوا في الدعاء له أن ينصره الله، وينصر به الإسلام، يتنكر للإسلام في صراحة، ويعلن العداوة له جهرة، ويلغي الخلافة علانية، إلغاء صدم الأمة كلها في مشاعرها وعقائدها، وصميم دينها، في الوقت الذي كانوا يتوقعون منه أن يوطد أركان الخلافة، ويثبت دعائمها المادية والأدبية، فإذا هو يأتي عليها من القواعد. وقد عبر شوقي عن هذه الصدمة أو الكارثة بحائيته الرائعة فقال:

عادت أغاني العرس رجع نواح   ونعيتِ بين معالم الأفراح
كُفّنتِ في يوم الزفاف بثوبه   ودُفنتِ عند تبلج الإصباح

وقد كانت لهذه الكارثة آثار غائرة في نفوس المسلمين في المشارق والمغارب، وارتفعت

صيحات وعقدت مؤتمرات، لنقل الخلافة إلى بلد آخر، حتى لا يبقى المسلمون بلا خليفة ولا إمام، يبايعونه، يقود أمتهم، ويجسد وحدتهم، فيموتوا ميتة الجاهلية، كما جاء في الحديث الصحيح، ولكن المؤامرة كانت أكبر منهم، والجرح كان من العمق والغور بحيث لا تداويه صيحات ولا مؤتمرات.

لقد كان المصلحون والمجددون الإسلاميون المعنيون بأمر الأمة، ونهضتها، وعلاج الخلل فيها، يعملون على إصلاح الخلافة من داخلها، والإبقاء عليها ممثلة لوحدة أمة الإسلام.

وكان من هؤلاء العلامة محمد رشيد رضا وعدد من كبار الدعاة.

ولكن جماعة (الاتحاد والترقي) في تركيا وهم قوميون طورانيون علمانيون تغريبيون متعصبون، كانوا قد عقدوا العزم على أن يسيروا في طريقهم إلى النهاية، وكانوا قد أساءوا العلاقة مع العرب، وأوقعوا عليهم ظلما مبينا، كما فعل جمال باشا في الشام.

وكان يهود (الدونما) قد تغلغلوا فيهم، وأثروا تأثيرا بليغا في مسيرتهم، وكادوا لقلب الخلافة كيدا عظيما.

ومما زاد النار اشتعالا: انضمام العرب إلى الإنجليز في الحرب العالمية الأولى ليحاربوا معهم الأتراك، في مقابل وعود لم يوفوا بها.

وليس صحيحا ما يقوله كثير من القوميين العرب: إن الأتراك كانوا محتلّين مستعمرين، ويعبر بعضهم عن فترة الخلافة بفترة (الاستعمار التركي)فهذا في الواقع تزييف للتاريخ، وافتئات على أمتهم التي لم تكن تنظر إلى الأمر يوما هذه النظرة، ولم تر نفسها إلا أنها جزء من (دار الإسلام)وقد وصل بعض العرب يوما إلى منصب الصدر الأعظم.

فقد كان الأتراك حكاما مسلمين، حموا بيضة الإسلام لعدة قرون، ونشروه في عدد من الأقطار وطرقوا أبواب فينّا أكثر من مرة. كان هذا بعد سقوط دولة الإسلام والعرب في الأندلس. فكان ظهور الأتراك (قوة غالبة) في ذلك الوقت، تغزو أوربا من الشرق، تعويضا عن انسحاب الإسلام من جنوب أوربا. وقد أدرك الغرب في فترة نهوضه ومده الاستعماري، خطر هذه الدولة الإسلامية الكبرى، فاتفقوا ــ رغم

اختلافهم ــ على إضعافهـا والكيد لها ، ومازالـوا يتربصون بها الـدوائر، حتى وهنت بعد قوة ، وسقمت بعـد صحة ، وشاخت بعـد شباب ، وسمـوها (الرجل المريض) وكـانوا يـرتقبون أن يمـوت هذا المريض حتى يقتسمـوا تـركته ، وقـد فعلوا بعـد الحرب العالميـة الثانية ، بل في أثنائها ، بل قبلها .

وكان للصهيونية العـالمية دورهـا في تهـديم هذه القلعـة التي كـانت ـ على ما بها من مـآخـذ ونقاط ضـعف ــ تمثل آخـر تجمع للمسلمين تحـت رايـة التوحيـد والعقيـدة الإسلامية .

ومنذ سقطت هـذه القلعة ، تـوزع المسلمون وانقسمـوا تحت رايات جـديدة شتى ، قوميـة ووطنية ، وقامت دول قُطـرية صغيرة ، بعضها لا يكـاد يرى على خريطـة العالم ، وكثيرا ما أداهم ضعف كيانهم إلى الاستعانة بأعداء دينهم ، وخصوم أمتهم .

لقـد كان سقـوط الخلافة من الكـوارث التـاريخية ، التي لم تبتل الأمـة بمثلها طـوال تاريخها ، على ما فيه من مصائب ومآس .

هزيمتنا أمام المشروع الصهيوني

٢ـ وثاني الإخفاقات ـ وهي ثمرة للإخفاق الأول ـ هزيمة الأمة أمام الصهيونية، التي استطاعت ـ بفضل تفككنا ووهننا ـ أن تحقق حلمها الكبير بإقامة دولة بني صهيون في قلب ديارنا. وقامت (إسرائيل) التي ظللنا عدة سنوات نقول عنها في صحفنا وإذاعاتنا(إسرائيل المزعومة) . ثم استحيينا من أنفسنا بعد مدة غير طويلة، حيث أصبحت هذه الدويلة الوليدة (المزعومة) تتحدانا على كل الجهات، فتصفع وتركل، ولا نملك نحن إلا الشجب والشكوى إلى مجلس الأمن، فلا غرو أن حذفنا كلمة (المزعومة) بعد أن أوشكنا أن نكون نحن المزعومين!

وعرض علينا تقسيم فلسطين في أول الأمر بيننا وبين اليهود فرفضنا، ثم تمنينا بعد ذلك لو كنا قبلنا.

كنا في أول الأمر نقول: إسرائيل كيان عدواني دخيل، اغتصب أرضًا ليست له، واحتل وطنا ليس له فيه حق، ولابد لهذا المغتصب أن يرحل، ولابد لهذا العدوان أن يزول. ثم لم نلبث تحت ضربات (إسرائيل) وخصوصًا ضربة ٥/ ٦/ ١٩٦٧ وهزائمنا المتتالية: أن غيرنا سياستنا، وغيرنا هدفنا، ورضينا بإسرائيل دولة، وغدا الهدف المعلن لنا هو إزالة آثار العدوان. يعنون عدوان ١٩٦٧، أي أن عدوان ١٩٦٧ أضفى الشرعية على عدوان ١٩٤٨. وهو العدوان الذي مكن دولة الاغتصاب من احتلال سيناء والجولان والضفة الغربية وغزة والقدس، وأمسى المسجد الأقصى في قبضة إسرائيل.

ما الذي مكن لإسرائيل كل هذا التمكين؟ وهيأ لأبناء صهيون هذه الانتصارات

الكبيرة على أمة العـرب ، وهـم اليوم قريب من ثلث مليار من النفـوس ، ووراءهـم أكثر من مليار من مسلمي العالم؟

سر ذلك واضح للعيان : أنهم دخلـوا المعركة (يهودا)ولم نـدخلها نحن (مسلمين) . استنـدوا إلى التوراة ، ولم نستنـد إلى القـرآن ، قالـوا : مـوسى ، ولم نقل : محمد . عظمـوا السبت ، ولم نعظم الجمعـة ، قـالـوا : الهيكـل ، ولم نقل : الأقصى ، أدخلـوا الـدين في المعـركة ، ونحن عـزلنا الـدين عن المعركـة ، فكسبـوا بتوظيف الـدين ، وخسرنا بإبعـاد الدين . حتى الحكام العلمانيون في إسرائيل مثل ابن غوريـون ، وجولدا مائير لا يستغنون عن تـوظيف الدين في معـركتهم ، حتى قـال ابن غوريـون كلمته الشهيرة : إن اليهـود لم يحافظوا على السبت ، ولكن السبت هو الذي حافظ على اليهود!

يريـد أن الاستمساك بـالشعائر الدينيـة والثبات عليهـا هو الـذي حفظ الشخصية اليهودية طوال التاريخ ، فلم تزل ، أو تذب في غيرها .

ويوم اعتصمنا بـالدين ، برزت قوتنـا ماثلة للعيان ، كما في الانتفـاضة الفلسطينية ، التي سموهـا أولاً (ثورة المسـاجد) والتي أقضت مضجع الإسرائيليين ، وكما في مقـاومة (حزب الله) في جنوب لبنان ، وكما في معـركة (العاشر من رمضان) التي هبت فيها على جنود مصر نفحـات رمضان ، ودخلوا المعركـة صائمين ، رافعين شعار (اللـه أكبر) فقد حققنا انتصارا لم نعهده من قبل .

ورغم انتصـارنا الجزئي المشرف علي بني صهيون في العـاشر من رمضان (١٣٩٣هـ) السادس من أكتوبر (١٩٧٣م) وعبورنا القناة ، وتحطيمنا أسطورة القوة التي لا تقهر ، لم نستفد من هذا النصر كما ينبغي ، بل بدأنا نطلب السلام مع العدو الغاصب ، ورحبت إسرائيل بأول سلام تعقده مع أكبر دولة عربيـة ، وأعظم قوة عربية ، وهي مصر ، وقبلت أن تنسحب من سيناء ، لتخرج مصر من المعركة ، وتكسب حيادها إذا ضربت إخوتها وأشقاءها ، وكانت ضربة معلّم حقا .

على أن مصر لم تستعد سيناء استعـادة كاملة ، فهي لاتزال منــزوعة السلاح ، هي سياسيا مع مصر ، وعسكريا ليست معها .

وقاطع العرب مصر ، وقالوا عنها ما قالوا ، ثم انتهوا إلى أسوا مما وصلت إليه مصر ، تحت عنوان مـا سمي بمسيرة (السلام) بدءا بـ (أوسلو) ثم بـ (واي ريفـر) وصولا إلى

(شرم الشيخ) . وفي كل محطة من هذه المحطات نقدم تنازلات عما اتفقنا عليه من قبل، ومع هذا لا تنفذ إسرائيل ما تتفق عليه من قبل ، لتجبر المفاوضين اللاهثين وراء السراب على تنازل جديد . وأحسب أن هذه المحطات (السلامية) أو (الاستسلامية) لم تنته بعد .

والعجيب أن أهم ما كان يجب البدء بالاتفاق عليه أخّر إلى النهاية : مسألة القدس، وعودة اللاجئين ، وقضية المستوطنين اليهود ، ومسألة الحدود ، والمياه ، كلها مؤجلة ، فما الذي اتفق عليه إذن[1]؟ انسحاب محدود من جانب إسرائيل يسمونه (إعادة الانتشار) وهي تسمية معبرة عن المقصود .

وقد قلت عن هذا السلام في قصيدة لي :

فما معنى فلسطين   بلا أقصى ولا قدس؟
فلسطين بلا قدس   كجثمان بلا رأس

لقد كسبت إسرائيل من جراء ذلك إيقاف الانتفاضة ، وتقسيم الفلسطينيين ، وإدخالهم حلبة الصراع على مغانم السلطة ، واستخدام السلطة في ضرب قوى الجهاد ، بدعوى محاربة الإرهاب ، وإسرائيل هي الإرهابي الأكبر، لو كانوا يعلمون .

ولقد كشف الكاتب الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل النقاب فى كتاباته الأخيرة عن خيانات بعض القادة الكبار، الذين كانت الخطوط مفتوحة بينهم وبين رجال صهيون في إسرائيل ، وبهذا صدق المثل العاميّ : حاميها حراميها ! وكما قال الشاعر العربى قديما :

وراعى الشاة يحمي الذئب عنها   فكيف إذا الرعاة لها ذئاب؟!

---

(١) والآن ـ والكتاب ماثل للطباعة ـ يجتمع ياسر عرفات وباراك وكلينتون في (كامب ديفيد) بالولايات المتحدة وسط جو ملبد بسحب التشاؤم ، إزاء (لاءات) باراك الخمس ، ولا ندري : إلى أي تنازل جديد يصل هذا الاجتماع؟!

إخفاقنا في مسيرة التقدم والتنمية

٣- وثالث الإخفاقات ، هو إخفاق أمتنا في مسيرة (التقدم والتنمية) . فلا زلنا ـ نحن العرب والمسلمين ـ ضمن (البلاد النامية) أو (العالم الثالث) وعندنا بلاد لو كان هناك عالم رابع لنسبت إليه ! لا زلنا عالة على غيرنا في الصناعات الثقيلة ، والصناعات الدقيقة ، معظم صناعاتنا تجميعية ، لم نصنع محركا (موتورا) إلى اليوم . سلاحنا الثقيل نستورده ، ولا نصنعه . إن (سورة الحديد) لم تعلمنا صناعة الحديد . حتى الزراعة نستورد فيها نصف أقواتنا أو يزيد . مع أن بلادنا بلاد زراعية . فكيف بقاء الأمة التي لا تملك قوتها ، ولا تملك سلاحها؟

لقد بدأت مصر نهضتها مع اليابان أو قبل اليابان ، وانظر الآن أين اليابان ، وأين نحن؟

وبدأت كوريا مسيرتها التكنولوجية بعد الحرب العالمية الثانية ، فانظر أين كوريا وأين نحن اليوم؟ !

العالم المتقدم يتحدث عن الثورات التي أنجزها : ثورة التكنولوجيا ، وثورة البيولوجيا (هندسة الجينات والاستنساخ واكتشاف خريطة الجينات البشرية وما إليها) والثورة الإلكترونية (الكمبيوتر والإنترنت) والثورة الفضائية : غزو القمر ومحاولة الوصول إلى الكواكب الأبعد ، و(ثورة الاتصالات) ، و(ثورة المعلومات) إلخ . فأين نحن من هذه الثورات؟

نحن نستطيع أن نشتري أفخر وأغلى ما أنتجه العلم والتكنولوجيا ، نستطيع أن نشتري أفخر سيارة مرسيدس ، أو روزريس ، بمواصفات لا نظير لها ، ولكننا لا

نستطيع أن نصنع منها شيئًا، ولكنهم لايبيعـون لنا إلا مايريدون، لا مـانريد نحن، فيما يتعلق بالأسرار النووية ونحوها لا يباع لنا، ولا يباح لنا، أنما هو مباح لإسرائيل وحدها!

قد طـال ليل التخلف علينا، حتى ظـن بعض الناس أن التخلف سببـه الإسلام، وهذا خطأ محض، فقد كـان المسلمون هم العالم الأول لعشرة قرون، وكـان العالم يتتلمذ عليهم، والمنهج التجـريبي الذي نهضت على أسـاسه أوربا إنما اقتبس منهـم، بشهادة المؤرخين المنصفين من الغـربيين أنفسهم. وقـد زعـم بعض مفكـري العـرب من ذوي النـزعة الماركسيـة والليبرالية: أن العقل العربي بـذاته عاجـز عن التحليق في آفاق العقل الغربي، والـوصول إلى مـا وصل إليه، سواء في مجال المعـرفة الفلسفيـة أم في مجال العلوم والتكنولوجيا.

وأيد بعضهم هذه الدعوة بما ذكره العلامة ابن خلدون في مقدمته عن العرب، أنهم لا يصلحون للحضارة، وأنهم لا يتغلبون إلا على البسائط.. إلخ.

وقـد بين الدكتـور علي عبـد الـواحد وافي في تحقيق (مقـدمـة ابن خلـدون) بالأدلـة الناصعة: أن ابن خلـدون لم يرد بكلمة (العرب) في نصوصـه المختلفة: (الجنس العربي) بل أراد (البدو) أو عـرب الصحراء، الذيـن لم يعيشوا في القرى والمدن، ولم يألفـوا الحياة المدنيـة المستقرة، وإنما يشتغلـون بمهنة الـرعي، وخاصـة رعي الإبل، ويتخذون الخيـام سكنا لهم، ويظعنون من مكان إلى آخر، حسب مقتضيـات حياتهم، وحاجات أنعامهم التي يتوقف معاشهم عليها.

وهـم المقـابلـون لأهل الحضر، وسكان الأمصـار، كما يـدل على ذلك الحقـائق التي عـرضهـا ابن خلدون في الفصـول التي وردت فيهـا هـذه الكلمـة من الفصل الخامس والعشرين إلى الفصل الثـامن والعشرين من الباب الثـاني، والفصل التاسع من البـاب الرابع[1].

وما أشبه قول هؤلاء عن العـرب بما قاله بعض المستشرقين من قبل: أن العرب لم يكن لهم فلسفـة، ولا حضـارة، إنما كانـوا مجرد تـراجمة لفلسفـة اليونـان وعلـومهم، وأنهم لا

---

(١) انظر: مقدمـة د. علي عبد الواحد وافي في تحقيق مقدمـة ابن خلدون، طبعة لجنة البيان العـربي الثانية: ص ٢٩٧ ـ ٣٠٤.

يصلحون لإنشاء فلسفة أو حضارة متميزة، وهذا مبني على نظرية (تفاضل الأجناس) أن هناك جنسا أعلى، وآخر أدنى، وأن الأوروبيين هم الجنس الأعلى وغيرهم هو الأدنى، وهذا كله هراء، يرفضه العلم، ويرفضه الدين، فليس في العلم أن جنسا من بني البشر أفضل من جنس، وليس في الدين أن جنسا أعلى وأرقى من غيره، إلا بالإيمان والعمل أو التقوى. يقول تعالى: ﴿**يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ [الحجرات: ١٣].

لا يسعنا أن نغفل هنا: ما كان عليه بعض مشايخ الدين من ضيق الأفق في استقبال بعض منجزات العلم الحديث، حتى أنكرها بعضهم، واعتبرها فتنة من عمل الشيطان.

وقد حكوا أن الشيخ الإمام حسن البنا ـ عليه رحمة الله ـ عندما حج لأول مرة، وكان موافقا لسنة ١٩٤٢م، وقد اصطحب معه مكبرا للصوت (ميكروفونا) اعترض عليه بعض العلماء هناك، وقالوا له: هذا بدعة، لم يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا أصحابه، ولا أتباعهم، وهم خير قرون هذه الأمة، وكل خير في اتباع من سلف، وكل شر في ابتداع من خلف.

وناقشهم الشيخ البنا، وأن الابتداع إنما هو في أمور الدين، وهذا من وسائل الدنيا التي تعين على أمر الدين.

ومن حسن الحظ أن كان الشيخ الذي ينكر الميكروفون يلبس نظارة على عينيه، فقال البنا: أراك تلبس نظارة، وتقرأ بها القرآن وكتب الحديث والفقه وغيرها، وهذه لم يفعلها الرسول ﷺ ولا الصحابة ولا من بعدهم! قال الشيخ: ولكن هذه تكبر لي الخط فأقرأه بصورة أوضح. قال الشيخ البنا: وهذا ما يعمله الميكروفون، النظارة تكبّر المرئيات، والميكرفون يكبر المسموعات. وسلّم عالم الدين في الأرض المقدسة للشيخ البنا.

ولقد حدثني بعض الإخوة السعوديين أن أول دخول التليفون في المملكة استنكره بعض المشايخ، وصرحوا بذلك للملك عبد العزيز رحمه الله، وقالوا: هذا لا يمكن أن يكون من عمل البشر، بل هو من عمل الشياطين، لفتنة الناس وإغوائهم وإضلالهم عن دين الله. وكان الملك عبد العزيز رجلاً ذكيًا، فأمر بعض أصحابه أن يقرأ القرآن في التليفون، ويسمعه هؤلاء المشايخ، فلما سمعوا ذلك، قال لهم الملك رحمه الله: هل يقرأ الشيطان القرآن الكريم؟

على كل حال كانت هذه فترة مضت، وهذا يذكرنا بما حدث أيام الدولة العثمانية عند ظهور (المطبعة) وتخوف بعض المشايخ من استخدامها في طباعة كتب العلم والدين، خشية دخول الأغلاط والتحريف فيها، وهو وارد من غير شك، ولكن المصالح المترتبة على استخدامها أكبر بكثير من المفاسد المخوفة منها، ولا يجوز تضييع مصلحة كبيرة تخوفا من حدوث مفسدة صغيرة، هذا مع وجوب التحذير من الغلط والتحريف، والعمل على تلافيه.

وهذا يذكرنا أيضًا بما حدث من قلة من المشايخ القدامى في الأزهر الشريف، الذين اعترضوا على إدخال (العلوم الحديثة) في برامج الأزهر ومقرراته، من الرياضيات والطبيعة والكيمياء والأحياء والجغرافيا وغيرها، لأنها ستجور في رأيهم على علوم الدين واللغة.

والحق أن هذه العلوم التي يسمونها (الحديثة) هي علوم قديمة نبغ فيها المسلمون وأبدعوا فيها أيام ازدهار حضارتهم، وكان لهم فيها القدح المعلى. وقد اقتبسها الغربيون منهم وتفوقوا فيها، ثم عادت إليهم في صورة علوم حديثة، وما هي إلا بضاعتهم ردت إليهم.

ومن أعجب ما سمعته في عصرنا: أن أحد الدعاة ممن ينتسب إلى جماعة دينية تهتم بالجوانب الروحية والعبادية فحسب، قال يوما في خطبة أو درس له: الحمد لله الذي سخر لنا الإفرنج، ليقدموا لنا منجزات العلم والتكنولوجيا، لنتفرغ نحن لعبادة الله تعالى!!

غفل هذا المسكين أن المسلمين بهذا قد أثموا في حق دينهم وأمتهم، حين أهملوا ما اعتبره العلماء فرض كفاية عليهم، وهو إتقان العلوم، التي تقوم بها دنياهم، ويعز بها دينهم، وتسود أمتهم، ويعدون بها ما استطاعوا من قوة لأعدائهم، ليحموا دينهم وأرضهم وعرضهم وحرماتهم. فإذا قصروا في ذلك، فقد أثمت الأمة جميعها، فليس هذا نعمة يحمد الله عليها، بل هي جريمة يستغفر الله تعالى منها.

ورحم الله زمانا كان علماء الدين مبرزين في علوم الدنيا.

فقد رأينا مثل الإمام ابن رشد (الحفيد) (ت ٥٩٥هـ) في الأندلس، يؤلف في الفقه المقارن كتابه الفريد (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) ويؤلف في الطب كتابه (الكليات) الذي ترجم إلى (اللاتينية) وظل مرجعا للأوروبيين لعدة قرون.

ورأينا في الشرق معاصره الإمام فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ) الذي اشتهرت كتبه الدينية في التفسير وأصول الفقه والكلام، ينبغ في الطب أيضًا، وقال مترجموه: إن شهرته في الطب لم تكن تقل عن شهرته في علوم الدين.

ورأينا مثل ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى (ت٦٨٧) يترجم له العلامة تاج الدين السبكي في كتابه الشهير (طبقات الشافعية الكبرى) انظر الترجمة: (جـ٨ ص٣٠٥).

فلم يكن عندنا مشكلة الصراع بين العلم والدين، التي ثارت في أوربا قرونا عدة، بل كما قلت وأقول دائمًا: العلم عندنا دين، والدين عندنا علم.

فالعلم عندنا عبادة، وطلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة، وهو يشمل كل علم نافع، في الدين أو في الدنيا، وهو إما فرض كفاية أو فرض عين.

والدين عندنا علم، لأنه لا يقوم على التسليم المطلق، ولا على الإيمان بغير المعقول، كما في المسيحية، بل نجد قرآننا يقول للمشركين والمخالفين: ﴿**قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾ [البقرة: ١١١] و[النمل: ٦٤].

وليس عندنا ما عند النصارى من قولهم: اعتقد وأنت أعمى! بل المطلوب أن يكون الإيمان عن بينة، ﴿**أفمن كان على بينة من ربه**﴾ [هود: ١٧]، وأن يكون على نور ﴿**أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه**﴾ [الزمر: ٢٢].

وإيمان المقلد عند المحققين من علماء المسلمين: غير مقبول، إنما يقبل الإيمان القائم على الدليل، ولو كان دليلاً جمليًا، وغير مرتب ترتيبًا منطقيًا.

هل المسلمون أقل ذكاء من الأمم الصناعية المعروفة في عصرنا؟ ليس هذا صحيحًا من غير شك. بدليل أن لدينا عقولاً مهاجرة إلى بلاد الغرب تعد بعشرات الألوف، من النوابغ في شتى مجالات العلم، أمكن الغرب أن يستفيد من علمهم وخبرتهم، ولم تستطع دولهم ذلك للأسف.

لقد استطاعت باكستان أن تصنع القنبلة النووية، بالرغم من محاولات الغرب منعها من ذلك، وكان العراق في طريقه إلى ذلك، لولا ما جره إليه نظامه الحاكم من حماقات ومطامع ضيعت عليه فرصته، وسدت عليه طريقه.

وتستطيع الأمة العربية والإسلامية أن تفعل الكثير إذا تعاونت وتكاملت، فنحن نرى الدول الصناعية الكبرى تتعاون فيما بينها لصناعة طائرة متطورة. فلماذا لا تفعل الأمة المسلمة ذلك؟[1]

إن العدد الكبير والمساحة الكبيرة شرط لنجاح التقدم والتنمية، فنحن في عصر الإنتاج العريض، والسوق الواسعة. وإن ثلاثمائة مليون من العرب وألف مليون وراءهم من المسلمين لقادرون أن يكونوا شيئا مذكورا، إذا عرفوا غايتهم، وعرفوا سبيلهم، وتوحدت إرادتهم، وأيقنوا برسالتهم، ليجعلوا من الإيمان بها محركًا يثير حوافزهم، ويجنّد قدراتهم، ويضاعف طاقاتهم. فإن المؤمن القوي يمكنه أن يعمل بعشرة أضعاف غيره إذا توافرت له الإرادة والصبر ﴿**يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون**﴾ [الأنفال: ٦٥].

---

(١) انظر: فصل (هم التخلف) من كتابنا (الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي) نشر دار الشروق القاهرة.

الإخفاق في التحرر من التبعية للغرب

٤ ـ ورابع الإخفاقات هو: الإخفاق في التحرر من التبعية للغرب، صحيح أننا حصلنا على الاستقلال السياسي، وأن جيوش الأجنبي قد رحلت عن بلادنا، وإن كانت قد عادت إلى كثير منها مرة أخرى بحجة وأخرى.

ولكن المؤسف أننا لم نتحرر من فكر الغرب وثقافته، لازال سلطان الثقافة الغربية مهيمنًا على كثير من نخبنا، وهو الذي يصنع لهم اتجاهاتهم، كما يضع لهم قيمهم وموازينهم الفكرية والخلقية، ويحدد لهم أهداف حياتهم، ويضع لهم أنماط سلوكهم، بحيث يعيشون بين أقوامهم، وهم في الواقع ليسوا منهم، أسماؤهم ووجوههم عربية وإسلامية، ولكن عقولهم غربية.

هناك من يزعمون أن الثقافة الغربية ثقافة عالمية، فلا يليق بنا أن نوصد الأبواب دونها، وهذه مغالطة مكشوفة القناع، فالعلم الطبيعي والرياضي لا وطن له، ولا جنسية له حقا ـ إلا فيما يتعلق بفلسفته وأهدافه واستخدامه ـ أما الثقافة فهي المعبرة عن هوية كل أمة وخصوصيتها، عن عقائدها وقيمها وشرائعها وأعرافها وحضارتها وتراثها، ولا يجوز لأمة تعتز بنفسها وبذاتيتها ورسالتها أن تذوب في غيرها، كما يذوب الملح في الماء، فإن هذا حكم على الأمة بالفناء والإعدام!

لا عجب أن سميت هؤلاء وأمثالهم (عبيد الفكر الغربي)! قال لي بعضهم: لقد قسوت على هؤلاء، فليتك سميتهم (تلاميذ الفكر الغربي) قلت له: إن التلميذ قد يناقش أستاذه. وقد يخالفه فيما ذهب إليه، وهؤلاء لا يناقشون الفكر الغربي، بل يأخذ

الواحـد منهم كل ما جاء بـه قضية مسلمـة ، وإن كانت مناقضـة لعقيدته ، أو منـافية لتراثه ، أو معادية لأمته . وهذا هو موقف العبيد من السادة .

وأعجب صنف من هؤلاء من عبيـد الفكر الغربي : من أقحم نفسه على الـدراسات الإسلامية ، ومنح نفســه الحق في التحدث باسم الفكر الإسلامي ، وأنــزل نفسه منـزلة فوق منــزلة المجتهدين ، فهو لا يلتــزم بما التزمـه الأئمة المجتهدون طـوال القرون ، من احترام (القطعيات) وعـدم المساس بها ، بـاعتبارها (ثـوابت الأمة) التي تجسـد وحدتها العقديـة والفكرية والشعـورية والعملية ، ولكن هـؤلاء لم يدعوا سـورا إلا اخترقوه ، ولا مقـدسا إلا اجترءوا عليـه ، حتى نصوص كتـاب الله المحفـوظ ، استباحـوا حرمتهـا ، بدعـوى تاريخيـة النص حينا ، وباتباع المدرسـة التأويلية الحــديثة ، الذين هــم خلف للمدرسـة التأويليـة الباطنيـة قـديمًا ، كما نــرى عند أركـون وشحرور، ونصر أبـو زيد وأمثالهم .

والمهم أن هؤلاء العبيـد هم الذين يوجهـون ـ في الأغلب الأعم ــ أجهزتنا الإعـلامية والثقافيـة والتربويـة . وهـم الذين وكل إليهم صنـاعة عقول شعـوبنا ، رجـالنا ونسـائنا وأبنائنا وبناتنا ، ويسلخونهم من جلد أمتهم بما يدسون لهم من سموم الثقافات الدخيلة على الأمة توضع في الدسم والحلوى .

وهي ليست تبعية فكريـة أو ثقافية فحسب ، بل هي تبعية تشريعيـة أيضًا ، فلا زال القانون الـوضعي ـ الذي فـرضه المستعمر الغربي على أمتنـا في فترة حكمه ، وأحله محل الشريعة الإسـلامية ـ هو الـذي يحكم أوطاننا بعد رحيلـه عنها . فقد ترك وراءه تـلاميذ صنعهم على عينـه ، يحرسون تـراثـه ، ويحافظـون على نهجه ، ويسيرون على خطـه ، ولم تستطع شعوبنا التي تؤمن بـالشريعة قانونا لها ، أن تفرضها على حكـامها ، الذين ظلوا يراوغون ، ويقـولون : نعم للشريعة ، ولكن بالتـدرج ، وقد مضت عشرات السنين وهم لا يتدرجون ، ولا يبرحون مكانهم (محلك سر) .

وهي ليست تبعية ثقافية ولا تشريعية فحسب ، بل هي تبعية اقتصادية أيضا ، فنحن مجبـورون على أن نكون سـوقا للغـرب ، وأن نشتري منه مـا لا حاجـة لنا إليـه ، نشتري الأسلحـة بعشرات المليارات ، لنكـدسهـا في مخازننـا ، ولا نستعملها ، وكثيرا مـا يبيعنـا الأسلحة بعد أن تنتهي صلاحيتها ، ويبتكر هو أحدث منها ، فيغدو وجودها عنده عبئا

عليه، فهو ببيعها إيانا يضرب عصفورين بحجر واحد: يتخلص منها، ويقبض ثمنها فورا، يدا بيد.

ثم هي فوق ذلك تبعية سياسية أيضا فلا زالت دولنا ـ بصورة وأخرى ـ تعمل بما قاله كرومر قديما (النصائح الملزمة) وأين الدولة الحرة التي تستطيع أن تقول لنصائح أمريكا: لا، بملء فيها. كما قال عمر: يعجبني الرجل إذا سيم الخسف أن يقول بملء فيه: لا!

ومن هنا رأينا الكثير من الأنظمة الحاكمة في ديارنا العربية والإسلامية تهرول نحو إسرائيل ـ وهى جد بعيدة عنها ـ مثل إندونيسيا شرقا، أو موريتانيا غربا، طاعة وأدبا وامتثالا للقيصر الجديد للعالم: أمريكا.

الإخفاق في مجال الشورى والحريات العامة وحقوق الإنسان

٥- وخامس الإخفاقات هو: الإخفاق في مجال الشورى والحريات العامة وحقوق الإنسان. فما زالت جل شعوبنا ــ إن لم يكن كلها ـ تحت وصاية حكامها، لا تستطيع أن تختار من يقودها، ولا أن تحاسبه وتسائله، وتقفه عند حده، وإلا عزلته.

والعجب أن البلاد التي انتهت إلى النظام الجمهوري أسوأ حالا ــ في غالبها ـ من البلاد التي بقيت ملكية أو أميرية. فهذه الجمهوريات (الديمقراطية!) انفردت بين نظم العالم بالأغلبية التي أصبحت نكتة العالم، أغلبية التسعات الأربع (٩٩, ٩٩٪) ومعظمها استفتاء على الطريقة الاشتراكية التي وصفها بعضهم بأنه سباق يعدو فيه حصان واحد!

ولم نر في هذه الجمهوريات الديمقراطية المزعومة تداولا للسلطة كالجمهوريات في الغرب الليبرالي، بل نرى كل رئيس لا يترك السلطة إلا ميتا، أو مقتولا، أو منقلبا عليه. وكل واحد منهم يعد ابنه ليخلفه من بعده. أي أن الجمهوريات أصبحت وراثية كالملكية، ولكن الملك في الأنظمة الدستورية يملك ولايحكم، أما رئيس الجمهورية فهو يملك ويحكم معًا. لا يستثنى من ذلك إلا رئيس واحد تنازل مختارا عن موقعه، ليتيح الفرصة للناس ليختاروا لأنفسهم، وهو المشير عبدالرحمن سوار الذهب في السودان، شكر الله سعيه.

فلاغرو أن يقترح بعض الكتاب أن يختار العرب لحكمهم الملكية الدستورية ، بدل الجمهورية التي تعلن الديمقراطية ، وتمارس الدكتاتورية . ومن هنا رأيناها تستخدم الأحكام العرفية ، والقوانين الاستثنائية أو قانون الطوارئ ، والمحاكمات العسكرية ، وتمتلئ سجونها بمعارضيها . ولا تجد من يقول لها : لم؟ بله أن يقول : لا!

لماذا تنجح الديمقراطية في بلد كبير كالهند (مليار من البشر) متعدد الأديان والأعراق واللغات والثقافات ، حتى إن الحكومة تجري انتخابات ، وتسقط هي ، ويفوز خصومها ، في حين تخفق الديمقراطية في جارتها باكستان ، وتحكم بالانقلابات العسكرية؟

نحن لا نبرئ الغرب من هذه الجريمة ، فهو يشجع الديمقراطية في أنحاء العالم ، ويكرهها في البلاد الإسلامية ، وهو يسند كل دكتاتور يحكم في أوطان المسلمين ، ويشد أزره ، ما لم يمس مصالحه ، أو يلتفت إلى الصالح الإسلامي في بلده ، كما فعل مع سوهارتو في إندونيسيا .

وإلا فخبرني بربك كيف ساند الغرب المؤسسة العسكرية في الجزائر التي ألغت نتائج انتخابات حرة نزيهة أجرتها الحكومة بنفسها ، واستولت على مقاليد السلطة عنوة ، وأخذت الرجال الذين انتخبهم الشعب طواعية إلى أقبية السجون متهمين بالعنف والإرهاب ، مما ولد حالة من العنف في الجزائر لم تبرح تعاني منها إلى اليوم؟!

ولماذا أبقى الغرب على صدام حسين إلى اليوم ، وقد كان في إمكانه إسقاطه أيام حرب تحرير الكويت ، لو كانوا يريدون ذلك حقًّا؟

إن لجان حقوق الإنسان ، الدولية والإقليمية والمحلية ، ولجنة العفو الدولية ، تحتج بصوت عال على ما يجري في بلادنا العربية والإسلامية من انتهاكات صارخة لحقوق الإنسان ، واعتداءات متكررة على الحريات ، وإلقاء الناس في السجون بغير جريمة ، وتعذيب المتهمين بغير حق ، وإيذاء أهليهم وأقاربهم بلا جريرة ، ومنهم من مات في سجنه من التعذيب المباشر ، أو سوء التغذية ، أو إهمال العلاج . ومنهم من أصيب بأمراض مزمنة ، بعضها عضوية ، وأخرى عصبية ونفسية ، لا دواء لها ، إلا أن يشاء ربي شيئًا .

وإن بعض هذه الدول تتبجح بدعوى الإسلام ، وأنه دينها الرسمي ، كما في تونس ،

وهي تعتبر الصلاة في المسجد جريمة، يحسب صاحبها في الإرهابيين، وتعتبر اقتناء الكتب الإسلامية ذنبًا يزج به في غياهب السجون، وتعتبر حجاب المرأة المسلمة جرمًا يحرمها من دخول المدرسة والجامعة والوظيفة الحكومية، والمستشفى للولادة أو العلاج، وهو حق لا ريب فيه يتعلق بالحرية الشخصية، والحرية الدينية. ومن العجب أن المرأة شبه العارية لا يمسها أحد بسوء، لأن هذا داخل في الحرية الشخصية المقدسة.

مشكلة هذه الأنظمة المستبدة: أنها ـ كما قال شكري القوتلي من قبل ـ لها ألف عين ولكنها لا ترى، وألف أذن ولكنها لا تسمع، لأنها لا ترى ولا تسمع إلا بأعين أنصارها وآذانهم، أي أهل الثقة لا أهل الكفاية والخبرة. وهؤلاء يخفون عنها العيوب، ويضخمون لها المزايا، ويخوفونها مما هو في حقيقته من الأوهام.

وأعجب من هذا أن نجد من المثقفين من يبرر هذا الاستبداد والتسلط بحجج شتى، منها: تمكين الدكتاتور من اتخاذ القرار السريع. حتى قال من قال: لا ينهض بالشرق إلا مستبد عادل. والعدل لا يجامع الاستبداد، فالعادل لا يكون مستبدا، والمستبد لا يكون عادلاً.

ومنهم من قال: إن الشورى ــ التي أمر الله بها ـ مُعْلمة لا ملزمة، فمن واجب الحاكم أن يستشير أهل الحل والعقد، ومن حقه أن يضرب برأيهم عُرض الحائط. فلماذا سموا أهل الحل والعقد، وماذا يحلون ويعقدون إذن؟

ومنهم من زعم أن الديمقراطية تعني حكم الشعب، وهي منافية للإسلام؛ لأنه حكم الله. وهذه مغالطة، فحكم الشعب ليس مقابلا لحكم الله، بل لحكم الفرد المطلق، والمفروض أننا نتحدث عن حكم الشعب المسلم في وطن مسلم، ومثله لا يرفض حكم الله. وهو حكم الشورى الذي يرفض حكم كل جبار عنيد، حكم الفراعنة والمتألهين في الأرض، إنما يقبل حكم الصالحين الذين يحبون الناس ويحبونهم، ويصلون على الناس كما يصلي الناس عليهم، ولا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا.

الحقيقة أن الإسلام يذم من أم قوما وهم له كارهون. وهذا في الإمامة الصغرى في المسجد، فكيف بالإمامة الكبرى: إمامة الأمة؟[1]

---

(١) انظر: موقف الإسلام من الديمقراطية في كتابنا (من فقه الدولة في الإسلام) نشر دار الشروق القاهرة.

الإخفاق في توحيد الأمة

٦ـ وسادس الإخفاقات هو: إخفاق الأمة في مجال الوحدة، فمنذ سقطت الخلافة، والأمة الإسلامية تنشد الوحدة بصورة من الصور ولا تصل إليها، ولا تقترب منها. والحقيقة أن الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم[١]، هي حقيقة بمنطق الدين، وهي حقيقة بمنطق التاريخ، وهي حقيقة بمنطق الجغرافيا، وهي حقيقة بمنطق المفاهيم المشتركة، والمشاعر المشتركة، والمصالح المشتركة، والمصير المشترك، وهي حقيقة بمنطق أعدائها أنفسهم، الذين ينظرون إليها باعتبارها كيانا واحدا يجب تفكيكه وتمزيقه.

لقد اعتبر القرآن الكريم المسلمين (أمة واحدة) وحدتها العقيدة والشريعة والقيم والآداب المشتركة والقبلة الواحدة، ولكن الاستعمار أرادهم (أمما شتى) واستطاع الاستعمار بوسائله وأساليبه المختلفة، أن يغيّب (الأمة الواحدة) ويبرز الأمم المختلفة.

لقد فرق أبناء الأمة الواحدة: اختلاف الفلسفات والمناهج التي استوردوها من الشرق والغرب، واليمين واليسار، كما فرقهم اختلاف الولاءات لهذه الجهة أو تلك، ثم ظهور العصبيات القطرية والقومية، التي جعلت كل جماعة تذكر وطنها وجنسها ولا تذكر الأمة الكبرى. أضف إلى ذلك الأهواء والمصالح الشخصية والأسرية والحزبية التي جعلت من الحكام من يتشبث بالتجزئة ولا يحرص على الوحدة.

إن الإسلام أمر الأمة بالوحدة والائتلاف، ونهاها عن التفرق والاختلاف، وجسد هذه الوحدة بأحكام أساسية ثلاثة:

(١) عنوان كتاب للمؤلف، نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة ومؤسسة الرسالة في بيروت.

١ ـ وحدة المرجعية العليا ، المتمثلة في محْكمات القرآن والسنة الصحيحة .

٢ ـ وحدة دار الإسلام ، التي تجعل أوطان الإسلام ـ وإن تباعدت ـ وطنا واحدا ، أو دارا واحدة .

٣ ـ وحدة القيادة ، حين فرض على المسلمين أن يكون لهم خليفة واحد ، تجب عليهم بيعته .

فأما شكل الوحدة بين المسلمين ، فلم يحدد الإسلام له صورة معينة ، وفي عصرنا قد ابتكرت صور للوحدة يمكننا أن نقتبس واحدة منها ، ونطورها بما يلائم شريعتنا وأوضاعنا : فيدرالية أو كونفدرالية . أو كومنولث ، أو نحو ذلك ، ويمكن أن نبدأ بأدناها ثم نرقى بها بالتدريج .

على أية حال ، قد اكتفى المسلمون الآن بما أطلق عليه اسم (التضامن الإسلامي) الذي تجسد في (منظمة المؤتمر الإسلامي) التى تمثل جميع الدول الإسلامية ، أو التي فيها نسبة كبيرة من المسلمين . ولهذه المنظمة عدد من المؤسسات مثل (البنك الإسلامي للتنمية ، ومجمع الفقه الإسلامي ، والمنظمة الإسلامية للثقافة والتربية والعلوم) وجلها يشكو من عجز الموارد ، وقلة التمويل ، والواجب على الأمة أن تفعِّل هذه المنظمة ، سعيا إلى ما تنشده من الوحدة ولو في أدنى درجاتها ، فنحن في عصر يتكلم بلغة التكتل والتوحد .

وها قد رأينا أوربا التي قاتل بعضها بعضًا قرونا ، آخرها الحربان العالميتان التي قتل فيها ملايين من الأوروبيين بسلاح الأوروبيين ـ قد نسيت هذا الصراع الدامي ، وفرضت عليها المصالح المشتركة ، أن تتوحد في شكل سوق مشتركة ، وبرلمان مشترك ، ومؤسسات مشتركة .

لقد آن لنا أن تنشأ السوق الإسلامية المشتركة ، ومحكمة العدل الإسلامية للفصل في النزاع بين الدول الإسلامية بعضها بعض ، وأن نخفف من الفواصل والعوائق بين بعضنا وبعض .

على أن وحدة الأمة لا تلغي خصوصيات الأقوام والأوطان ، بما لها من لغات وأعراف وتواريخ وأوضاع خاصة ، وقد قال تعالى : ﴿**وجعلناكم شعوبًا وقبائل**

لتعارفوا﴾ [الحجرات : ١٣]. ولكن الإسلام يفرض على أبناء الأمة أن يكونوا كالبنيان يشد بعضهم بعضا، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

أما أن تضرب الشيشان بقسوة وعنف، وتدمر المساجد والمنازل، ويقتل المدنيون، ويشرد مئات الألوف، ويباد شعب بأكمله، والمسلمون يتفرجون صامتين لا يصرخ منهم أحد محتجًّا، فهذا عار وشنار على أمة الإسلام.

إن العالم يتوحد، فما بالنا نختلف؟ ويتقارب فما بالنا نتباعد؟

إن المسيحيين يتقاربون بعضهم بعض، برغم أن مذاهبهم تعتبر كأن كلا منها دين مستقل، بل تقارب المسيحيون مع اليهود، حتى أصدر الفاتيكان وثيقته الشهيرة بـ(تبرئة اليهود من دم المسيح) مخالفا ما استقر عليه المسيحيون طوال القرون الماضية (تسعة عشر قرنا أو تزيد). وكذلك رأينا أمريكا الرأسمالية تتقارب مع الصين الشيوعية. وقبل ذلك رأينا المعسكر الغربي الرأسمالي الليبرالي يتقارب مع المعسكر الشرقي الشيوعي (الاتحاد السوفيتي) فيما عرف بسياسة التعايش السلمي أو الوفاق.

فما بالنا نحن المسلمين نتباعد ونتجافى، وشعوبنا تعتبر المسلمين إخوة لهم أينما كانوا، وتعتبر الجميع من أمة الإسلام، أمة الإجابة؟

حتى العرب ـ وهم طليعة المسلمين ـ لم يستطيعوا أن يصلوا إلى الوحدة، لقد أقاموا (الجامعة العربية) من سبع دول، ثم أربت اليوم على العشرين، ولكنها توسعت كمًّا، ولم نتعمق كيفا. برغم كل ما يجمع بينها من وحدة الدين والأرض واللغة والمصير والمصلحة.

وعامل جديد هو العدو الصهيوني، الذي كان يجب أن يكون عامل توحيد لهم، فانتهى إلى أن يكون عامل تفريق، في موقفهم منه. ومن المؤسف أن كل التجارب (الوحدوية) ـ التي عبرت عن طموحات الأمة ـ باءت بالفشل. فشلت وحدة مصر وسوريا، وهي أعظم خطوة للوحدة تمت في عصرنا، أنشأت (الجمهورية العربية المتحدة) واستقبلها العرب في كل مكان بفرحة غامرة، وترحيب هائل، وتأييد منقطع النظير، وقد شهدت ذلك بنفسي، سرعان ما تهدمت هذه القلعة، وتهاوى

بنيانها، وانتهت من التاريخ، بسبب طغيـان الحكم، وحكم الطغيان، والاستبداد الذي بغى على حقوق الإنسان، وحرية المواطنين، فلم يطق الشعب السوري أن يحيا في سجن بابـه مغلق، ومفتاحه في القاهـرة، وفي أول فرصة أعلن الانفصال، وأصبح أكثـر الذين أيدوا الوحدة بالأمس يؤيدون الانفصال اليوم.

حتى الـرئيس شكـري القوتلي الـذي تنـازل مختارا عن منصـب رئيس الجمهوريـة، ليصبح (المواطـن العـــربي الأول) في الجمهـــوريـــة الجديـــدة، كــان أول مـن رحب بالانفصال، بخطابه التاريخي الشهير، الذي أذاعته كل أجهزة الإعلام.

وكـذلك لم تنجح محاولات الاتحـاد الثـلاثي بين مصـر وسـوريـا وليبيـا، ولم ينجح الاتحاد المغـاربي بين أقطار المغـرب الخمسة، رغم مـا بينها من روابط وتقـارب، حتى في العـادات والأعـراف، ولم ينجح (مجلس التعـاون العربي) الـذي قـام بين مصر والأردن واليمن وليبيا.

ولم يستطع الحزبـان البعثيـان اللـذان يحكمان بلـدين شقيقين متجـاورين(سـوريـا والعراق) أن يقيما وحدة بينهما، رغم أن شعارهما جميعا: أمة واحدة، ذات رسالة خالدة.

والتجربة الوحيدة التي استمرت مع الزمن هي تجربة (مجلس التعاون الخليجي) وإن كان بطيئ الخطوات في تطوير تعاونه، وإزالة الحواجز بين بلدانه.

ولقد ازداد العرب فرقة بعد كارثة احتلال العراق للكويت بإغراء الغرب، لقد كانت ضربة معلم استطاع الغرب عامة، وأمـريكا خاصة أن يحقق بها عدة أهداف: أن يحول العراق من دولـة توشك أن تصنع القنبلة النوويـة، إلى دولة مدمَّرة السـلاح، وأن يمزق وحدة العرب، فلم تجتمع لهم قمة إلى اليوم، بـرغم مسيس حاجتهم إليها، ولقد جرب الغرب أسلحته الجديـدة في أرض العرب، وتخلص فيها من أسلحتـه القديمة، وضرب المنطقة وهدمهـا بفلوس العرب، ثم أعاد إعمارها بفلوس العـرب، وأخر المنطقة نصف قرن من الـزمان على الأقل، وترك جـراحا غائرة في النفـوس ـ منها أسرى الكـويت ـ لم تندمل إلى اليوم.

الإخفاق في تحقيق العدالة الاجتماعية

٧ـ وسابع الإخفاقات هو الإخفاق في تحقيق عدالة اجتماعية، يأخذ فيها كل ذي حق حقه، من ثروة وطنه وفق جهده وحاجته وحاجة أسرته، كما قال الفاروق عمر: فالرجل وبلاؤه (أي جهده) والرجل وحاجته .

وقد وضع الإسلام قواعد راسخة لحسن توزيع الثروة بين الناس بالعدل، فلم يمنع حرية التملك، بل أجاز التملك وتنمية الملك بالطرق المشروعة، ووضع على الملكية قيودا وتكاليف تقلم أظفارها ، وتحد من غلوائها، ففرض عليها الزكاة، وما من بعد الزكاة من حقوق ، وفرض على الأغنياء أن يبذلوا من فضل أموالهم حتى يكتفي الفقراء الكفاية التامة، وحرم على الأغنياء السرف والترف والكنز والاحتكار والربا، وبذلك عمل بقوانينه ووصاياه على الحد من طغيان الغني، والرفع من مستوى الفقير، وخص الفقراء من موارد الدولة من أموال الفيء وغيره بما لا يشاركهم فيه غيرهم، وعلل ذلك بقوله تعالى: ﴿كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ [الحشر: ٧].

ومع ذلك وجدنا توزيع الثروات في ديارنا العربية والإسلامية أبعد ما يكون عن عدل الإسلام، فنجد الذين يعملون ولا يملكون ، والذين يملكون ولا يعملون. ونجد الذي يعمل أكثر محروما أكثر، نجد من يأكل إلى حد الشره، ومن لا يجد اللقمة تمسك رمقه، نجد من يضع يده على بطنه يشكو زحمة التخمة ومن يضع يده على بطنه يشكو عضة الجوع. نجد من يملك القصور تجرى في ساحاتها الخيل، بعضها في بلده، وبعضها خارج بلده، قد لا يزوره إلا مرة كل عدة أعوام ، وآخر هو وزوجته وأولاده قد حبسوا في قلب حجرة في (بدروم) هي المطعم والمجلس والمضافة والمنامة. وتجد بلاد

القلة السكانية تملك القناطير المقنطرة، وبلاد الكثرة السكانية لا تملك مثل ذلك، وتجد الحكام وأبناءهم يلعبون بثروات البلاد، ولا يجدون من يحاسبهم. ونجد الذين يقفزون من أول السلم إلى أعلاه، من دنيا الملاليم إلى دنيا الملايين في وثبة واحدة، دون أن نرى من يقول له: من أين لك هذا؟ وآخرين يعيشون أعمارهم جاهدين مجاهدين، ولم يحصلوا غير العرق والدموع.

في كل بلد من بلداننا نجد أفرادا محظوظين أو أسرا محظوظة، هم الذي تتقاطر عليهم الملايين بل البلايين، وتفتح لهم الأبواب المغلقة، وتتاح لهم الفرص النادرة، وتمنحهم البنوك من التسهيلات ما لا يمنح لسواهم، فضلا عما لهم من الاحتكارات و الامتيازات الطبقية، التي تمكنهم من امتلاك الثروة الهائلة والأرباح الضخمة، بدون مجهود يذكر. وبذلك تتركز الثروة في أيدي فئة قليلة، والآخرون ينظرون إليهم متحسرين حاسدين.

ومن لوازم ذلك: أن هذه الأصناف من الناس لا تطمئن إلى أن تبقى أموالها في أوطانها، فلذلك تضعها في البنوك الأجنبية، التي يحسبون فيها لهم الأمان والضمان.

هذا التوزيع الجائر للثروة يقسم الشعب الواحد إلى طبقات متصارعة، يكره بعضها بعضا، ويضعف من ولاء الجماهير المسحوقة لوطنهم، فهم يقولون: إن هذا الوطن ليس لنا، وإنما هو لفلان وفلان، فلهم منه التمر ولنا النوى، ولهم اللب ولنا القشر، ونحن في همهم مدعوون وفي فرحهم منسيون، أو كما قال الشاعر قديما:

وإذا تكون كريهة أدعى لها ... وإذا يحاس الحيس يدعى جندب!

وعندما قامت الثورات في عدد من البلاد العربية، وأسقطت الملكيات التقليدية، وما وراءها من احتكارات للأسر المالكة، وأوليائها من الباشوات، توقع الناس عهدا جديدا من العدالة الاجتماعية تنعم فيه الطبقات المستضعفة بنصيبها من ثروة بلادها. وفعلا وزعت بعض الأراضي الزراعية على بعض الفلاحين، ولكن سرعان ما ظهرت طبقات طفيلية جديدة، حلت محل الطبقات الأرستقراطية القديمة، وذهب (الباشوات) القدامى وجاء (باشوات جدد)، ولكن ليس فيهم فضائل الباشوات، ولا أصالة الباشوات. لقد كان الباشوات القدامى ينتفع من ورائهم أسر كثيرة، وكانت بيوتهم مفتوحة، وأيديهم مبسوطة. أما الباشوات الجدد، التي أطلق الناس عليهم اسم (القطط السمان) فليس لهم من الباشوات القدماء إلا شهوة التملك واحتكار الامتيازات.

الإخفاق في مجال المرأة

٨ ـ ومن المجالات التي أخفقنا فيها إلى حد كبير : قضية المرأة، التي ضاعت بين طرفي التفريط والإفراط، أو بين جاهليتين، كما قال صديقنا الأستاذ عبدالحليم أبو شقة رحمه الله : جاهلية القرن الرابع عشر ـ ويعني بها : التي ورثت عن عصور الانحطاط في تاريخنا الإسلامي تقاليد التضييق على المرأة ـ وجاهلية القرن العشرين. ويعني بها : التي نقلت عن الحضارة الغربية تقاليد التحلل للمرأة من فضائل العفة والإحصان والحياء والاحتشام.

لقد رأينا من ذلك عجبا. رأينا الذين يمنعون الخاطب أن يرى مخطوبته مجرد رؤية، رغم الأمر النبوي الصريح للخاطب أن يرى مخطوبته، فإنه أحرى أن يؤدم بينهما. بل نرى منهم من لا يسمح للعاقد ـ وهو زوج شرعا ـ أن يرى زوجته التي عقد عليها، وهو ما يحدث في كثير من بلاد الخليج، فلا يراها إلا ليلة الزفاف! هذا مع أنها تذهب إلى المدرسة أو الجامعة، أو السوق، أو تسافر إلى القاهرة أو بيروت أو لندن أو باريس، ويراها كل الناس ما عدا زوجها المسكين!

وفي مقابل هؤلاء : قوم آخرون، يدعون للخاطب ومخطوبته ـ وهي لا تزال أجنبية منه ـ الحبل على الغارب، يتأبط ذراعها، ويذهب بها إلى حيث يشاء أو تشاء، إلى السينما أو المسرح، أو المنتزهات أو الأندية، أو ما شئت من هذه المسميات.

وهكذا ضاعت المرأة المسلمة بين المتنطعين والمتسيبين، وكلاهما بعيد عن جادة الشرع الحنيف.

لقد رأينا الذين يضيقون على المرأة، فلا يسمحون لها أن تقود السيارة، ولا بأن تعمل خارج البيت إلا للضرورة، ولا يجيزون لها أن يكون لها دور في المشاركة السياسية في شئون وطنها، وإدارة مجتمعها، فلا تعطي صوتها في الانتخاب، ناهيك بأن ترشح نفسها عضوا في مجلس الشعب أو النواب أو الشورى ـ سمه ما تسميه ـ والعجيب أن يتم هذا التضييق باسم الإسلام وأحكام شريعته.

هذا مع أن الله تعالى يقول: ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة**﴾ [التوبة: ٧١]. وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي محور الواجبات الاجتماعية والسياسية، وهي إحدى الوظائف الأساسية للدولة المسلمة إذا مكنت في الأرض ﴿**أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر**﴾ [الحج: ٤١] وقد جاء قوله تعالى: ﴿**والمؤمنون والمؤمنات... الآية**﴾ في مقابل قوله تعالى: ﴿**المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف...**﴾ [التوبة: ٦٧]. فإذا كان المنافقات يقمن بدورهن ـ مع المنافقين ـ في إفساد المجتمع، والتلبيس عليه، وتبديل قيمه الأساسية، حتى ليأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، فإن على المؤمنات أن يقمن بدورهن المضاد والمصحح ـ مع المؤمنين ـ فيأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر.

ونرى القرآن يقول في جلاء وبيان: ﴿ **فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض**﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ومعنى ﴿ **بعضكم من بعض**﴾ أن الرجل من المرأة، والمرأة من الرجل، هو يكملها، وهي تكمله، فلا غنى بأحدهما عن الآخر، على سنة (الزوجية) المثبوتة في الكون كله.

وليست المرأة ضدًا للرجل، ولا خصمًا له، كما قد فهم من تصور الحضارة الغربية للمرأة.

ثم ذكرت الآية الكريمة بعد قوله: ﴿**بعضكم من بعض**﴾ قوله تعالى: ﴿ **فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا (أي من الجنسين) لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات**﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وهذا ما أثبته التاريخ، فقد وجدنا من النساء من هاجر في سبيل الله إلى الحبشة وإلى المدينة، ومن أوذيت في سبيل الله، حتى إن أول شهيد في الإسلام لم يكن رجلا،

وإنما امرأة، وهي سمية أم عمار بن ياسر، استشهدت هي وزوجها ياسر تحت العذاب. ومن قاتلت في سبيل الله كما رأينا أم عمارة نسيبة بنت كعب وغيرها في غزوة أحد وفي غيرها.

لقد رأينا من المسلمين ـ إلى اليوم ـ من يمنعون المرأة من الصلاة في المساجد، ومن الذهاب إليها لاستماع المحاضرات والدروس، خشية الفتنة! وهذا مخالف لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»[1] ومخالف لما كان عليه نساء الصحابة في عصر النبوة من حرصهن على الصلاة في المسجد مع الجماعة، الصلوات الخمس كلها، حتى العشاء والفجر، مع أن الطرق لم تكن معبدة، ولا مضاءة بأي نوع من المصابيح في ذلك الزمان.

وقد ذهبت إلى الهند وباكستان وغيرهما، وألقيت محاضرات في مساجد شتى في مناطق متعددة، فلم أجد امرأة واحدة، تشهد هذه المحاضرات، ولما سألتهم عن سبب ذلك، قالوا: المذهب يمنع ذلك. قلت لهم: إن المرأة قد ذهبت إلى المدرسة وإلى الجامعة، وإلى السوق، وإلى العمل، وسافرت إلى الخارج، فهل بقي المسجد وحده هو المحرم عليها؟

ولماذا تحرم المرأة المسلمة من الذهاب إلى بيت ربها، في حين تذهب النصرانية إلى كنيستها، واليهودية إلى بيعتها، والوثنية إلى معبدها؟

إن أئمة المذهب الذي يستندون إليه، لو رأوا هذه المفارقات، لغيروا فتواهم، وأجازوا للمرأة أن تشهد المساجد اليوم، لتستفيد منها العلم والمعرفة، وتتفقه في دينها، وتتعرف على أخواتها المؤمنات.

ورأينا بعض المسلمين يتشددون، فيحرمون على المرأة أن ترى رجلاً أو يراها رجل، ويستدلون على ذلك بحديث ضعفه العلماء، وهو ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لاثنتين من أزواجه، وقد أقبل ابن أم مكتوم: «احتجبا عنه» فقالتا: إنه رجل أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا! فقال: «أفعمياوان أنتما ألستما تبصرانه؟»[2].

كما استدلوا بحديث آخر أشد منه ضعفاً بالإجماع، وهو أنه عليه الصلاة والسلام

(١) متفق عليه عن ابن عمر، كما في اللؤلؤ والمرجان (٢٥٤).

(٢) رواه أبو داود عن أم سلمة (٤١١٢) والترمذي (٢٧٧٩) وقال: حسن صحيح، وتعقبوه بأن في مسنده نبهان مولى أم سلمة وهو مجهول، لم يوثقه غير ابن حبان.

سأل ابنته فاطمة رضي الله عنها: أي شيء أصلح للمرأة؟ قالت: أن لا ترى رجلا، ولا يراها رجل، فقبلها، وقال: «ذرية بعضها من بعض».

وكلا الحديثين مناقض للأحاديث الثابتة في الصحيحين الوفيرة في لقاء النساء للرجال، والرجال للنساء في المساجد للصلاة، ولدروس العلم، وفي المناسبات المختلفة في الأعياد والأعراس، والقتال، وغيرها.

وما صح أن الرسول الكريم ﷺ أذن لزوجه عائشة أن تنظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم في المسجد، حتى اكتفت وقالت: حسبي ذلك.

وما صح أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر فاطمة بنت قيس: أن تقضي عدتها في بيت ابن أم مكتوم، قال: إنه رجل أعمى، تضعين ثيابك عنده ولا يراك[1].

ومن المؤسف حقًّا: أن نجد الكثيرين من المسلمين يدعون الأحاديث الصحاح المحكمات، ويتشبثون بأحاديث واهية أو موضوعة، مثل: «لا تعلموهن الكتابة» أو «شاورهن وخالفوهن».

ومن المتشددين في شأن المرأة: من لا يكتفي بالقول بأن وجهها وكفيها عورة يجب سترها، بل يزيد على ذلك فيقول: إن صوتها عورة، فلا يجوز لها أن تكلم رجلا، ولا يكلمها رجل.

وهذا أمر لا دليل عليه من كتاب ولا سنة، وقد رأينا القرآن يقص علينا من أنباء الأمم والنبيين من قبلنا ما يدل على أن كلام المرأة للرجل وكلام الرجل للمرأة أمر مشروع لا ريب فيه، ما دام في حدود المعروف. كما رأينا كلام موسى للفتاتين وجوابهما له في مدين، ومجيء إحداهما إليه، وحديثها معه، وحديثها عنه أمام أبيها. كما جاء في سورة القصص.

ومثل ذلك كلام زكريا مع مريم، وردها عليه، ولم يكن محرما لها، فقد كان زوج خالتها. كما جاءت في سورة آل عمران.

وكذلك كلام ملكة سبأ لقومها، وجوابهم لها، وكلامها مع سليمان وأصحابه.

---

(١) انظر حول هذه القضايا: كتابنا (فتاوى معاصرة) جـ ٢/ ٢٦١ ـ ٣٠٢.

الأمر المحظور هنا هو (الخضوع بالقول) أي التكسر فيه بحيث يحمل الإغراء والفتنة للرجال، وخصوصًا ذوي القلوب المريضة بالشهوة وطغيان الغريزة على العقل، وهو ما ذكره اللـه تعالى في خطاب (نسـاء النبي) حين قال: ﴿**يا نسـاء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فـلا تخضعن بالقـول فيطمع الذي في قلبه مـرض وقلن قولاً معـروفًا**﴾ [الأحزاب: ٣٢].

فـرغم أن نسـاء النبي ﷺ عليهن من التغليـظ والتشـديـد مـا ليس على غيرهن من النساء، لم يمنعهن القرآن من القول المعروف، وإنما منعهن من الخضوع بالقول حتى لا يطمع الذي في قلبه مرض.

وقد كان أمهات المؤمنين يكلمن الصحابـة والتابعين من وراء حجاب، ويروين لهم الأحاديث، ويفتين من يسألهن الفتوى في أمور الدين، ولم ينكر ذلك عليهن أحد.

ورأينـا من المسـلمين - إلى اليـوم - من يستحـي من ذكر اسم امرأته أو أمه أو أخته، ويرى ذلك عيبا أو غير لائق. فيقولون عن الزوجة: الجماعة أو الأولاد، أو العائلة، أو نحـو ذلك. مع أن النبي عليـه الصلاة والسـلام كـان يـذكر أزواجـه أمهـات المؤمنين بأسمائهن بـلا حرج، كما قـال للأنصـاريين اللـذين مرا بـه وهو معتكف في المسجـد، فأسرعا الخطا، فقال لهما: «على رسلكما، إنها صفية بنت حيي» أي زوجه عليه السلام.

ومظاهر التشديد والتضييق على المرأة كثيرة تكفينا منها هذه الإشارات.

وفي مقابل هـذا الغلو في الإفراط نجـد الغلو في التفـريط في شأن المرأة، من جانب المتسيبين والمتحللين، الذين أرادوا أن يقلدوا الحضارة الغـربية تقليد القردة، وأن يسيروا وراء فلسفتها الإباحية شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلت جحر ضب لدخلوه، كما تنبأ بذلك الحديث النبوي الصحيح.

والعرب يضربون (جحـر الضب) مثلا في الضيق والالتواء وسوء الـرائحة، ومع هذا لو دخل الغربيون جحر ضب، لظهرت (مودة) في بلادنا تسمى (مودة جحر الضب)، لفقد الأمة أصالتها وذاتيتها، وتقليدها لغيرها تقليدًا أعمى.

وأظهر ما يكون ذلك في قضية المرأة: في تفكيرها وفي سلوكها، في ملابسها وزينتها، في لقائها بالرجال الأجانب عنهـا، في خطوبتها وزواجها، في تمردها على قيود الزوجية، بل تمردها على أنوثتها نفسها.

لقد رأينا المرأة المسلمة تقلد المرأة الغربية، فتتمرد على فطرتها التي فطرها الله عليها، ولا تريد أن تعترف بالفوارق البيولوجية الطبيعية بين الرجل والمرأة، وأن هذا لم يكن عبثا ولا اعتباطا، ولكن هذا الخلق لحكمة يعلمها الله. فاستجاب النساء للشيطان الذي أمرهن ليغيرن خلق الله تعالى، فرأينا المرأة تلبس لبسة الرجل، كما رأينا من الرجال من يلبس لبسة المرأة، وقد لعن رسولنا الكريم المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء.

ورأينا من سماهن الرسول ﷺ في حديثه «الكاسيات العاريات، المميلات المائلات، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها» رواه مسلم.

وإذا كان في المضيقين على المرأة من يمنعها من إظهار شيء من بدنها إلا عينيها، بل حرم بعضهم إظهار عينيها، فلا تكاد ترى في المرأة سوى خيمة سوداء، فقد رأينا في دنيا المقلدين للغرب، من لا يكتفي بكشف الوجه واليدين للمرأة، بل يضم إلى ذلك الرأس والذراعين، بل العضد والنحر والساقين وما فوق ذلك، مما يسمونه (الميني جيب) و(الميكروجب) ونحوها. على أن الجزء المكسو من المرأة لا يستر حقا، بل يشف ويصف، ويجسم المفاتن، تبعا لفلسفة اللباس والزينة في الحضارة الغربية المعاصرة: أنها ليست للستر، ولكن للإثارة، وأن (الفتنة) التي يحذر منها الإسلام هي الهدف الذي تسعى إليه المرأة الغربية، والمفتونات بمحاكاتها من بناتنا ونسائنا.

ورأينا من النساء في ديارنا العربية والإسلامية من يرفضن أحكام الشريعة الإسلامية جهرة، ومنهن من لا يعلنّ ذلك، ولكن يفسرنها بأهوائهن تفسيرا يجعلها تابعة للمفاهيم والتقاليد والأوضاع الغربية.

فمنهن من ترفض الطلاق، ومنهن من ترفض تعدد الزوجات، ومنهن من ترفض قوامة الرجل ومسئوليته عن البيت، ومنهن من ترفض دفع الرجل المهر، ومنهن من ترفض حكم الله في الميراث، وهؤلاء هن أسيرات الفكر الغربي العلماني، وهن لاشك قلة لا وزن لها في مجتمعاتنا، ولكن (الإعلام) يضخم دورهن، ويعلي صوتهن، ويوصله إلى أوسع الآفاق.

ولو أن هؤلاء طالبن بتصحيح الفهم، وتصحيح السلوك، والالتزام بوسطية الإسلام في هذه القضايا ورفض الآراء المشددة بغير حق، لرحبنا بذلك كل الترحيب، وفتحنا لهذا النهج صدورنا.

وآخر (البدع) التي سمعناها في هذا المجـال؛ ما صدر عن مؤتمر عن المرأة، عقد في القاهرة منذ شهر أو شهرين، طـالب فيه المؤتمرات والمؤتمرون بإلغاء (عدة المرأة) المطلقة والمتوفى عنها زوجها! والاستغناء عنها بالكشف الطبي.

وهذه جـرأة غير معهودة تصـدر من بلد الأزهـر، فقضية (العدة) ليسـت قضية من اجتهاد الفقهاء، حتى نقول: اجتهدوا لزمانهم، ونجتهد لزمننا، بل هي (قضية قرآنية) أعني أن القـرآن الكريم نص عليهـا بآيات صريحة في كتـابه في سـورة الطـلاق الكبرى ـ سورة البقرة ـ وسورة الطلاق الصغرى، المعروفة باسمها، وأكدها إجماع علماء الأمة في جميع المذاهب والمدارس، وهو إجماع أكده العمل من الأمة، المستمـر أربعة عشر قرنا، أو تزيد.

والعدة ليست لاستبراء الرحم فحسب، وإلا لكفت في ذلك حيضة واحدة، وكفى في ذلك شهر ونحـوه للمتوفى عنهـا زوجها، ولكنهـا سياج للحياة الـزوجية السـابقة، ولتظل المرأة مرتبطة بـالرجل بهذا الخيط، وهذا يوجب لها النفقة منه، وتـرثه إذا مات في العدة، وحتى تكون فرصة كافية للمراجعة، فقد تعود المياه إلى مجاريها.

ولكن مما نحمد الله عليه أن هذه الصيحـات الناشزة والشاذة لم يقم لها أحد وزنا في مصر، ولم يظهر لها أي أثر في التعديل الأخير لقانـون الأحوال الشخصية، والذي أحدث ضجة كبرى، لخروجـه في بعض مواده على المعهود في فقه المذاهب الأربعـة، مثل إجبار الـزوج على قبـول الخلع إذا ردت المرأة مـا دفع إليهـا، مـا دامت كـارهـة لـه ولا تطيقـه بغضا. ولكن كان هذا التعديل في إطار اجتهاد معتبر داخل الفقه الإسلامي.

أما الشيء الذي يستنكر حقـا، فهو ما تدور رحاه اليوم في (المغـرب)، حول ما سمى (خطة العمل الوطنية لإدراج المرأة في التنمية) فهذه الخطة ـ للأسف ـ ليست وطنية، ولا عربية، ولا إسلامية، بل هي غريبة عن الأمة وشريعتها، غريبة المصدر والهدف والفكرة والروح، وهي تريد أن نسوي المرأة بالرجل تماما وفي كل شيء، على خلاف قوانين الفطرة التي فطر الله الناس عليها. والقضاء على كل أشكال التمييز بين الجنسين.

إن مرجعيتهـا ليست شريعـة الإسلام، بل وثيقـة مؤتمر السكـان بالقـاهرة (١٩٩٤) وثيقة مؤتمر المرأة في بكين (١٩٩٥) وهما مرفوضتان عربيا وإسلاميا في كثير من موادهما.

فهي تريـد منع تعدد الـزوجات ، وهـو مما أحله اللـه بشروطه للمسلمين ، وتـريد أن تأخذ المرأة المطلقة نصف ممتلكـات زوجها ، كما هو المعمول به عند الغـربيين ، وتريد ألا يعتـد بـالطـلاق إلا عنـد القـاضي ، وتـريـد إلغـاء درجـة القـوامـة التي جعلهـا اللـه للرجل ، والتسوية بين الذكر والأنثى في الميراث في كل صوره .

وقـد وقف جميع علماء المغـرب ، ووزارة الأوقـاف ، والجماعـات الإسـلاميـة وجماهير الشعب المغـربي ضـد هـذه الخطـة المستغـربة ، المفتـاتـة على عقيـدة الأمـة وشريعتهـا وأخـلاقيـاتها وأعرافهـا ، والتي وضعتهـا مجموعة تـريـد أن تفـرض على الأمة مـا تأبـاه طبيعتها ، وما تنكره شريعتها ، وما يرفضه جميع فقهائها ، وترفضه كذلك جماهيرها .

وهـذا لا يعني إغـلاق البـاب في وجـه التعـديـلات التي تنطلق من داخل الفقـه الإسلامي ، وفي إطـار شريعته الرحبـة ، بكل مذاهبها ومشـاربها ، على أن يقوم على ذلك علماء يعتد بهم ، غير متعصبين لرأي قديم ، ولا مستبعدين لفكر حديث .

وهكذا رأينا قضية المرأة ضاعت بين غلو الإفراط وغلو التفريط .

الإخفاق في التربية الأخلاقية للأمة

٩ ـ وآخر هذه الإخفاقات: هو الإخفاق في التربية الأخلاقية للأمة، حتى شاع في جنباتها التسيب والانحلال، وأعرضنا عن قيمنا الأصلية، التي جعلت منا خير أمة أخرجت للناس، واستبقينا قيما ورثناها من عصور الانحراف والانحطاط، مثل التجبر على الضعفاء، والخضوع للأقوياء، أو للأغنياء، والبخل على الفقراء، واستباحة المال العام، والاحتقار للمرأة، وإهمال الشأن العام، وشيوع النظرة الجبرية، وغير ذلك من الرذائل.

وأضفنا إلى القيم الهابطة الموروثة من عصور التراجع والانحطاط: قيما أشد منها هبوطا، وهي قيم غريبة عنا، بل دخلت علينا، وشابت نسيج حياتنا، ولوثت نظام قيمنا، وطرائق سلوكنا، مثل النظرة المادية والنفعية والفردية، وشيوع المسكرات والزنى والتحلل من أخلاق العفاف والإحصان وغيرها

فلا غرو أن انتشرت المخدرات والسموم البيضاء بين الشباب بواسطة تجارها الذين يكسبون المليارات من وراء ترويجها، وتكسبهم الأموال نفوذًا وسطوة، حتى استطاع بعضهم أن يدخل تحت قبة البرلمان، وأن يشتري الكرسي بماله، ويشتري من رجال الحكم من يهيئ لـه ذلك، فكل مسئول عنده لـه ثمن، وإن غلا وارتفع في بعض الأشخاص عن بعض.

وانتشرت تجارة الدعارة بين الفتيات، عن طريق أولئك الذين لا يبالون أن يكونوا ثروتهم على حساب الأخلاق والحرمات، ويدوسون كل القيم في سبيل مكاسبهم المادية.

وانتشرت هـذه (البلطجة) التي تستخـدم العنف لتنفيذ مـا تريـد، وسحق كل من يقف في طريقها، ولم تجد من يحاربها كما حوربت جماعات العنف الديني.

ووجدنـا من الجرائم البشعة ما لم يحدث مثله قط في الأزمنـة الماضية، مثل قتل الابن أباه وأمه، وعمته وخالته، وقتل المرأة زوجها، والرجل لزوجته، وغير ذلك بطرق شنيعة بشعة، كتقطيـع الجثة قطعـا قطعا، ولفها في أكيـاس، وإلقائهـا في صناديـق القمامة، ونحو ذلك مما تشيب له الولدان.

ورأينا جريمة (الاغتصاب) تشيع للأسف في بعـض مجتمعاتنا، ولم تكن معروفة فيها من قبل، رأينا كيف تختطف المرأة من عرض الطـريق، لينهش لحمها الناهشون، ويفتك بعرضها المجرمون.

وحـين قلدنا الغـرب، أخذنا أسـوأ ما عندهم من رذائـل الانحـلال والإباحية، ولم نأخذ أحسن ما عندهم من العلم والتعـاون، وحسن الإدارة والتنظيم، والمعرفة بحقوق الآخرين.

لقد شاعت بيننا رذائل الأنانية والاستبـداد والرشوة، واتباع الهوى، ومراءاة الناس، وتزويق الظاهر، وإن كان الباطن خرابا، وحلاوة اللسان وإن كان القلب كالعلقم.

وقد قال شوقي:

وإنما الأمـم الأخـلاق ما بقيت　　فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقال:

على الأخلاق خطوا المجدا وابنوا　　فليـس وراءهـا للمجـد ركـن

لم نأخـذ من فضـائل الغـرب: حبهـم للعمـل، وتفـانيهم فيـه، وحـرصهم على إتقانه، وهذا سر تفوقهم الصـناعي، وغـزوهم للعـالم بمصنوعاتهم. وقـد نافسـهم في ذلك اليـابانيون، بل تفـوقوا عليهم، بخـلاف مـا نحـن عليه، مما لا يخفي على دارس أو مراقب.

لقد حسبت ساعات العمل في إحدى دولنـا الكبيرة منذ سنوات، فوجد أن متوسط عمل الفرد حوالي نصف ساعة، فكيف يـرقى شعب تضيع أوقاته سدى، وينفق أعمار

أبنـائه فيما لا يجدي؟ كـالذين قـال اللـه فيهم : ﴿**فخلف من بعـدهم خلف أضاعـوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا**﴾ [مريم : ٥٩] .

إن الأخلاق ليست ترفا في الأمم، بل هي ضرورة لنهوضها ورقيها وتماسكها، أما إذا غاب العنصر الأخـلاقي في السلوك، وحكمت المنـافع والشهوات، فمعناهـا : سيادة (المافيا) بكل أنواعهـا، وانتشار المخدرات والسموم، وتجار الـدعارة، وبيع المناصب، وإضـاعة المال العـام بغير حساب، واختراق الجواسيس لحرمـات الأوطان عن طـريق الخمر والجنس والمال، وهنا يكون العيش مرا، والحياة عبثا، ويتمنى الناس الموت، كما في الحديث الذي رواه الترمـذي : « إذا كان أمـراؤكم خياركم، وأغنيـاؤكم سمحاءكم، وأمركم شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم مـن بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأمركم إلى نسائكم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها» .

وقد وضع الحديث عبارة «أمركم إلى نسائكم» مقابل « أمركم شورى بينكم» إشارة إلى حكم الاستبداد والتسلط التـي تحكم فيه نساء القصـور من وراء ستار، كما قـالت امرأة العزيز عن يوسف : ﴿**ولقد راودتـه عن نفسه فـاستعصم ولئن لم يفعل ما آمـره ليسجنن وليكونًا من الصاغرين**﴾ [يوسف : ٣٢] . ولقد هددت ونفذت .

ولقد أثبتت تجارب الحيـاة أن بذور الأخلاق لا يمكن أن تستنبت إلا في تربـة الدين ومناخ الإيمان . أمـا حين تسود الفلسفـة المادية والنفعية والإبـاحية، فهيهـات أن تسود القيم والفضائل .

في إحدى الفضائح المالية الشهيرة التي حوكم فيهـا بعض الوزراء في بريطانيا، كتب القاضي الذي حكم في القضيـة في نهاية أسباب الحكم هذه العبارات : بـدون قانون لا تستقر أمة، وبدون أخلاق لا يحترم قانون، وبدون إيمان لا تسود أخلاق .

تحديات الأمة
في القرن الحادي والعشرين

- ☐ تحدي الهوية
- ☐ تحدي المرجعية
- ☐ تحدي التخلف
- ☐ تحدي التنمية
- ☐ تحدي العدالة
- ☐ تحدي المرأة
- ☐ تحدي الاستبداد
- ☐ التحدي الأخلاقي
- ☐ التحدي الصهيوني
- ☐ تحدي التجزئة
- ☐ تحدي العولمة

تحـديات الأمـة في القـرن الحـادي والعشـرين

على ضوء ما ذكرنا من إخفاقـات لأمتنا في مختلف جوانب الحياة، نستطيع أن نحدد ما يطلب من أمتنـا، وهي تستقبل هذا القرن الجديد، أو هذا الألـف الثالث للميلاد، إذ لا بد لنـا أن نتتبع مواضع الإخفاق، مجتهديـن بكل طاقاتنا، أن نحـول الإخفاق إلى نجاح، وهذه هي التحديات التي يجب أن نواجهها بوعي وشجاعة وبصيرة. وما الذي يحول بيننا وبين ذلك إذا وعينا ما نريد، وهيأنا له الوسائل الملائمة، وجندنا له الطاقات والقدرات، وصممنا على تحقيقه بإيمان وإصرار، ولا يوجد في الدنيا شيء مستحيل أمام الإيمان الصـادق، والعـزم المصمم، والبصيرة النيرة، وقد قيل: إذا صـدق العـزم وضح الطريق، وقال تعالى: ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فينبغـي لنـا أن نسـتعد لهذا القـرن بما ينبـغي له إيمانيًّـا وأخلاقيًّـا فكريًّـا وعمليًّا. وذلك بما يلي:

تحدي الهوية:

١ـ أن نعلن بوضـوح عن هويتنا، ونعرف من نحن؟ ولمن انتماؤنا؟ وهل لنا شخصية مستـقلة أو نحـن تابعـون لغيرنا؟ وبعبـارة أخرى: أنحن رأس في هذا العالم أم ذيل؟

والـذي لا ريب فيـه: أن لنا هـويـة متميـزة، وشخصية مستقلـة، وانتماء واضحًـا

كـالشمس في رابعة النهـار، فنحن مسلمون قبل كل شيء، وإذا كنـا مسلمين، فنحن أصحاب رسالـة، وحملة دعوة عالميـة، دعوة متميزة بربـانيتها وإنسانيتها وأخـلاقيتها، والأمـة مبعوثـة بما بعث به رسـولها الـذي خاطبـه ربه فقـال: ﴿ومـا أرسلنـاك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبيـاء: ١٠٧]، وقـال عن نفسـه: « إنما أنـا رحمة مهـداة »[١] وقـال عن رسـالتـه: « إنما بعثت لأتمم مكـارم الأخـلاق »[٢]. وقـال مـوجهـا لأمتـه: « إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين »[٣].

ويجب على الأمة أن تعتـز بهذه الهوية التي تجعلها في العالم رأسًا لا ذنبًا، وأن تعلن ما أعلنه عمر بـن الخطاب بصراحة: حين قال: نحن كنـا أذل قوم فأعزنا اللـه بالإسلام، فمهما نطلب العز بغيره أذلنا الله.

وإذا أعلنا أننـا مسلمون، فهذا لا ينفى أننا ـــ في هذه المنطقة من الأرض ـ عـرب لنا خصوصيتنا.

وأود أن أبين هنا بجلاء أنه لا تناقض بين الإسلام والعروبة، إلا إذا كانت العروبة لا دينية، أو كان الإسلام شعوبيًّا.

فالعـربية لسان الإسلام، والعـروبة وعاؤه، والعـرب حملة رسالته الأولـون، وكتاب الإســلام عـربي، ورسـول الإسلام عـربي، وأرض العـرب هي منطلق الإســلام، وفيهـا مقدساته ومساجده الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها.

فينبغي أن يتفاهم الإسلاميون والعروبيون الوعاة المخلصون، ويتعاونوا على النهوض بالأمـة: مسلموهم ومسيحيـوهـم. المسلم يؤمن بـالإسلام عقيـدة وشريعة، والمسيحي يؤمن بالإسلام ثقافة وحضارة. فهذا هو التحدي الأول.

---

(١) رواه الـدارمي في سننه ص ٩ وابن سعـــد والحكـيم الترمذي عن أبي صـالح مرسـلا، والحـاكم عنه عـن أبي هريرة، وذكره الألباني في سلسلة (الصحيحية) برقم (٤٩٠).

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات، وأحمد في المسند، والبخاري في الأدب المفرد، والحاكم في المستدرك والبيهقي في الشعب، وذكره الألبـاني في الصحيحة بـرقم (٤٥) وفي صحيح الجامع الصغير (٢٣٤٩) وأكثر الـروايات بلفظ: (صالح الأخلاق).

(٣) رواه البخاري في كتاب الوضوء (٥٨) عن أبي هريرة.

تحـدي المـرجعية :

٢- والتحدي الثاني: أن نحـدد ـ بناء على ذلك ـ مرجعيتنـا الأساسية التي نحتكم إليها إذا اختلفنا، ونستقي منهـا قيمنا وأسس حياتنا، وهي بـلا ريب: الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقا وقيما وآدابا ورابطة وثقافة وحضارة متكاملة.

ولا أعني بالإسلام: إسلام عصر من العصور، ولا إسلام مذهب من المذاهب، ولا إسلام بلـد من البلدان، ولا إسلام مـدرسة من المدارس، إنما أعني بـه (الإسلام الأول) إسلام القـرآن والسنة، الإسـلام قبل أن تشوبه الشـوائب، وتخالطه البـدع، وتفترق فيه الفرق، وتعتسف في تفسيره وفهمه التأويلات.

ولا مناص لنـا من أن نتبنَّى تيار (الوسطيـة الإسلامية) وهو التيـار المعبر عن وسطية الإسـلام، ووسطية أمتـه التي امتن اللـه بها عليهـا في قولـه: ﴿ **وكذلك جعلنـاكم أمة وسطًا**﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهـو التيار الـذي يجمع بين الإيمان والعلم، ويوفق بين العقل والنقل، ويـربط بين الدنيـا والآخرة، ويرحب بكل جديـد نافع، كما يستفيد من كل قديم صـالح، ويؤمن بالثبـات في الأهداف والكليات، وبالمرونـة في الوسائل والجزئيات، ويـوازن بين ثوابت الشرع ومتغيرات العصر، يستلهم الماضي، ويعـايـش الحاضر، ويستشرف المستقبل. يـدعو إلى الـرفق في الـدعـوة، والتيسير في الفتوى، والحوار مع الآخـر، والتسـامح مع المخالف، والتدرج في التغيير. يـدعو إلى الاجتهـاد بشروطه، والتجـديد بضوابطه، لا يفـْـرط ولا يفـرّط، ولا يغلـو ولا يتنطع، بل يبني ولا يهدم، ويجمع ولا يفـرق، ويحيي ولا يميت.

وحين نتخـذ الإسلام مـرجعا لحيـاتنا كلهـا، نسلم من التناقض والتمـزق بين شرق وغـرب، ويمين ويسـار، ونلتقي على كلمـة سـواء، هي كلمـة الله، وحكم شريعتـه ﴿**وأن هـذا صـراطي مستقيماً فـاتبعـوه ولا تتبعـوا السـبل فتفـرق بكم عن سبيلـه**﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وبذلك نحقق ما تنادت به شعوبنا من ضرورة العودة إلى شرع الله، في ضوء اجتهاد عصري قويم، صادر من أهله في محله، ينظر إلى التراث بعين وإلى العصر بأخرى.

وموجب هـذا : أن نحدد رسالتنـا في هذا الوجود ، فنحن أصحـاب رسالة عـالمية ، ونحن مبعوثون للأمم كافة بما بعث به رسولنا الذي خاطبه ربه فقال : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

وعلينا ـ نحن أمـة الإسلام ـ أن نوصل هـذه الرحمة المهداة من السماء إلى أهل الأرض كافة ، بالبلاغ المبين ، وبلسان كـل قوم لنبين لهم ، وبلسان هذا العصر لا بلسان عصور سلفت ، حتى تكون لنا حجة إذا سألنا ربنا يوم القيامة : هل بلغتم دعوتي إلى العالمين؟

ويجب علينـا أن نستخدم كل أدوات العصر وآليـاته المتطـورة والهائلة ؛ من الكلمـة المقـروءة ، والكلمة المسمـوعـة ، والكلمة المرئيـة . وبعبـارة أخـرى : نستخدم المطبعـة الحديثـة ، والإذاعـات الموجهـة ، والقنـوات الفضـائيـــة التي تصل إلى أنحـاء العـالم ، ونستخدم هذه الوسيلة الحديثة الجبارة : شبكة (الإنترنت) لدعوة غير المسلمين بلغاتهم المختلفـة ، ولتعليـم المسلمين أيضًـا الإســلام الصحيح ، بعيـدًا عن تحريـف الغـالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

وهذا ما جعلنا ننشئ موقعنا العـالمي الرائد ، لخدمة الإسلام على هذه الشبكة ، وهو مشروع Islam On Line وهو ينطلق من قطر ، ولكنه مشروع الأمـة كلها ، وقد سميته (جهاد العصر) فهو يغنينـا عن تجييش الجيوش ، وتجنيد الجنود ، لتـوصيل دعوة الإسلام إلى الأقطار البعيدة .

تحدي التخلف :

٣ ـ ولابد لنا من وضع خطة للخروج مـن سجن التخلف إلى باحة التقدم ، فقد كنا نحن الأمة الأولى والعالم الأول مـا يقرب من عشرة قرون ، وكانت حضـارتنا هي السائدة والمعلمة للعالم ، فليس التخلف من طبعنا ولا طبيعة ديننا ، ولا يجوز ألا نواكب الثورات التي يشهـدهـا عـالمنا وعصرنـا : الثـورة التكنـولـوجيـة ، والثورة الإلكترونيـة ، والثـورة البيولوجية ، والثورة الفضائية ، والثورة المعلـوماتية ، وثورة الاتصالات ، ونوجهها لخدمة القيم العليا : الحق والخير والجمال ، وكلها تتجسد في رسالة الإسلام .

لا يجوز أن نستخدم أدواتنا التقليدية في عصر الكمبيوتر ، وعصر الإنترنت !

وذلك يتطلب منا أن نغير من أنظمتنا وفلسفتنا التعليمية، التي لا تخرج مثقفين ولا مبتكرين، وأن نوجه عناية خاصة إلى النبوغ والإبداع، ونستعيد العقول المهاجرة إلى أوطانها، وأن نلزم أنفسنا بخطة صارمة نقضي فيها على الأمية التي غدت نقطة سوداء في جبيننا، مع أن نبينا الأمي هو أول من حارب الأمية، ودعا إلى تعلم القراءة والكتابة. وعلينا أن نجند جيوش الطلبة والطالبات في الإجازات الصيفية لتعليم الأميين، وكل من كان دون الخمسين من عمره. حتى نقضي على الأمية في عشر سنوات، أو عشرين سنة إن كنا صادقين.

ولابد لنا من تهيئة مناخ صحي للإبداع والابتكار، وذلك بتوفير الكفاية والأمن والحرية، حتى يشعر الناس أنهم مطمئنون في حياتهم، غير خائفين على أنفسهم ولا أهليهم ولا حرماتهم، فينطلقوا إلى الأمام في غير قلق ولا وجل. فالقلق لا يحسن الإنتاج، والخائف لا يقدر على الإبداع، والجائع لا يستطيع الابتكار، كما قال الإمام محمد بن الحسن لجاريته، وقد أخبرته عن نفاد الدقيق في البيت، وهو في درسه: قاتلك الله، لقد أضعت من رأسي أربعين مسألة من مسائل الفقه كنت أعددتها في نفسي!

فهذا هو التحدي الثالث.

تحدي التنمية الشاملة:

٤ ــ ومن أهم ما يجب علينا أن نهدف إليه، ونحرص عليه، ونخطط له: تنمية شاملة لمجتمعاتنا، يكون الإنسان هدفها، والإنسان وسيلتها. ولا سيما تنمية اقتصادنا بكل جوانبه وأركانه من زيادة الإنتاج، وترشيد الاستهلاك، وعدالة التوزيع، وسلامة التداول.

تنمية تخرج الأمة من التبعية الاقتصادية، وتمكنها من الاكتفاء الذاتي بالتكامل فيما بينها، وتجنيد طاقاتها المتنوعة حتى تأكل مما تزرع، وتلبس مما تصنع، وتنتج ما تحتاج إليه ولا تحيا عالة على غيرها. فعار على أمة بلادها زراعية أن تستورد نصف أقواتها أو أكثر، وعيب على أمة (سورة الحديد) ألا تتقن صناعة الحديد، وقد حفظت من كتاب

ربها: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾ [الحديد: ٢٥] وعبارة ﴿فيه بأس شديد﴾ إشارة إلى الصناعات الحربية ﴿ومنافع للناس﴾ إشارة إلى الصناعات المدنية، وهي كَلّ على غيرها في الميدانين: المدني والعسكري معًا.

وإن لدى الأمة من الثروات المذخورة والمنشورة ما يكفيها ويفيض عنها. في سهولها وجبالها، ووديانها وصحاريها، وبحارها وبحيراتها وأنهارها، وموقعها المتميز، فضلا عن ثرواتها البشرية، وعلينا نحن أن نحسن استغلالها، كما نريد نحن، لا كما يريد لنا غيرنا.

تحدي العدالة الاجتماعية:

٥ ـ ولا ننسى هنا تحديا خامسا: أن نحارب المظالم الاجتماعية المتفشية في عالمنا العربي والإسلامي، الذي نجد فيه من يملك البلايين ومن لا يملك الملاليم، ورأينا فيه القصور المتخمة بجوار الأكواخ المهدمة. وغالبًا ما يكون الثراء الفاحش من حظ الذين لا يعملون، والفقر المدقع من نصيب الذين يعيشون كادحين ويموتون محرومين.

لا بد من إقامة عدالة اجتماعية نحقق بها ما تأمرنا به شريعتنا، يعطى فيها كل ذي حق حقه، حتى يجد كل عاطل عمله الملائم، وكل عامل أجره المناسب، وكل جائع خبزه المشبع، وكل مريض دواءه الناجع، وكل عارٍ كساءه السابغ، وكل مبدع جزاءه العادل، وكل محتاج كفايته التامة.

عدالة حقيقية تزول بها الاحتكارات والامتيازات الطبقية والأسرية التي تجعل بعض الناس يكسب بلا عمل، ويثرى بلا جهد، ويسمن من هزال الآخرين ولحمهم الحي.

إن المال مال الله والناس مستخلفون فيه، ولابد أن يكون مال الله لكل عباد الله، ولا يكون دولة بين الأغنياء منهم، ولا تستأثر به فئة وتحرم منه أخرى، وفي المال حقوق مفروضة، الزكاة أولها وليست آخرها.

وهذا هو ما فرضه الإسلام على أبنائه وحققه في مجتمعه بقوانينه الإلزامية، ووصاياه

الترغيبيـة ، ولم يجز الإسـلام أن يشبع الإنسـان وجـاره جـائع «ليس المؤمن الـذي يبيت شبعانًا وجاره جائع إلى جنبه»(١) .

«أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»(٢) .

« اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»(٣) .

تحـدي المـرأة :

٦ ـ وهنـا تحدّ سادس يتمثل في (المرأة) وحقوقها ومشكـلاتها؛ إذ لابد لنا من عنـاية خاصة بالمرأة فهي نصف المجتمع من ناحية العـدد ، وربما كانت أكثر من ناحية تأثيرها في زوجها وأبنائها ، إيجابيًّا وسلبيا ، ولا يجوز بأي منطق إهمال نصف المجتمع .

لقـد أعطيناهـا حقها في أن تتعلم ، ولكنـا في كثير من مجتمعـاتنا حجـرنا عليهـا أن تمارس حقها السياسي في التصويت والترشيح ، والله تعالى قد قال في كتابه : ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أوليـاء بعض يأمرون بالمعروف وينهـون عن المنكر**﴾ [التوبة : ٧١] . والرسول صلى الله عليه وسلم قال : «إنما النساء شقائق الرجال»(٤) .

ويجب علينـا أن نساعـد المرأة على أداء واجبها الأول ، وهـو تـدبير البيت ، ورعايـة الزوج ، وتنشئة الجيل ، فهذا لا ينازعها فيه أحد ، ولا يقوم مقامها أحد .

ونساعدها على أن تكون زوجة صالحة ، وأمًّـا صالحة ، ومواطنة صالحة ، ولا نحرمها حقهـا في العمل إذا احتاجت إليـه ، أو احتـاجت إليه أسرتها كما في قصـة ابنتي الشيخ

---

(١) رواه الحاكم عن عائشـة وصحح إسناده ووافقـه الذهبي (٤/ ١٦٧) وروى الطبراني وأبـو يعلى نحوه عن ابن عباس ورواته ثقات (المنتقى من الترغيب حديث : (١٥٣١) .

(٢) رواه ابن مـاجه عن ابن عمـر ، وأبـو يعلى عن أبي هريـرة والطبراني في الأوسط عن جـابر وحسنـه في صحيح الجامع الصغير (١٠٥٥) .

(٣) رواه مسلم وأحمد والبخاري في الأدب المفرد عن جابر . المصدر السابق (١٠٢) .

(٤) رواه أحمد عن عـائشـة ، وذكـره في صحيح الجامع الصغير (١٩٨٣) وكـذا رواه الترمـذي عنهـا في الطهـارة (١١٣) وروى أحمد نحوه عن أم سليم .

الكبير اللتين سقى لهما موسى. أو احتاج إليه المجتمع نفسه، كما في معلمة البنات، وطبيبة النساء، وممرضة النساء ونحوهن.

وعلينا أن نقاوم نزعتي الإفراط والتفريط في قضية المرأة، فلا نغلو في التضييق عليها، كما يفعل المشددون باسم الدين، ولا نبالغ في إطلاق العنان لها، لتفعل ما تشاء باسم الحرية، فلا خير في هذا ولا ذاك. إنما المطلوب المنهج الوسط، وهو الذي يتفق مع منهج الإسلام.

إن المرأة إذا صلحت صلحت الطفولة، وصلحت الأسرة، وطابت الحياة[1].

تحدي النظم الاستبدادية:

٧ ــ يتوج هذا كله نظم سياسية لا تخاف من شعوبها، بل تحبها وتحترمها، وتزيل الفجوة القائمة بينهم و بينها. نظم ترعى حقوق الإنسان وتحترم كرامته وحريته، وتصون حرماته، وتحمي دمه وماله وعرضه. نظم يختار الناس فيها حكامهم ولا يفرضون عليهم، ومن حقهم ــ بل من واجبهم ــ أن ينصحوا لهم، وأن يراقبوهم ويحاسبوهم، وأن يقولوا لهم: لم؟ ولا، دون أن يؤذوا في أنفسهم أو في أهليهم.

وأن يقوّموا عوجهم إذا اعوجوا، لا بحد السيف كما قال الأعرابي لعمر رضي الله عنه، بل بسلطة المجالس النيابية، وقرار الأغلبية.

نظم تحقق ما قاله أبو بكر في أول خطبة له: إلا أن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه، إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم.

وقول عمر: من رأى منكم فيّ اعوجاجا فليقومني، رحم الله امرءا أهدى إليّ عيوب نفسي.

وقول عمر بن عبد العزيز: إنما أنا واحد منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً.

---

(١) انظر: كتابنا (مركز المرأة في الحياة الإسلامية) نشر مكتبة وهبة بالقاهرة والمكتب الإسلامي ببيروت. وانظر كذلك: موسوعة (تحرير المرأة في عصر الرسالة) لعبد الحليم أبو شقه.

نظم تأخذ من الـديمقراطيـة ضماناتها وأساليبهـا ، وقدرتها على تقليم أظافـر الطغاة المستبـدين ، وبها نحقق روح الشـورى والنصيحـة والمسئـوليـة في السيـاسـة الشرعيـة الإسلامية ، ونعلي كلمـة الأمة ، ونتبع السواد الأعظم ، لا كل جبار عنيـد ، ونقيم عدل اللـه في القريب والبعيـد ، والشريف والـوضيع ، دون محابـاة ولا تمييز ، وبـذلك تقـوم شورى العدالة والحرية لا ديمقراطية المخالب والأنياب ، كما سماها بعض الحكام .

وفي ظل هذا المنـاخ الصحي يتربى الفرد الحر ، والإنسـان العزيـز ، والمؤمن القوي ، الذي يستطيع أن يقـول بملء فيه : لا ، إن أراد ، ولا يخاف لومـة لائم ، ولا ظلم ظالم . ومن هؤلاء الأفراد الأقوياء تتكون الأمة القوية .

التحدي الإيماني والأخلاقي :

٨ ـ وفوق ذلك كله ، بل قبل ذلك كله ، لابد من تعبئة الأمة تعبئة إيمانية وأخلاقية ، حتى تسمو في الإنسـان نفخة الروح على الطين والحمأ المسنـون . فالماديات وحـدها لا تصنع أمة إنما تصنعها معها ، بل قبلها المعنويات : الأهداف الكبيرة والآمال العريضة ، والقيم الرفيعة .

لابد من تهيئة المناخ الثقافي والاجتماعـي والنفسي لتربية الإنسان المؤمن المثالي ، الذي يستعلي على شهوات النفس ، وتراب الأرض ، وينتصر على المغريـات بالشر ، والمعوقات عن الخير ، والمثبطات عن الحق .

وعلى كل الأجهـزة والمؤسسـات المؤثـرة أن تتعـاون على هـذه الغـايـة : من المدرسـة والجامعة والمسجد والبيت والصحيفة والإذاعـة والتلفاز والمسرح والسينما والنادى والمركز الثقافي ، وغيرهـا . حتى تبني الإيمان بالله ورسـالاته والدار الآخـرة ، وتنمي هذا الإيمان حتى يثمـر العمل الصـالح ، والخلق الفـاضل ، ممـا يشمل عبـادة اللـه وعمارة الأرض ومنفعة الناس .

إن الإيمان ليس ضرورة للفرد للنجاة في الآخرة من النار ، والفـوز بالجنة فقط ، بل هو ضرورة للحياتين معًـا . من أراد الآخرة فعليه بـالإيمان ، ومن أراد الدنيا فعليـه بالإيمان ، ومن أرادهما معًا فعليه بالإيمان .

إن الإيمان ضرورة للفرد لكي يطمئن ويرقي ويسعد، وهو ضرورة للمجتمع لكي يتماسك ويتعاون وينهض.

الإيمان ضرورة لتربية (النفس اللوامة)، أو الضمير الحي، وتقوية باعث الدين في مواجهة باعث الهوى، وتنمية دواعي الخير في مقابل دوافع الشر. فالقوانين وحدها لا تكفي لإصلاح البشر.

ثم إن الإيمان يضاعف قدرة الإنسان على العمل والبناء، حتى إنه ليمكنه أن يعمل بعشرة أضعاف طاقته العادية إذا قوي إيمانه إلى درجة عالية، وصحبته إرادة قوية، عبر عنها القرآن بـ (الصبر) وذلك في قوله تعالى: ﴿ **يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون**﴾[الأنفال: ٦٥].

وما يقال في المجال العسكري والجهادي يقال في المجال الاقتصادي والعمراني.

لن ترقى الأمة باللاهين العابثين، ولا بالمنحلين ولا المخمورين، ولا بتجار الأغذية الفاسدة والملوثة، وتجار المخدرات، إنما ترقى الأمة بالأطهار المستقيمين على الجادة، وهؤلاء هم أهل الإيمان.

هذه هي القضايا أو التحديات التي يجب على أمتنا أن تستقبل بها القرن القادم، وعندها من الثروات والطاقات البشرية والمادية والحضارية والروحية: ما يمكنها من القيام بدورها واستعادة مجدها ومكانتها، إذا توافرت لها القيادة الراشدة، والنية القاصدة، والعزم المصمم.

يجب أن تدخل هذه القضايا في صميم ثقافتنا وتعليمنا وإعلامنا الديني و المدني، وأن يتعاون عليها البيت والمدرسة، والجامع والجامعة، والنخبة والجمهور، والشعب والحكومة. وقد قيل: إذا صدق العزم وضح الطريق.

وبقيت تحديات أخرى خطيرة، سنفردها بحديث خاص.

تحـديات كـبرى

١٧٩

هذه التحـديات التي ذكـرناها، كلهـا مهمّ، وكلها ضروري، لحيـاة الأمة وبقـائها واستمرارهـا في رسالتهـا الربانيـة والإنسانيـة والأخلاقية والحضـارية، التي تميـزها عن غيرها، وهي مبرر وجودها بوصفها أمة لا يغنى عنها غيرها.

ولكن هناك تحديات ثلاثة أكثر أهمية وخصوصية، من سائر التحديات، يجب على أهل الفكر، التركيز عليها، وهي:

١ ـ التحـدي الأول وهو (التحـدي الصهيوني) ومـا يفرضـه الآن من تسويـة يمليها القوي على الضعيف، وما يريده وراء ذلك من (تطبيع) مع العرب والمسلمين.

٢ـ والتحدي الثـاني، وهو (تحدي التجزئة والتفكيك) الذي تحرص عليـه كل القوى المعادية للأمة.

٣ـ والتحدي الثالث هو (تحدي العولمة) التي كثر الحديث عنها اليوم، ويراد فرضها علينا، بما تحمله من معاني الهيمنة الإمبريالية الجديدة.

وسنخص كلا من هذه الثلاثة بحديث يناسبه.

١ ـ التحـدي الصهيـوني

في هـذا القرن الجـديد الذي يطـل علينا عن قريب، سنة (٢٠٠١) نجـد أنفسـنا ـ نحن العرب والمسلمين ـ أمام تحديات كبرى، هي يقينـا من بقايا القرن الذاهب. وهي تحديـات خليقـة بأن تستثير فينـا الكـوامن، وتستنفـر منـا كل القـوى، حتى نجنـد لمواجهتها طاقـاتنا البشرية والمادية، والعقليـة والروحية، ونقف لملاقـاتها صفا واحدا، كالبنيـان المرصوص، فنحن أمام معركـة عريضة السـاحة، متنوعة الأسلحـة، متعددة الجبهات، ومع عدو بارع التكتيك، ماهر في الكـر والفر، مسنود بقوى كبرى، تؤيده بالحق وبالباطل.

وهذه المعـركة الكبرى تقتضي منا أن نوحـد جبهتنا، ونجمع صفوفنا، فـلا مجال هنا للاختلافـات الجزئية، ولا للمعارك الجانبية، وحسبنا أن نقرأ قـول الله تعالى: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص﴾ [الصف: ٤].

تشير الآيـة الكـريمـة أنـه عنـد مـلاقـاة الأعـداء، يجب أن يصطف الجميع متراصين، كالبنيان يشد بعضه بعضـا، والبنيان المرصـوص يقتضي التـلاصق والتـلاحم والاستقـامة والانتظـام. وهذا ما يوجبـه منطق المعـركة على من يعيهـا ويتهيأ لخوضها بقوة وجدارة.

أول التحديات وأكبرها:

إن أول التحـديات وأكبرهـا وأخطـرها هـو (التحـدي الصهيوني) ولا سيما في هـذه

المرحلة التي تمر بها قضيتنا المركزية الأولى ـ نحن العرب والمسلمين ـ قضية أرض الإسراء والمعراج، أرض النبوات، أرض المسجد الأقصى.

مرحلة (التسوية) التي تريدها إسرائيل، وتهدف إلى فرضها على المنطقة تحت عنوان (السلام). ويبدو أن إسرائيل ـ بمعاونة حليفتها الدائمة أمريكا ـ موشكة على النجاح في فرض التسوية التي تنشدها، فقد بدأت بمصر، وثنّت بمنظمة التحرير، وثلثت بالأردن، وها هي تختم بسوريا، ومعها لبنان.

ترى ماذا يكون مصير صرخات (الإسلاميين والقوميين) في مؤتمراتهم الثلاثة التي عقدت في بيروت، سنة ١٩٩٤ و١٩٩٧و٢٠٠٠م هل ستذهب كما قيل، صيحة في واد، ونفخة في رماد؟!

وما مصير القدس في التسويات الجارية اليوم؟

هل يفرط دعاة التسوية في القدس عاصمة لدولة فلسطين المنشودة؟

أو يقبلون قدسا أخرى تصنع صناعة على عين إسرائيل، مثل (أبو ديس) لتكون بديلا للقدس الحقيقية: قدس المسجد الأقصى والمقدسات الإسلامية والمسيحية؟

لقد دعا (المؤتمر القومي الإسلامي) الأخير في بيروت إلى ضرورة عقد مؤتمر خاص بالقدس، في أقرب وقت ممكن، ليخاطب أمة العرب والإسلام، ويضعها أمام مسئوليتها الدينية والقومية والتاريخية.

والأمر لا شك خطير خطير، ويستوجب الصراخ العالي، كما يصرخ الحارس اليقظ عندما يرى الخطر الداهم، ولا يستطيع مقاومته وحده، وذلك لتنبيه أمتنا الكبرى من غفوتها، وإعادة وعيها إليها، بعد أن نومها المنومون، وخدرها المخدرون، بأساليب شتى. والأمة ـ بفطرتها وإيمانها، وقواها المذخورة في حناياها ـ قادرة على التصدي للخطر ومواجهته بصلابة وعناد، إذا وجدت من يعرف كيف يقودها، ويفجر طاقاتها المكنونة، ويستخرج قدراتها المخزونة، حين يقودها ويناديها باسم الله، كما ناداها من قبل نور الدين محمود، وصلاح الدين، وسيف الدين قطز.

مقاومة المشروع الصهيوني :

على أنه لا يمكن لأمتنا أن تنهض بعبء الآمال والأهداف الكبيرة التي ترنو إليها من التقدم والتنمية والبناء الحضاري ، ما لم تواجه المشروع الصهيوني المعادي لوجودها ، المناقض لبقائها ، الممزق لوحدة أرضها ، ولا يكون هذا بالدعاوى العريضة ، ولا بالاستسلام الذي يسمونه (السلام) ولكن بالوعي البصير وبناء الإيمان العميق ، وتقوية أمتنا عسكريًّا ومدنيًّا ، وتعبئة الأمة كل الأمة للمواجهة النفسية والفكرية والحضارية لأحلام إسرائيل الكبرى ، التي لم تمت كما يقال ، بل لا زالوا يقولون : من الفرات إلى النيل ، ومن الأرز إلى النخيل .

وإذا كان حكماء صهيون استطاعوا أن يحولوا أحلامهم إلى حقائق بالعلم والعمل والجد والدأب ، فنحن أولى بذلك منهم ، وعندنا من بشائر الدين ، ودوافع التاريخ ، وحقائق الواقع ما يملؤنا يقينًا وثقة بالمستقبل[1] .

ولابد لنا أن نحاربهم بمثل ما يحاربوننا به ، لا يجوز لنا أن نحذف الدين من مواجهتنا لهم ، وهم يجندون جنودهم ، ويعبئون قواهم باسم الدين . وقد قيل : لا يفل الحديد إلا الحديد .

وحديدنا أقوى وأصلب من حديدهم . فإذا واجهونا باليهودية واجهناهم بالإسلام ، وإذا حاربونا بالتوراة حاربناهم بالقرآن ، وإذا قالوا : الهيكل ، قلنا : الأقصى ، وإذا قالوا : يوم السبت قلنا : يوم الجمعة ، وإذا حشدوا حشودهم باسم موسى حشدنا حشودنا باسم موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، فنحن أولى بموسى منهم !

إن مقاومة المشروع الصهيوني فريضة وضرورة : فريضة يوجبها الدين بنصوصه وقواعده ، وضرورة يحتمها الواقع بآلامه وآماله ، ضرورة النهوض بالحاضر ، والإعداد للمستقبل .

---

(١) انظر : كتابنا : المبشرات بانتصار الإسلام ، نشر مكتبة وهبة بالقاهرة ، والمكتب الإسلامي ببيروت .

تحدي التطبيع :

على أن أخطر ما تحمله المرحلة القادمة للأمة هو ما تهدف إليه إسرائيل، وتحرص عليه، وتسعى بكل قوتها لتحقيقه، بعد التسوية، وهو ما يسمونه (التطبيع).

وما معنى (التطبيع)؟ التطبيع أن تجعل الشيء طبيعيا، وكيف يكون غير الطبيعي طبيعيا؟ كيف يصبح العدو ـ وهو مقيم على عداوته ـ صديقا؟ وكيف يكون اللص صديقا لصاحب الدار التي سرقها؟ وهذا ما تريده إسرائيل؟ تريد دمج الكيان الصهيوني في المنطقة، بإحداث تغيير نفسي وعقلي عند شعوب الأمة، بحيث يتقبلون هذا الكيان العدواني الغاصب، ويسلمون بوجوده بينهم، دولة يهودية ذات سيادة، والقضاء على مشاعر العداء المتأصل لذلك العدو الكافر الماكر الغادر، الذي ذكره القرآن بالتمرد على الله تعالى وعلى رسله، ووصفه بالقسوة والغدر والتلون والكذب وغيرها من الرذائل. والتطبيع هو إحدى الآليات الفاعلة، لتحقيق الحلم اليهودي الكبير في المنطقة، التي يراد إلغاء اسمها المعروف (الوطن العربي) أو (الإسلامي) ليصبح اسمها (الشرق الأوسط).

إنه ليس (التطبيع) كما يقولون، ولكنه (التطويع) أو (التمييع) أو (التركيع). إنه محاولة لنزع مخالب الأمة وأنيابها، حتى تستسلم لمن يفترسها.

إنه محاولة كسر الحواجز كلها: نفسية وثقافية واقتصادية وسياسية واجتماعية وعسكرية، لتصول إسرائيل في المنطقة وتجول وتعربد، كما تشاء. ولا تجد أي مقاومة لها، حتى المقاومة النفسية الأصيلة والكامنة في صدور أمتنا، لا يريدون لها أن تبقى، لتكون إسرائيل كما قال الشاعر:

خلا لك الجو فبيضي وأصفري ونقّري ما شئت أن تنقري!

وهو ما يجب على أمتنا أن ترفضه رفضا كليا، فهو رصيدها الدائم لجهاد المستقبل، وهو الكفيل بأن يخرج لنا صلاح الدين من جديد.

آفات التطبيع وأخطاره على الأمة في شتى جوانبها :

وعلينا أن نبين لأمتنا آفات التطبيع وغوائله، ونكشف القناع عن أخطاره المرتقبة على جوانب حياتها كلها، حتى تتضح لها الحقائق، ولا يلبس عليها المبلسون.

وسأنقل هنا بتصرف أخطار هذا التطبيع من دراسة قديمة لإخوتنا في حركة المقاومة الإسلامية (حماس). ليكون فيها تبصرة للذين لا يعلمون، وتذكرة للذين يعلمون.

١ ـ في المجال الفكري والنفسي :

لقد شكل الحاجز النفسي المنبثق من البعد الفكري والعقدي في نظرة الإسلام لطبيعة اليهود سدًّا منيعًا في وجه جميع محاولات التطبيع خلال السنوات الماضية. كما أن الموقف الإسلامي الرافض للتنازل عن أي جزء من الأرض الإسلامية والداعي إلى ضرورة الجهاد من أجل تحريره قد ساهم في تعزيز الحاجز النفسي ضد الاحتلال الصهيوني لفلسطين.

ويهدف العدو الصهيوني من خلال تطبيع علاقاته مع الدول العربية والإسلامية في المجالات المختلفة إلى تحطيم الحاجز النفسي والفكري، وتغيير مفاهيم وأسس الصراع بين المسلمين واليهود، وهز الدعامات الفكرية والعقائدية لذلك الصراع، كما يهدف إلى قتل روح الجهاد والمقاومة والصمود لدى الأمة وهزيمتها وقهرها نفسيًا، وترويضها لقبول الكيان الصهيوني المحتمل كأمر واقع في المنطقة. ويدخل في هذا المجال العمل على تغيير المناهج التربوية والدراسية بهدف غسل أدمغة الجيل القادم وتجهيله بحقيقة الصراع مع العدو اليهودي.

٢ ـ في الجانب السياسي والإعلامي :

ويشمل التطبيع في هذا المجال الاعتراف بما يسمى (دولة إسرائيل) وحقها في السيادة والعيش بحدود آمنة، وفتح السفارات، والتمثيل الدبلوماسي، وتبادل السفراء والقناصل، ورفع الأعلام الإسرائيلية في العواصم الإسلامية، واللقاءات والزيارات السياسية على مستوى الزعماء والقادة، والعلاقات المتبادلة بين المؤسسات السياسية والبرلمانية والحزبية، وعقد اتفاقيات وبروتوكولات التعاون المشترك، كما يشمل أيضًا منع كل ما من شأنه أن يفسر على أنه تحريض، أو إثارة أحقاد في وسائل الإعلام، وفرض رقابة صارمة على كل ما يمكن أن يتضمن إساءة لأجواء السلام المزعوم.

وستسمح أجـواء التطبيع والتعايـش للكيان الصهيـوني بـاستقدام أعـداد كبيرة من المهاجرين اليهود، دون أن يثير ذلك أي احتجاج رسمي في الأوساط العربية والإسلامية الرسميـة، كما أنها ستلغي الصورة العنصرية القمعيـة للكيان الصهيوني، وتفتح أمـامه الأبواب لاختراق دول العالم التي كـان يتحفظ بعضها على إقامة عـلاقات معه، بسبب حالة العداء القائمة بينه وبين الدول الإسلامية.

٣ ـ في الجانب الاقتصادي:

ويشمل التطبيع الاقتصادي مع الكيان الصهيوني مجموعة من الخطوات الطبيعية في مقدمتهـا إلغاء المقاطعـة الاقتصادية التي ألحقت بـالاقتصاد الصهيوني خـلال سنوات المقاطعة خسائر تقدر بحوالي ٤٨ مليار دولار، وفق ما أوردته دراسة أعدتها غرفة التجارة في الكيان الصهيـوني. كما تشمل تلك الخطوات حـرية انتقال رءوس الأمـوال والأيدي العاملـة، والرحـلات الجوية المباشرة وفتح المجـالات الجوية أمـام الطيران الصهيوني، وفتح طـرق المواصـلات والنقل والاتصـالات (هـاتف، فـاكس، تلكس) وشبكـات الكهرباء المشتركة والتطبيع السياحي.

ونظرًا إلى أن الـدول العربية والإسلاميـة في غالبها هي مجتمعات استهـلاكية محدودة الإنتاج، فإنها لن تكـون قادرة باقتصاديـاتها الضعيفة على مواجهة الاقتصـاد الصهيوني القوي والمتفـوق بدرجة كبيرة، حيث يبلغ مجمـل الإنتاج الصهيوني أكثـر من ٦٠ مليار دولار سنويًّا، وهو يزيد على مجموع الناتج القومي لدول الطوق بما فيها مصر.

ولا شك في أن فتح الأسـواق أمـام الصـادرات الصهيـونيـة، ربما يـؤدي إلى إغـراق الأسواق العربية والإسلامية بالمنتجات الصهيونية المتطورة وذات القوة التنافسية العالية، وهو ما قد ينجـم عنه تدمير كثير من الصناعات العربية والإسـلامية، وتخريب القطاع الزراعي والصنـاعي، وخصوصًا أن تمكين الكيـان الصهيوني من الحصـول علـى النفط والمواد الخام الأخرى من الأســواق العربية بكلفة أقـل كثيرًا، سيزيد من قدرة منتجـاته على المنافسة.

وإذا ما نجح الكيان الصهيوني بدعم أمريكي وقبول إقليمي في تطبيق فكرة (السوق الشرق أوسطية) المطروحة في هذه المرحلة، والتي تتضمن إنشاء شركات عملاقة متعددة الجنسية، ومصـارف ومؤسسـات اقتصـادية وتجاريـة وإعلاميـة ضخمة، وتحركًـا حرًا

للسـلع والخدمـات ورؤوس الأمـوال والخـبرات والأيـدي العـاملة دون عـوائق أو حـواجز، فـإن النتائج السلبية التي يمكـن أن تترتب على الاقتصاد العربي والإسـلامي ستكون بالغة الخطورة .

والخلاصـة أن العدو الصهيـوني يسعى إلى الهيمنـة الاقتصاديـة على الأمة وإلحاقهـا بعجلة اقتصـاده عن طريق إقامة مشـاريع اقتصادية كبيرة تتيح لـه التحكم في المصالح الحيوية للأمة في الميـاه والكهرباء والنفط والمواصلات . . . . . . إلخ ، كما يسعى العدو إلى إدارة اقتصاديـة في المنطقة يكـون دور العرب والمسلمين فيهـا دور الأيدي العـاملة ، ومصدر الطاقة والثروة ، والسوق الاستهلاكية الضخمة .

٤ ـ في المجال العسكري :

بحجة انتهاء حالة الحرب وضرورة الاهتمام بقضايا التنمية ، سيعمد الكيان الصهيوني إلى الضغط على الدول العربيـة والإسلامية من أجل تقليص أعـداد جيوشها ، وتخفيض برامجها العسكرية في التسلح ، وستلعب الولايات المتحدة دورا في الضغط من أجل الحد من تصدير الأسلحة وخاصة المتطورة ، إلى دول المنطقة ، باستثناء الكيان الصهيوني . كما يسعى العـدو ـ تحت ستـار التسويـة والتطبيع ـ إلى منع الخيار النـووي الإسلامي ، ما استطاع ، وتجريـد الأمة من أسلحتهـا الاستراتيجية والفاعلـة ، وكما أقدم في الماضي على ضرب القوة النووية العـراقية ، فإنه يخطط لضرب القوة النووية البـاكستانية والتحريض على جهود إيران في هذا المجال .

٥ ـ في المجال الأمني :

قـامت أجهزة الأمن المصريـة خـلال السنوات الماضيـة التي أعقبت تـوقيع اتفاقيـة كامب ديفيـد باكتشاف العـديد من شبكات التجسس والتخـريب وتهريب الأسلحة ، وبالتـالي فإن الكيان الصهيـوني يسعى عبر برامج التطبيع والتعـايش إلى اختراق المنطقة أمنيًـا ، عبر زرع شبكات التجسس من العمـلاء ، واختراق أجهـزة المخابـرات العربيـة الإسلاميـة ، وتنفيذ الأعمال التخريبية بهدف زعـزعة الأمن والاستقرار في الدول العـربية والإسـلامية ، بل وسيعمل جـاهـدًا ، وبضغط من أمريكـا ، على التعـاون بين أجهزتـه الأمنية والأجهزة الأمنية العربية والإسلامية .

٦ ـ في الجانب التربوي :

يسعى الكيان الصهيوني في الجانب التربوي إلى تغيير المناهج التربوية في الدول الإسلامية بما يتلاءم ومعطيات المرحلة الجديدة، بحجة تعميق مفاهيم السلام والتعايش، وإزالة مشاعر الحقد والكراهية بين الشعب اليهودي والشعوب الإسلامية. وسيتطلب ذلك إدخال تعديلات وتغييرات كثيرة جوهرية على المناهج التربوية كما حصل في مصر سواء كان ذلك في المواد الدينية والتاريخية التي تتحدث عن طبيعة اليهود وتاريخهم الأسود في ممارساتهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم والآيات القرآنية التي تتحدث عن عداوتهم، أو كان ذلك في الجغرافيا وتعديل الخرائط بما ينسجم مع الاعتراف بالكيان الصهيوني.

٧ـ في الجانب الأخلاقي :

سيعمل الكيان الصهيوني في هذا المجال على نقل الأخلاقيات الفاسدة من فجور وزنى وشذوذ وتعاطي مخدرات، وشرب خمور إلى المنطقة، وسيعمل على توسيع انتشارها عبر شبكات الإفساد الأخلاقي التي ستدخل تحت ستار الوفود السياحية، وسيكون بإمكانها التجول بكل حرية في المنطقة. كما سيعمد إلى نشر الأمراض الجنسية كما حدث في مصر، حيث اكتشف العديد من الشبكات مهمتها نشر الأمراض في أوساط الشباب المصري.

وقد لوحظ أن انتشار مرض الإيدز والمخدرات قد تزايد بشكل واضح في المجتمع المصري نتيجة الجهود الصهيونية، برغم مقاومة الشعب المصري للتطبيع، ولا شك أن التدمير الأخلاقي للأمة وإشاعة جو الانحلال والفساد فيها هو إضعاف لها وانشغالها عن دورها الريادي والحضاري، كما أنه يمثل ضربًا لأحد عناصر قوتها الرئيسية وهو الشباب، مما يضعف قدرتها على المقاومة والصمود في وجه الهجمة الصهيونية.

٨ـ الأخطار على الحركات الإسلامية :

فالكيان الصهيوني الذي يروج بعد سقوط الخطر الشيوعي لدور استراتيجي جديد له في المنطقة يتمثل في التصدي لخطر الأصولية الإسلامية على مستوى الحركات الإسلامية والدول (إيران والسودان) ويدرك أن الحركات الإسلامية ستكون الطرف الأقوى والأقدر

على مواجهـة خططه التـوسعية في اختراق المنطقـة . ولذلك يسعى إلى استغـلال أجواء التطبيع والتقـارب مع الأنظمة الـرسميـة من أجل تحريضها ضـد الحركـات الإسلاميـة والإيقاع بين الطرفين وإنهاك واستنـــزاف طاقاتها . بل إن أصابع اليهود تمتـد للمشاركة في التآمر على كل قضايا الجهاد والتحرر الإسـلامية وضرب مشاريع النهوض الإسلامية في الأمة .

٩ـ الأخطار على الأمن القومي العربي والإسلامي :

إن سياسة العدو الاستراتيجية في المنطقة تقوم على إضعاف الجبهة العربية والإسلامية المواجهة وتشتيتها وشرذمتهـا ، وسيحرص الكيان الصهيوني خلال هـذه المرحلة والمرحلة القادمة على إيجاد المزيـد من أسباب الفرقة وتمزيق الصف العربي والإسـلامي للحيلولة دون حـــدوث أي شكل من أشكـــال التقـــارب أو التنسيق والتضـــامن العـــربي والإسلامي . وسيعمل عبر اتفاقيات التسوية والتطبيع على جعل علاقات تحالف الدول العربيـة والإسلاميـة معه مقـدمة على أي عـلاقة أخـرى بين الدل العـربية والإسـلامية نفسها ، كما سيؤدي إقامة الأحلاف الأمنيـة والاقتصادية على مستوى المنطقة ، وإضعاف القدرات العسكرية والاقتصادية العربية ، مقابل تعاظم القوة العسكرية الصهيونية ، إلى تهديد الأمن القومي العربي والإسلامي الـذي يعاني حالة من التصدع والانهيار، ولاشك أن مخططات العـدو الصهيوني في إثارة النعرات الطـائفية والإقليمية والعرقيـة في الأمة ، سيهـدد وحدتها ونسيجهـا الاجتماعي ، وسيـؤدي إلى عـدم استقـرارها وإلى تمزيقهـا إلى كيانات وكـانتونات صغيرة متناحرة مرتبطـة بالكيان الصهيوني ومستقوية بـه في مواجهة جاراتها ، مما يعني في النهاية تدميرًا لوحدة الأمة ولأمنها واستقرارها وعناصر قوتها .

لونان خطران من التطبيع :

ونـــريـــد أن نـــركـــز هنـــا على لـــونين من (التطبيع) تهدف إليهما دولـــة الكيـــان الصهيـــوني ، وتـرمي بكل ثقلهـــا ومن وراءهـــا لفـرضهما على المنطقـــة ، وهما : التطبيع الاقتصـــادي ، والتطبيع الثقافي ، ولابـد لنا أن نفـرد كلا منهما بحـديث ، ولا سيما التطبيع الثقافي ، الذي يهدد هوية الأمة ، وشخصيتها الدينية والتاريخية .

التطبيع الاقتصادي :

التطبيع الأول الـذي تحرص عليـه إسرائيل وحليفتهـا أمـريكـا في المنطقـة العـربيـة والإســلاميـة : (التطبيع الاقتصــادي) ، بمعنى فتح الأبـواب والنــوافـذ ، بيننـــا وبين إسرائيل ، وإزالـة كـل الحواجـز ، لتبيع لنـا وتشتري منـــا ، بـلا عُقـد ولا تـأثم ، وإلغـاء (المقاطعة) المفروضة ضد إسرائيل وبضائع إسرائيل .

ومن العجائب أن بعضهم يزعم أن هذا الانفتاح الاقتصادي سيصب في صالحنا في النهـايـة ، وكيف وهـم الـذين ينتجـون ويصـدرون ويبيعون ، ونحن السـوق المفتـوحـة لسلعهـم ، ما ينفع منها وما يضر؟

والواقع أن المقاطعة سلاح بقى في أيدينا ، لا يجوز لنا أن نتخلى عنه . وقد عرف الناس من قـديم هذا السـلاح واستخـدمـوه ، وكان لـه أثـره الفعال ، كما رأينـا ذلك في السيرة النبوية ، حيث قاطعت قريش الرسـول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومن تعصب لهم من بني هاشم وبني المطلب ، فكانوا لا يبيعون لهم ولا يشترون منهم ، ولا يزوجونهم ولا يتزوجـون منهم ، وقد استمـرت هذه المقاطعـة ثلاث سنوات ، قـاسى المسلمون فيهـا ما قاسوا من الجوع وقسوة العيش ، حتى أكلوا أوراق الشجر .

والــواجب شرعا على المسلمين أن يظلـوا مقـاطعين لاقتصاديـات إسرائيل ، لأن كل درهـم أو دينار أو ريـال أو جنيه يصل إليهم ، يتحـول في النهايـة إلى رصاصـة في صدر واحد من أبناء فلسطين ، بل في صدر العرب أجمعين .

ويجـب علينـا ـ نحـــن العرب ـــ أن ندعـو المسلمين في كل مكان ، في داخـل العالم الإســلامي ، وخارج العـالم الإسـلامي ـ حيث تعيش الأقليـات والجاليـات الإسلاميـة المختلفـة ـ إلى مقـاطعة البضائع الإسرائيلية والسيـاحة الإسرائيلية ، وأن نكثف الـدعاية لذلك بين المسلمين ، وهم اليوم حوالي المليار وثلث المليار في العالم .

التطبيع الثقافي وكيف نواجهه؟

والتطبيع الآخر الذي تحرص عليه دولة الكيان الصهيوني ، هو (التطبيع الثقافي) .

ومعنى التطبيع الثقـافي : أن نغير منطقنـا الثقافي ، ونتنـازل عن مسلّماتنـا الثقافيـة ،

واتجاهاتنا الفكـرية ، وهويتنا الثقافيـة المعبرة ، عن ذاتيتنا ، وخصوصية حضـارته ، وتميز رسالتنا ، نتنازل عن هذا كله لنندمج باختيارنا في الكيان الجديد الذي يراد لنا أن ندخل في نسيجه ونفنى فيه ، فلا نبقى عربـا ولا مسلمين ، بل ـ كما يقولون ـ شرق أوسطيين ، لا فرق بيننا وبين بني صهيون .

هذا هو التطبيع الثقافي الـذي يراد منا أن نقبله اليوم ، ويروج لـه أناس من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنـتنا ، ويتهموننـا ـ نحن المعـارضين لهذا التطبيع المشـؤوم ـ أننـا جماعة منغلقون متعصبـون ، نعيش في الماضي ، وأنهم وحدهم دعـاة التسامح والانفتـاح ، وما هم إلا دعاة التدمير والاجتياح لشخصية الأمة وخصائصها .

ولابـد لي هنـا أن أنقل في مـواجهـة التطبيـع الثقـافي ، ومنهج هـذه المواجهـة : فقـرة مطولة ، مما كتبـه الدكتور مجدي حماد[1] في ورقته الخصبـة التي قدمهـا للمؤتمر القـومي الإسلامي الثالث في بيروت (يناير ٢٠٠٠) يقول حفظه الله :

«وفي ظروف عـالم اليوم ، من الملاحظ أن مسلسل التطبيع الثقافي يفتح هويـة العرب على تحدّ جديد ، وبخاصة حينما يكون هذا التطبيع ـ على نحو ما هو عليه ـ فقرة في نص إمبريـالي صهيـوني جـديـد يتلى على المنطقة وأهلهـا الشرعيين ، عنـوانـه : «نظـام الشرق الأوسط» ، وهو النظام الـذي يتطلع إلى انتزاع رابطة العروبـة من نسيج العلاقة بين أهل المنطقة وأقطارها الأصيلة ، فيعيد تركيبها على مقتضى كيمياء ثقافية واجتماعية جديدة» .

وفضـلا عما تقدم ، لابـد من تأكيد أن التطبيـع الثقافي ، بمعنـاه الواسع ، ليس حـالا تنتظـر ، بل هو حـال تعيشهـا الأمـة منذ عقـود ، بل هي الحال التي مهـدت للكثير من مظاهر الانهيار والتردي التي تعيشها الأمة .

ومعنى ذلك أن المطلـوب هنـا هـو مـواجهـة حـال التطبيع الثقـافي ، لا مجرد منع حدوثـه ، لأنه بـالفعل يشن حملته الضاريـة على الأمة منـذ زمن . وهذا التطبيع سيجعل العدو الصهيوني بين ظهرانينا .

ويمكن القول إن أول المؤشرات على مدى فعالية الدور الـذي تقوم به الثقافة العربية والإسلاميـة في مواجهة التطبيع ، إنما يتمثل في(مقاومـة)هذه الشحنة الضبابيـة الخانقة

---

(١) معاون المدير العام لمركز دراسات الوحدة العربية ، وهو قومي يفيض حماسة وإخلاصا ، وأراه أقرب مايكون إلى الإسلاميين .

التي تلقيها كلمة التطبيع في وجدان كل عربي ومسلم. . ومن المهم أن ذلك يحدث بصفة تلقائية، ودون أي جهد من حاكم أو مثقف. ومن الثابت أن مصدر الأسى العميق لهذه الآلية ـ آلية التطبيع ورد الفعل التلقائي في مواجهته ـ أنها آلية تعتمد القسر والتطويع، ولا تقوم على الإرادة الحرة المستقلة، التي تبحث عن مصلحتها وترعى غايتها، بما ينسجم مع كل ما هو طبيعي في وجدانها وضميرها ونظم القيم والمعتقدات التي تعتنقها.

أهمية التجربة المصرية في رفض التطبيع:

ولا شك في أن الخبرة المصرية في هذا السياق لها أهميتها من وجوه عدة، فضلاً عن فضل السبق! فمن المعلوم أن «إسرائيل» قد اشترطت أن يكون التطبيع في مقابل الانسحاب من سيناء ـ بمقتضى بنود المعاهدة ـ كضمان لاستمرارية «عملية السلام» حتى بعد إتمام عملية الانسحاب، وعلى نحو يكفل رابطًا لا ينفصم بين البلدين. ومعنى ذلك في النهاية هو أن يحل «وجود مدني إسرائيلي» في مصر كلها محل «الوجود الإسرائيلي العسكري» في سيناء. بل ذهبت المعاهدة إلى أبعد من ذلك، ونصّت على أن يتم التطبيع الكامل للعلاقات بين البلدين قبل انسحاب «إسرائيل» الكامل من سيناء. لقد تم تبادل السفراء، وأبرمت اتفاقات متعددة تتعلق بالسياحة والتجارة والبترول. . إلخ، و«إسرائيل» مازالت تحتل خُمسي سيناء. وشرط التطبيع في نظر «إسرائيل» هو الضمان ألا يتكرر في ١٩٨٢ ما وقع في ١٩٥٧، وهو انسحابها من سيناء دون أن تكون لها «قبضة ما» على مصر تحول دون نشوب حرب أخرى بين البلدين. وهذا مؤشر في حد ذاته على مدى يقينها من وجودها غير الطبيعي.

غير أن هذه «المعادلة» ـ أي التطبيع مقابل الجلاء ـ إنما تقوم على التباس، هو أن العمليتين ليستا بالعمليتين المتماثلتين حتى يجري تبادل بينهما. ذلك أن الجلاء عملية عسكرية تخضع لأوامر تصدرها الحكومة الإسرائيلية للجيش الإسرائيلي. أما التطبيع، فليس هو بالعملية التي تخضع للاتفاقات التي تبرمها الحكومة المصرية فقط، بل يتوقف أيضًا على استعداد الشعب المصري لتطبيع العلاقات مع «إسرائيل»، وهو أمر لا تمتلك الحكومة المصرية السيطرة عليه.

ومن المؤكد أن القيادات المصرية قد حرصت كل الحرص على ألا تترك لحكومة

«إسرائيل» أي مبرر لمؤاخذتها على عدم احترام التـزاماتها حيـال التطبيع . ولكن الحكومة الإسرائيليـة لابـد أن تكـون قـد لاحظت أن جماهير شعـب مصر، وبخـاصـة طـلائعـه المثقفة ، قد وقفت من عمليـة التطبيع موقفًا أشد عـداء ، وأن هذا العداء للتطبيع لم يكن من الممكن نسبته فقط إلى عناصر يمكن اتهامها بـالتطرف والتعصب ، على أرضية دينية أو غير دينية .

فإن افتراض أن تصبح «العلاقـات بين المصريين والإسرائيليين» علاقـات «طبيعية» إنما يقتضي كافتراض سـابق عليه ألا تتعارض هـذه العلاقات مع الأوضـاع «الطبيعية» للمصريين ، أي ألا تطرح قضية «التطبيع» مع «إسرائيل» قضية «هوية» بالنسبة لشعب مصر. وبالفعل ، فكيف يمكن للمصريين ـ المصريين كـافة ، وليس فقط «المتطرفين» أو «المتعصبين» بينهـم ـ أن يقبلوا كأمر «طبيـعي» عقيدة حكومـة «إسرائيل» المعلنة بأن فلسطين العربيـة لا وجود لها قـط ، أو قانون الكنيست بضم القـدس العربيـة واعتبار المدينة المقـدسة بشقيهـا عاصمـة أبديـة للدولـة اليهـودية ، أو تكـرار قـول «القيـادات الإسـرائيلية» بأن من حق «إسرائيـل» القيام بغـارات تأديبيـة ضـد أيـة دولـة عربيـة ، وبلوغ عـدوان إسرائيل حـدّ ما فعلته ضـدّ العراق ولبنـان وتونس ، فضـلاً عن الشعب الفلسطيني؟

لقد أصبح «تطبيع» العلاقات مع «إسرائيل» ، في نظر شعب مصر ـ بمختلف فئاته واتجاهاته ، ومن مختلف المنطلقات السياسـية ـ أمرًا يتعارض مع كل ما هو «طبيعي» في نظره هو. أصبحت مقتضيات «السلام» نقيض مـا تقتضيه «هوية » شعـب مصر. ونَجَم ذلك من صميم بنية «السلام المنفرد» . لقـد فرض هذا «السلام المنفرد» على شعب مصر أن يعـادي أعداء «إسـرائيل» ، وأعـداء «إسرائيل» هـم عوالم ينتمي إليها شـعب مصـر ـ انتماءً طبيعيًا أصيلاًـ تاريخًا وتراثًا ونضالاً وهـوية : العالم العربي والعالم الإسلامي وعالم عدم الانحياز.

ومن هنا أصبحت المعادلـة التي تقوم عليها «المعاهـدة المصرية الإسرائيلية» تكشف عن أوجـه خلل في صميم بنيتها الأسـاسيـة : الحكومـة المصرية تـؤكد أنها تنجـز شروط التطبيع على الوجه الذي حددته المعاهدة ، وعلى «إسرائيل» أن تنجز في المقابل التزاماتها بالانسحاب من سينـاء . وحكومة «إسرائيل» تتهـم الحكومـة المصرية بأن شعـب مصر لا

يلبي التطبيع، أو ربما كان عدم تلبية شعب مصر للتطبيع تدبيرًا حكوميًّا خبيثًا يجري بمقتضاه تعطيل التطبيع عمدًا، وقصره على تدابير رسمية وشكلية فقط، في انتظار جلاء إسرائيل من سيناء ، وحتى تعود مصر مرة أخرى بعد ذلك إلى الحظيرة العربية. وهو «منطق» جدير بالتأمل، في ضوء ما حدث في الواقع.

وقد لاحظ قادة الكيان الصهيوني أن مقاومة الشعب المصري للتطبيع بدأت في الثقافة أولاً لتنتقل إلى بقية مجالات الحياة، فكانت لجنة الدفاع عن الثقافة القومية هي أولى هيئات المجتمع المصري التي تصدت لمشروع التطبيع، وهبّ بعدها الشعب المصري بكل فئاته إلى إغلاق المنافذ أمام التغلغل الصهيوني، فيما حرصت الدولة نفسها على التزام منهج « السلام البارد» مع الكيان الصهيوني، منطلقة من أن المعاهدة تفرض على مصر إقامة «علاقات» مع هذا الكيان، ولكنها لا تفرض عليها طبيعة هذه العلاقات ونوعيتها ومدى حرارتها. ولعل هذا الموقف المصري الشعبي والرسمي هو في صلب المأزق المتعاظم الذي تعيشه العلاقات المصرية ـ الإسرائيلية خصوصًا، وحتى المصرية ـ الأمريكية عمومًا، وهو ناجم بالإضافة إلى المناخ الثقافي والوطني الموجود في مصر، عن شعور متعاظم لدى جماعات النخبة المصرية الرسمية والأهلية، فضلاً عن كل الاعتبارات المبدئية القومية والوطنية، بأن الفكرة التي يقوم عليها «نظام الشرق الأوسط» وما يداخلها من مشاريع «تطبيع» تسعى إلى تهميش مصر وعزلها عن دورها الإقليمي والعربي.

كيف نواجه التطبيع والتدمير الثقافي؟

إن تعطيل التطبيع في مصر هو انتصار للثقافة، ولقد كان من الطبيعي «بعد أن تسكت المدافع» أن تندفع الثقافة لكي تحمل الراية من أجل التصدي لعملية التطبيع. فكيف نواجه التطبيع؟ وفي الحقيقة: كيف نواجه مشروع التدمير والتفكيك الثقافي الذي ينطوي عليه التطبيع، وبخاصة في ظل الاختلال الجسيم في موازين القوى والهجمة الإمبريالية الصهيونية على المنطقة بهدف إخضاعها . . . مرة واحدة وإلى الأبد؟!

١ ـ المواريث الثقافية للأمة هي السد المنيع :

من ناحيـة أولى، تتمثل نقطة البـداية في الإقـرار بأن هذا التيـار الآتي ـ التطبيع ـ ليس بإعصار، لكـون الأمة تقبع على تراث ثقـافي عميق، مما يجعلها أمـة غير سهلة الانصياع للبـدائل الثقافية الدخيلـة، إنها أمة ترتكن إلى تـراث ثقافي غير هش، بل قادر على النهوض بتأملاتها الحاضرة وآفاقهـا المستقبلية، ولهذا فإن ثقافتها المتراكمة تنطوي على عناصر مقاومة وضوابط تتحسس الطارئ والدخيل؛ ولهذا فقد وصفت بأنها أمـــة مـــواجهـــة، إذ ابتليت بأقسى محن التـــاريخ، وهبّت عليهـــا أعتى العواصف، وتعـرضت لسلسلة من محاولات الطمس والمحـو، ومع ذلك فقد زادتها تلك المحن قوة شكيمة وصلابة إرادة. ويبقى وجدان الأمة ووعيها الحقيقي هو أهم مقياس لكل سياسة، والسد العالي المنيع أمام التطبيع.

لقـد نجح العرب، في أكثـر من موقع وعبر أكثـر من مـرحلة تـاريخية، في تجربـة مقـاومة محاولات تـدمير المقـومـات الثقافيـة الـذاتية لهويتهـم، لا مجال لتعدادهـا جميعًا، سواء جرت هذه المحـاولات مع حملات الغزاة الفرنجة والتتار، أو مع مشروع (التتريك) [١] الـذي حاول أصحـابه استغـلال الولاء العـربي للرابطـة الإسلاميـة المتمثلة بالدولة العثمانية لضرب الثقافة العربية واللغة العربية.

٢ ـ ثقافة المواجهة لا الانغلاق :

ومن ناحية ثانية، من المؤكد أن مقاومـة هذا النوع من المشاريع، ولا سيما الثقافية منها، لا يجوز أن تنحصر بـالتحذير السلبي من مخاطـرها، أو بالإجـراءات الشكلية التي لا تتصل بها، بل يجب أن ترتقي إلى مسئولية تطويـر ثقافتنا القومية إلى المستوى الـذي نجـابـه بـه لا مشروع «التطبيع» الصهيـوني فحسب، بل نجـابـه أيضًـا كل التحديات الثقافية والحضارية التي يحملها لنا العصر.

---

(١) يشير إلى حملـة (التتريك) التي قـام بها جماعـة (الاتحاد والترقي) في تـركيـا، وهي جماعـة علمانيـة لا دينيـة معادية للعرب وللإسلام وللخلافة ذاتها.

وبهذا المعنى فإن المقاومة الثقافية للتطبيع لا تكون أبدًا من مدخل الانغلاق حيث ننكفئ على ذواتنا، ونتآكل من داخلنا، ونغرق في صراعات الفرق والملل والاجتهادات الضيقة. وأساس ذلك أن الانغلاق الثقافي هو الوجه الآخر للتفكيك الثقافي، وبالتالي يصب في خدمة مشروع التطبيع الثقافي مهما تعارضت نيات أصحابه ورغباتهم مع هذا المشروع. ولذلك تحتاج هذه المقاومة إلى «ثقافة المواجهة».

٣ ـ ثقافة الوحدة مع التنوع:

ومن ناحية ثالثة، إذا كان عنوان مشروع التطبيع الثقافي هو التفكيك الثقافي لوحدة الأمة وتدمير مقومات تماسكها، فإن العنوان المضاد يبقى هو «ثقافة الوحدة»، أي الثقافة الحريصة على تنمية عناصر الوحدة في مجتمعنا، وتعزيز أواصر التماسك بين أبناء أمتنا. وبهذا المعنى تصبح «ثقافة الفتنة» واحدة من أبرز العناصر الممهدة للتطبيع الثقافي، بل هي ركن رئيسي من أركان ثقافة التطبيع. فالتطبيع مع أعداء الأمة لا يستقيم إلا بالفتنة داخل صفوف الأمة ذاتها.

غير أن الحديث عن ثقافة الوحدة يجب ألا يوقعنا بالخطأ المقابل، أي في «ثقافة القهر» باسم الانسجام، وثقافة الصهر باسم التماسك، وثقافة هيمنة اللون الواحد باسم الوحدة. فداخل الثقافة العربية والإسلامية الواسعة هناك تنوع يمكن أن يتحول إلى مصدر ثراء لتلك الثقافة. ومن ثم فإن «ثقافة الوحدة مع التنوع» تتطلب أول ما تتطلب تكريس قيم القبول للآخر داخل المجتمع الواحد، واحترام الآخر، والسعي للتكامل معه في إطار هذه الوحدة.

٤ ـ ثقافة التفاعل والتجميع لا التفريق:

ومن ناحية رابعة، إن من أبرز معالم الحضارة العربية والإسلامية أنها حصيلة تفاعل حضارات سبقتها، وشعوب اجتمعت في ظلها، وأديان موجودة في أرضها، فمن أبرز المساهمين فيها مسلمون غير عرب، وعرب غير مسلمين، على نحو جعلها تمثل تطورًا نوعيًا مميزًا في الحضارة الإنسانية بأسرها. ولا شك أن هذه السمة المتميزة للحضارة العربية والإسلامية الجامعة، لم تعطها دورًا كبيرًا على

مستوى الماضي فحسب، بل تعطيها كذلك دورًا مهمًا على مستوى المستقبل. فمن أبرز الدعوات الثقافية التي تسعى الحركة الصهيونية لإنجاحها على المستوى العالمي، وخصوصًا الأمريكي، هو الترويج لفكرة الحضارة اليهودية ـ المسيحية، باعتبار اليهودية والمسيحية حضارة واحدة، تعتمدان على كتاب واحد، وبهذه الحضارة يتحول يهود العالم من مجموعة قليلة العدد إلى قوة كبرى بعد انضواء المسيحيين تحت لوائهم.

وفي ظل هذه الدعوة تكاثرت كنائس جديدة في الولايات المتحدة، وفي ظلها تمارس الضغوط المتصاعدة على الفاتيكان لفك ارتباطه بالقدس، وتمسكه بهويتها العربية. إن هذه الدعوة، من دون شك، هي أخطر الأسلحة التي تسعى الحركة الصهيونية إلى استخدامها لمواجهة الحق العربي، بل لتكريس هيمنتها على المنطقة، وهي دعوة لا يمكن مواجهتها إلا عبر دعوة حضارية بالحجم ذاته، تركز على التلاقي التاريخي للمسيحية والإسلام، وحتى اليهودية، في صنع الحضارة العربية عبر العقود الماضية.

في ظل هذا التكامل يصبح ممكنًا قيام عنصر توحيد بين العرب وغير العرب من المسلمين المقيمين على الأرض العربية، وبفضله تتمكن المسيحية المشرقية العربية من أن تلعب دورها التاريخي كجسر حضاري بين المسيحية والإسلام، بين الشرق والغرب، فعروبة المسيحيين المشرقيين تعطيهم صلة خاصة بالإسلام، ومسيحيتهم تمنحهم القدرة على التخاطب الفاعل مع الغرب المسيحي.

إن بلورة هذا المشروع الحضاري العربي الجامع تمثل، كذلك، أحد أبرز بنود جدول أعمال مقاومة التطبيع الثقافي، لأن هذا المشروع يضرب مصدرًا رئيسيًّا من مصادر قوته على المستوى العالمي.

٥ ـ مواجهة الاختراق الثقافي:

ومن ناحية خامسة، لأن الثقافة هي مسؤولية فكرية وعلمية وأخلاقية، فإن المثقف العربي مسؤول بشكل خاص في مواجهة مشروع التفكيك الثقافي

العـربي. والعقل الصهيـوني بـات يـدرك أنـه إذا كـانت الثقـافـة العـربيـة صعبـة الاختراق، لعراقة جذورها ومتانـة مقوماتها، فإن مهمة اختراق بعض المثقفين العرب تبقى أسهل، وبـالتـالي يمكن استخـدامهم كأحصنـة طـروادة لاختراق الحصـون الثقافية العربية.

واختراق المثقفين العـــرب لن يأخـــذ بـــالضرورة شكل الاختراق الصهيـــوني المبـاشر، فمثل هـذا الاختراق يكشف أصحابـه ويقلل من تأثيرهم، بل هـو يأخـذ شكل الترويج لقيم ومفـاهيم وعلاقـات تصب مباشرة في تـدمير المناعـة الثقافيـة العـربيـــة. فـالترويـج لأنماط الاستهـلاك الغـربي مثـلاً، ونشر ثقـافـــة اليأس في الأمة، والإيحاء بـوجود تناقض بين متطلبات العصر والانتماء القـومي والروحي (أي الإسلامـي)، والادعاء بأن لا تقـدم اقتصاديًـا واجتماعيًّا إلا في ظل اقتصـاد السوق وشروطه العالميـة، وتقديم الخصوصيات الثقافية للجماعـات المتعايشة داخل مجتمع واحـد على أنها عنـاصر تناقـض وتناحـر لا يمكن الجمع بينهـا، والسقـوط بـاسم الواقعية في منطق الترويج لكل مشاريع الأعـداء، والاستهتار بسلم القيم الأخلاقية السـائدة، والتفـريط بكـل شروط المنـاعـة الاجتماعيـة وتصـويـرهـا من مخلفـات الماضي، والالتحاق بركـب السلاطين، وافتعال الخصومات، وتغليب الثـانوي من الخلافـات على الجوهـري من الصراعات ... إلـخ، كلها أشكـال متعـددة لنمط واحـد، يعتمـد على نـوع من المثقفين الــذين سقطـوا فـريسـة المشروع الاستعماري الثقافي، فكانوا عن وعي أو غير وعي جنودا في خدمة التطبيع.

٦ ـ الثقافة العربية الإسلامية للجماهير:

ومن ناحية سـادسة، يجب أن لا تنسينا ثقافـة النخبة التركيز على الثقافـة العربية الإسـلاميـة الشعبيـة، لأن هـذه الثقـافـــة الأخيرة تمثل عمقًـا بعيـد الأغـوار راسخ الجذور، ولأن المواطن العربي الإسلامي العادي هو مادة العروبة والإسلام، والعجلة والفلك الذي تدور عليه أمتنا نهوضًا وانكفاء، وحقيقـة الأمر أن سوسيولوجيا اليوم هي سياسة الغد على حد تعبير بوتول. وعلى هـذا فالتحصين السوسيولوجي الثقافي لأمتنـا يتم من خـــلال العض بـالنـواجـذ على منطقنـا الشعبـي ومـوضع حماسنـا

واعتزازنـا ، بأدبنا وفـولكلورنا ، بمـوقعنا في الحياة ، بمـوسوعتنـا الثقافية ، بجماليـاتنا وأخلاقياتنـا ، بحبنا الرفيع للحياة ، فهـذه الديناميات هي القـلاع الحصينة والروافع الناهضة . وحقيقة الأمر، أننـا إذا تمسكنا بهذا المنهج استطعنا القول إن التطبيع مجرد أسطورة ، ذلك أن العامة يملكون سـلاحين : سلاح الإيمان وسلاح اللسان . وبهذين السلاحين أخفق التطبيع الصليبي[١].

---

(١)من دراسة د . مجدي حماد ـ المقدمة للمؤتمر القومي الإسلامي في بيروت (يناير ٢٠٠٠م) .

٢ ـ تحدي التجزئة والتفكيك

وإذا كان التحدي الصهيوني هو أبرز ما يواجه أمتنا اليوم، والذي أمكنه أن يفرض عليها تسوية ظالمة، تعترف للظالم الغاصب بشرعية ما اغتصبه، ويتنازل فيها صاحب الدار عن حقوقه الأساسية له. ثم لم يكفه ذلك حتى أراد أن (يطبّع) العلاقة بين اللص وصاحب الدار، حتى ينسى ما وقع عليه من ظلم واغتصاب وتشريد، ويعيش الغاصب الباغي ناعم العين، مستريح البال، لا يخشى مقاومة، ولا يخاف انتفاضة من غرمانه المظلومين المقهورين . . .

فهناك تحدٍّ آخر لا يقل عن هذا التحدي في عظم خطره وبعد أثره، وهو (تحدي التجزئة والتفكيك) الذي أصاب الأمة منذ ألغيت الخلافة، وهدمت قلعتها، وباتت الأمة ممزقة الشمل، مشتتة القوى.

إننا بهذه التجزئة أصبحنا كيانات صغيرة، لا ترهب عدوا، ولا تنصر صديقا في عصر تتكتل فيه القوى ذات المصالح المشتركة بعضها مع بعض، ليستطيعوا أن ينافسوا الكتل الأخرى، وأن يحققوا طموحهم ويثبتوا وجودهم.

إن الناس بجوارنا يقوون بالتوحيد، ونحن بجوارهم نضعف بالتفرق. فمن المعلوم أن الاتحاد يقوى القلة، كما أن التفرق يضعف الكثرة.

ولا غرو أن تداعت علينا الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها، مع كثرة عددنا (مليار وثلث من البشر) ولكنها كثرة كغثاء السيل، كما صورها الحديث الشريف.

إن هـذا الهم الكبير لابـد أن يكـون في مقـدمـة همومنـا، لما لـه من ضرورة وأهميـة خاصة، إنه هو هم الوحدة، التي أمرنا الله بها في كتابه **﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾** [آل عمران: ١٠٣].

ونهانا عن التفـرق والتنازع، فقال: **﴿ولا تكونوا كـالذين تفرقوا واختلفـوا من بعد ما جاءهـم البينات﴾** [آل عمـران: ١٠٥]، **﴿ولا تنـازعـوا فتفشلـوا وتـذهـب ريحكم﴾** [الأنفال: ٤٦].

وحـذرنـا رسـولـه فقـال: «لا تختلفـوا فإن من كـان قبلكم اختلفـوا فهلكـوا» متفق عليـه. كما حذر من (فســاد ذات البين) واعتبـرها (الحالـقة) لا تحلق الشعـر، ولكن تحلق الدين.

وقد علمتنا الحيـاة أن الاتحاد يقوي الضعفاء وأن التفرق يضعف الأقـوياء، وأن اليد وحـدهـا لا تصفق، وأن الـذي أضـاع الـدولـة الإسـلاميـة الكبرى، التي يسميهـا بعضهم (الإمبراطوريـة الإسلامية) إنما هي نـزعات الفرقة والانفصـال. وأن أمتنا لم تحقق نصرا كبيرا على أعدائها إلا بفضل الوحدة، ولو كـانت جزئية مثل وحدة مصر والشام في عهد صلاح الدين الأيوبي.

فـلا حيـاة لهذه الأمة وهـي ممزقـة الأوصـال والأشـلاء، كأنها أمم شتى، وجماعـات متباينة، بل متجافية، بل متعادية، بل متقاتلة أحيانا، يذوق بعضها بأس بعض. ونحن في عـالم يتقارب بعضـه مع بعض، ويتكتل بعضه مع بعض، كما لمسنـا ذلك في الاتحاد الأوروبي، نـاسيـا الخلافـات القـديمـة، والحروب القـديمـة، العـرقيـة والـدينيـة والإقليمية، ولكن المصلحة المشتركة دعتهم أن ينسوا أو يتناسوا تلك الصراعات، وتلك الأيـام السود، وأن يقيمـوا سوقـا مشتركـة واتحادا مشتركا، وأن يتـلاحموا ويتضامنـوا فيما بينهم: في الثقـافة وفي السيـاسة، حتى لتكاد تذوب بينهـم كل الفروق. ونحـن وحدنا لا زلنا نعاني من التفرقة والتشرذم.

ونحن لا نستطيع أن نواجه المشروع الصهيوني إلا متحدين.

ولا نستطيع أن نحقق التنمية المنشودة إلا متحدين.

ولا نستطيع أن ندخل عصر التكنولوجيا المتطورة إلا متحدين.

ولا نستطيع أن نواجه التكتلات الكبرى في العالم بـالكيانات الصغيرة التي نشهدها

في عالمنـا . لابد من العمل لتجميع قـوى الأمة كلها : على اختـلاف أديانها من مسلمين ومسيحين ، واختلاف مـذاهبها مع سنيين وشيعيين ، واختـلاف توجهـاتها من عروبيين وإسـلاميين ، واختـلاف طبقـاتها من أغنيـاء وفقـراء ، ومـلاك ومستأجـرين ، وحكـام ومحكومين ، فالمعركة توجب أن تضم الجميع ، ولا يتخلف أحد .

وعلينا أن نقوي(التضامن) الموجود حاليا ، والمتمثل في(منظمة المؤتمر الإسلامي) التي تمثل الوجود السياسي للأمة الإسـلامية ، حتى تصبـح أكثر فعالـية وتأثيرا ، وأن نرتقي بها ـ بـالتـدريج ـ حتى نصـل إلى نـوع من الـوحـدة الفيـدرالـية ، أو الكـونفيـدراليـه أو غيرها ، يمكننا من تحقيق آمالنا وطموحاتنا ، ويعيننا على استرداد حقوقنا ، ويجعل لنا وزنا في نظر غيرنا .

إن هذا السعي إلى الوحدة المنشودة فريضة وضرورة ، فريضة بمنطق الدين ، وضرورة في منطق الواقع .

لقـد بات الـدم المسلم أرخص دم في العالم ، وغـدا المسلمون يـذبّحون ويقتّلـون في أقطار شتى ، ولا أحـد يحمى لهم ، أو يصرخ من أجلهم ، إنما توجـد أصوات خافتـة هنا وهنـاك تحتج على ما يجرى لأبنـاء الإسـلام ، والصوت الخافـت لا يوقظ نـائما ، ولا يحرك ساكنا ، بل هو صوت من شأنه أن ينيم اليقظان ، بدل أن ينبه النّعسان .

أمسينا طوال السنـوات الماضية لا نكاد نسمـع نشرة أخبار في الإذاعة ، أو نشاهدها في التلفاز ، إلا كانت أخبـار المسلمين ومآسيـهم هي التي تسود النشـرات . فمن نكـبة فلسـطين إلى داهيــة أفغانستـان ، إلى بـلوى الصـومال ، إلى محنة الفلبـين ، إلى مـأساة كشمير ، إلى كارثـة البوسنـة والهرسك ، إلى مصيبــة كوسـوفو ، إلى طـامّة الشيشـان ، إلى غيرها وغيرها من نـوائب البلـدان ، وعـاديات الزمـان ، حتى أصبحنـا ينطبق علينا قول أبي الطيب :

رماني الـدهر بـالأرزاء حتى ... فـؤادي في غشـــاء مـن نبال
فصرت إذا أصابتني سـهام ... تكسرت النصال على النصال

ولكن أقول هنا : إن من الشر ما يأتي بالخير ، ورب ضـارة نافعة ، فقد لاحظت أن هذه المحن والشدائد التي تنـزل بالمسلمين ، والمعارك التي تفرض عليهم ، رغما عنهم ، والمظالم

التي تحل بسـاحتهم من قبل القـوى المعـاديـة لهم مـن الصهيـونيين والصليبيين والوثنيين، وأعداء الملة والأمة، توقظ الروح الإسلامية، والشعور بالأخوة الإسلامية، وتُري من يـريد أن يـرى: حقيقـة الأمة الإسـلاميـة الواحـدة ماثلـة للعيـان، حية في وجـدان الشعوب.

لقـد رأيت ذلـك في أزمـة أفغـانستـان، وأزمـة كشمير المسلمـة، وأزمـة البـوسنـة والهرسك، وأزمة كوسوفو، وأزمة الشيشان، رأيت غليان المسلمين في كل مكان من أرض الإسلام من أجل إخوانهم المستضعفين في الأرض، من الرجـال والنساء والولدان، الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتـدون سبيلا. رأيت تحرق الشباب للذهـاب إلى ميادين الجهاد لمشـاركة هـؤلاء الأبطـال في جهـادهم، رأيت الجمعيات الخيريـة والإغـاثيـة الإسلاميـة تستنجد الناس لنجدة إخوانهم، ورأيت الجماهير المسلمة تتجاوب معهم، حتى إن المرأة تتبرع بحليتها وخاتم زواجها! رأيت خطباء المساجد في صلوات الجمع، وفي قنوت الوتر في صلاة التراويح في رمضـان، يدعـون لإخوانهم المجـاهدين بـالنصر المبين، ولإخوانهم المشردين والمأسورين، أن يفك الله بقـوته أسرهم، ويجبر برحمته كسرهم، ويتـولى بعنايته أمـرهم، وفي دعـائهم على اليهـود والصربيين والهنـدوس، وأخيرا على الـروس الطغـاة المتجبرين، أن يأخذهم أخذ عـزيز مقتدر وأن ينكس أعلامهم، ويـزلزل أقدامهم، وأن يهلكهم كما أهلك ثمود بالطاغية، وكما أهلك عادا بريح صرصر عاتية، وأن ينزل عليهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

ورأيت تجاوب المسلمين في كل مكـان مع قضيـة أرض الإسراء والمعـراج، وأرض المسجد الأقصى واستعدادهم لبذل الأنفس والنفائس من أجلها.

نعم، نحن نرى الحكومـات في البلاد الإسلامية ـ إلا ما رحم ربك ـ غائبة عن هذه المحن الإسلاميـة، ولا تكاد تحس بها، لأنها نائمـة أو منومـة، وحتى إذا أحست بها فهو إحسـاس واهن، لا يحتل بـؤرة الشعـور، ولا يثير كوامـن الوجـدان، بل هـو في هـامش الشعـور، وحتـى لـو استيقظ هـذا الشعـور، وأدركتـه الصحـوة الفطـريـة في بعض الأوقات، فإن مراعاة المصالح الداخلية، والخضوع للضغوط الخارجية، كفيلان أن يلجئا هذا الشعور إلى أن يختبئ فلا يظهر، وأن يصمت فلا ينطق، بل أن يموت فلا يحيا.

لكن عزاءنا عن غياب هذه الحكومات النائمة أو المنومة، التي تقودها المصالح القريبة، لا الأهداف البعيدة، وتؤثر إرضاء قوى البشر الضاغطة، على إرضاء الله تعالى والولاء له ولأمته، عزاءنا عن نوم هذه الحكومات: هو يقظة شعوبنا المسلمة ووعيها بقضاياها، وخصوصا عندما تحتد الأزمات وتحلولك الظلمات، وتتوالى الضربات الموجعات. هنا يصحو وجدان الأمة، وتتحرك مشاعرها، وتستثار كوامنها ولواعجها، لتثبت وجودها لمن ينكره، وأنه حقيقة لا وهم، وأنها لم تزل حية لم تمت، باقية لم تزُل من خارطة الوجود.

ضرورة تجميع كل القوى للمواجهة والتصدي:

إن موقفنا نحن العرب والمسلمين ـ ونحن نستقبل القرن الحادي والعشرين ـ يقتضي منا أن نعمل بجد وصدق، على تجميع كل القوى لمواجهة أعدائنا: الفقر والجهل والمرض والرذيلة والتعصب والحقد والبغضاء والتبعية في الداخل، والصهيونية والصليبية والشيوعية والاستكبار في الخارج.

تجميع كل المواطنين مسلمين ومسيحيين:

لابد من تجميع القوى الوطنية والقومية كلها، بغض النظر عن اختلافاتها الدينية، فإن لم يجمعنا الدين تجمعنا (الدار) فالفقه الإسلامي يعتبر غير المسلمين في أوطاننا من(أهل الدار) أي أهل دار الإسلام، وهي كلمة نترجم عنها الآن باسم(المواطنة).

على أننا من الناحية الدينية الخالصة ـ يجمعنا معنى (الكتابية) أي أننا وهم من(أهل الكتاب) الذين اعتبرهم الإسلام صنفا متميزا من غير المسلمين، وناداهم في كتابه بهذا الوصف الموحي بالإيناس والتقريب (يا أهل الكتاب) وشرع لهم من الأحكام ما يميزهم عن غيرهم، فأجاز مؤاكلتهم ومصاهرتهم، كما قال تعالى: **﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾** [المائدة: ٥].

والمسيحيون منهم لهم منزلة أخص من عموم أهل الكتاب، باعتبارهم أقرب مودة

للمسلمين كجماعة، بخلاف اليهود، فهم مع المشركين أشد الناس عداوة للذين آمنوا، كما نبه على ذلك القرآن.

والعرب من هؤلاء لهم منزلة أكثر خصوصية، بسبب أن العربية ـ وهي لغة القرآن ـ لغتهم، والثقافة الإسلامية ـ بصفة عامة ـ ثقافتهم، فهم لذلك يعدون مسلمين بالثقافة والحضارة، لا بالعقيدة والملة. وهذا ما اعترف به كثير من كبار المسيحيين في العالم العربي.

بل منهم من دعا إلى تطبيق الشريعة الإسلامية على المسلمين وغير المسلمين، بحرارة وحماسة فاقت حماسة كثير من المسلمين أنفسهم، مثل الزعيم المسيحي السوري المعروف فارس الخوري. كما بينت ذلك في كتابي (بينات الحل الإسلامي) ورسالتي(الأقليات الدينية والحل الإسلامي).

وعلى كل حال، عندما يكون الخطر محدقا بالوطن كله، وبالأمة جميعا، بحرمات الأمة ومقدساتها، لابد أن يقف الجميع مقاومين ومرابطين ومدافعين عن الحمى، المسلمون والمسيحيون سواء، ومن هنا عقد المؤتمر المشترك بين الفئتين من أجل قضية القدس الشريف في بيروت سنة ١٩٩٦ تحت عنوان (مسلمون ومسيحيون معا من أجل القدس) وقد شاركت في هذا المؤتمر، وشارك فيه كثير من أعلام المسلمين، ومن آباء المسيحيين من مختلف مذاهبهم وكنائسهم.

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى المحاولات الخبيثة والمشبوهة التي تسعى سعيها في تفتيت الصف، وتمزيق الوحدة، وإثارة الفتنة بين أبناء الشعب الواحد، التي قد يخدع بها ويقع في شباكها الطيبون من المواطنين.

ولابد لنا من العمل بكل قوة لسد الأبواب التي تهب منها رياح الفتنة الطائفية السموم.

وذلك ببيان الموقف الإسلامي الصحيح من الأقليات المسيحية الموجودة بالفعل في أكثر من بلد عربي وإسلامي، وتفنيد الأقوال المتشنجة التي يقولها بعض المسلمين المعاصرين، مستندين إلى آراء قديمة في بعض الكتب.

لابد من تبنّ واضح وحاسم للاجتهادات المعاصرة المتسامحة والمنفتحة على الآخرين،

ومن ذلك قضيــة (الجزية) التي هي عبـارة عن (ضريبة رءوس) على غير المسلمين، في مقابل فريضتين دينيتين على المسلمين، هما: الزكاة والجهاد.

فإذا قبلوا أن يدفعوا ضريبة مساوية للزكـاة، من ناحية، وقبلوا أن يجندوا للدفاع عن الوطن والأمة كالمسلمين، فواجب على أولي الأمر أن يمكنوهم من ذلك.

وقد طلـب بنو تغلب ـ وكانوا مـن نصارى العرب ـ من أمير المؤمنين عمر أن يسقط عنهم (اسم الجزية) ويأخذ في مقـابلها ما شاء (باسم الصدقـة) لأنهم يأنفون من كلمة (جزية) فقبل منهم عمر، وقال قولته: هؤلاء القوم حمقى، رضوا المعنى وأبوا الاسم.

وقد شرحنا هذا المعنى في أكثر من كتاب لنا، بما لا يدع مجالا للبس أو إيهام.

ويجب علينـا أن نقف في وجـه الغلاة ومشعلي النـار من الفـريقين: المسلمين وغير المسلمين، من الحمقى الـذين لا يـدرون ماذا يفعلـون، ومن المتعصبين الـذين أعماهم التعصب وأصمهم، فهم لا يبصرون ولا يسمعون.

وعلينـا كذلك أن نفـوت الفـرصة على الـذين يصبـون الـزيت على النار من خـارج البلاد، بدعـوى أنهم يريدون حماية الأقليات من الاضطهـاد الديني، وهم يجعلون من الحبـة قبة، ومن الفأر جملا، فإذا لم يجدوا فأرا ولا حبـة لتضخيمهـا، اختلقوا من عنـد أنفسهم أوهاما، ليتخذوا منها ذريعة للتدخـل في شئوننا ومقدراتنا، كما حاولوا ذلك في مصر وفي السودان وفي غيرهما.

والعقلاء والحكماء من المسيحيين يـرفضون هذه التـدخلات بوضوح، ويـرون أنه لا يمكن أن يحميهم شيء غير سماحة الإسـلام، وشريعة الإسـلام، وتفاهم عنـاصر الأمة فيما بينهم دون سماح للغـرباء أن يتـدخلـوا فيعكروا الصفـو، ويسيئـوا إلى العلاقـات، ويقطعوا حبـال المودة، فهم كما قال اللـه تعالى: ﴿**والذين ينقضـون عهد اللـه من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار**﴾ [الرعد: ٢٥].

وعلى أهل الحكمة من المسلمين والمسيحيين توعية الجميع بأن (الطائفية) ليست من (التدين) في شيء، فالتدين يقوم على المحبة، والطائفية تقوم على الحقد، والتدين الحق سماحـة مع المخالف، والطـائفية تعصب ضـد الآخر. التـدين يبني والطائفيـة تهدم، التدين يحيي والطائفية تميت.

تجميع كل المسلمين من سنيين وشيعة :

ومن التجميع المطلوب لمواجهة القوى المعادية لأمتنا : تجميع كل القوى والشعوب الإسلامية ، بالرغم من الاختلاف المذهبي بينهم ، وأعني بالخلاف المذهبي : الخلاف بين السنة والشيعة ، وبين السنة والأباضية . فأنا أعلم أن أعداء الأمة يريدون أن يشعلوها حربا دينية صريحة بلقاء ، بين المسلمين بعضهم وبعض ، لم يكفهم الحرب التي قامت بين العراق وإيران ، على أساس قومي : عرب وفرس ، فهم يريدونها الآن بين سنة وشيعة ، ويجب على العقلاء والحكماء من الفريقين : أن يكونوا أكثر وعيا وذكاء منهم ، ولا يمنحوهم الفرصة ، لينبشوا القديم ، ويضخموا الجديد ، ويخلقوا المشاكل ، ويضعوا العقبات ، ويثيروا الفتن .

وقد اشتركت في (ندوة التقريب بين المذاهب) التي دعت إليها المنظمة الإسلامية للثقافة والتربية والعلوم ، سنة ١٩٩٥م والتي عقدت في الرباط ، وحضرها علماء ودعاة من أهل السنة ومن الشيعة معا ، وأسفرت عن توصيات طيبة .

كما زرت إيران في ربيع سنة ١٩٩٨م بدعوة من مجمع التقريب بين المذاهب ، برئاسة الرجل السمح آية الله الشيخ واعظ زاده الخراساني ، وتأييد من صديقنا آية الله الشيخ محمد على التسخيري . ولقيت عددا كبيرا من العلماء في طهران وقم ومشهد وأصفهان ، كما لقيت رئيس الجمهورية السيد محمد خاتمي ، واستمرت مقابلتي معه نحو ساعة ، كما لقيت رئيس مجلس تشخيص مصلحة النظام حجة الإسلام علي أكبر رفسنجاني[١] .

ووجدت عند الجميع رغبة في التفاهم والتعاون والتلاقي ، وقد ذكرت لهم بصراحة الأشياء التي تحول دون التقريب الحقيقي ، وهو: سب الصحابة والموقف من أهل السنة داخل إيران ، ومحاولة نشر التشيع في بلاد أهل السنة .

وقد تجاوب معي الفضلاء من علمائهم ، وأكدوا معي أن لا مبرر لسب الصحابة ، وبخاصة الكبار منهم مثل أبي بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم ، وقد أفضوا إلى ما قدموا ، كما أكدوا لي أنهم في كتبهم الدراسية ذكروا مواقف

---

(١) كان مرشد الجمهورية وقائدها السيد علي خامنئي مريضا في ذلك الوقت ، فلم أتمكن من مقابلته .

تحتذى لأبي بكر وعمر، باعتبارها نماذج إسلامية للبطولة والهداية، وهذه لا شك خطوة إلى الأمام، نرجو أن تتبعها خطوات.

وما أبلغ ما قاله الخليفة الأموي الراشد عمر بن عبد العزيز حين سئل عما شجر بين الصحابة، فقال: تلك دماء طهر الله منها أيدينا، فلا نلطخ بها ألسنتنا!

والله تعالى يقول: ﴿تلك أمة قد خلت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم، ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١].

ومما يساعد في هذا الاتجاه التقريبي: أن أهل السنة جميعا يحبون أهل البيت حبا جما، فمن ذا الذي لا يحب فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، وأحب بنات رسول الله إليه؟ ومن ذا الذي لا يحب زوج فاطمة البتول، وابن عم الرسول، وسيف الإسلام المسلول، فارس الأمة المعلم، وخطيبها المفوه وعالمها وأقضاها علي بن أبي طالب؟ ومن ذا الذي لا يحب السبطين الكريمين، سيدي شباب أهل الجنة: الحسن أشبه الناس خلقا وخلقا برسول الله صلى الله عليه وسلم، والحسين أبا الشهداء؟

كل أهل السنة من عرب وعجم يتقربون إلى الله تعالى بحب هؤلاء جميعا لقربهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخولهم في دائرة قوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

ويريد أهل السنة من الشيعة أن يقابلوا حب أهل البيت بحب الصحابة رضي الله عن الجميع، فكما نحب أهل بيته عليه الصلاة والسلام، يجب أن نحب صحبه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون.

ولا سيما من كان أقرب منهم إليه مثل الخلفاء الأربعة، والعشرة المبشرة، والمهاجرين والأنصار، فكل من كان قريبا من مشكاة النبوة أصابه قبس من نورها.

وحسبنا في فضل الصحابة: ما نطقت به آيات الكتاب العزيز في أواخر سورة الأنفال، وفي سورة التوبة، وفي آخر سورة الفتح، وفي وسطها، وفي سورة الحشر، وخصوصا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وأهل بدر، وأهل أحد، وأهل بيعة الرضوان.

أضف إلى ذلك ما صرحت به الأحاديث الصحاح المستفيضة في فضلهم عموما، وفي فضل آحاد منهم خصوصا.

يـؤكـد ذلك أن هؤلاء هم الـذين نقلـوا إلينـا القـرآن ، متلوا بألسنتهم ، محفـوظـا في صدورهم ، مكتوبا في مصاحفهم .

وهـم الذين رووا لنا سنن الرسول الكريم ، وتفاصيل سيرته وأقواله وأفعاله وتقريراته ، فما خانوا ولا بدلوا .

وقد ذكـر بعض الإخـوة أن الشيعة - كل الشيعـة - يؤمنون بتحـريف القـرآن ، وأنه ناقص ، ونقلـوا في ذلك من كتب الشيعة ما يؤيـد هذه الدعوى . وأنـا لا أنكر أن هذه الأقوال مـوجودة في كتب الشيعة ، ولكن ليس كل مـا يوجد في الكتب يكـون صحيحا مائة في المائة ، ويؤمن كل الشيعة بها فيه .

فـالمحققون مـن الشيعة يقـولـون : إن الـذي ينقل في هذا المعنى إنما هـو من كـلام (الإخباريين) لا من كلام (الأصوليين) .

والذي لا شك فيه أن الجميع يـؤمنون أن ما بين دفتي المصحف هو كـلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وأن المصحف الـذي يطبع في إيـران هو نفس المصحف الـذي يطبع في المدينـة وفي القاهرة ، وسائر بلاد المسلمين .

وأنه هو الذي يحفظه أبناؤهم في المدارس ، ويتلى عندهم في الإذاعة والتلفاز.

وهو الـذي يحتج به علماء العقيدة عنـدهم على عقائدهم ، ويستدل بـه علماء الفقه والشريعة على الأحكام .

صحيح أننـا قـد نختلف معهم في تأويـل بعض الآيـات . كما نختلف معهم في استنباط بعض الأحكـام ، ولكن هذا لا يوجب أن نكفرهم ونخـرجهم من الملة ، فكثيرا مـا يختلف أهل السنة بعضهم مع بعض ، في قليل أو كثير من الاجتهـادات الفرعيـة في العقائد أو الفروع ، النظرية والعملية ، ولا يـوجب هذا تكفيرا ، كالاختلاف بين مدرسة الـرأي والنظـر ، ومـدرسة الحـديث والأثر في الفقـه ، والاختـلاف بين مـؤولي آيـات الصفات وأحـاديثها من نظّـار الأشاعـرة والماتريـدية ، وبين مانعي التأويـل مطلقا من الحنابلة ومن وافقهم .

والخلاف بين أهل السنة والأباضية أضيق دائرة، وذلك في مثل قضية رؤية الله تعالى في الآخرة، وأفعال العباد بين الجبر والاختيار، ونحو ذلك.

ومثل هـذا الخلاف لا ينبغي أن يـؤدي إلى قطيعة مـع الإباضيـة، أو تحريم الصـلاة خلفهم، فهذه قضايا نظرية لا يترتب عليها أمر عملي، ولكل فيها اجتهاده، أصاب أم أخطأ، وما على الباحث عن الحق إلا أن يستفـرغ وسعه، ويجرد نفسه من اتباع الهوى، والانقياد لغير الحق، ولا يكلفـه الله تعالى أكثـر من هذا، إذ ﴿**لا يكلف اللـه نفسا إلا وسعها**﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقـد رجح الإمامـان ابن تيمية وابـن القيم أن المجتهد في مسـائل الدين العلميـة أو العملية معـذور إن أخطأ الصواب، بل مأجـور أجرا واحدا، ولا دليل على التفـرقة بين العلميات والعمليات.

وأعتقـد أن المصـائب الكبرى التي تحيق بالأمـة من يمين وشمال، جـديـرة أن تجمع المتفرقين، وتوحد المختلفين. وما أصدق ما قال شوقي: إن المصائب يجمعن المصابين!

ولقد ذكر لنا القـرآن الكريم في أوائـل سـورة الروم كيف حزن المسلمون لغلبة الفرس ــ وهـم مجوس يعبدون النـار ـ على الـروم، وهـم نصارى أهل كتـاب، ووقع بينهـم وبين المشركين من قريش جدال ومراهنة حول مستقبل الفريقين. ونـزل القرآن يبشر المؤمنين، بأن الريح ستتجه لصالح الروم، وأن النصر سيكون لهم. ﴿**ألم. غلبت الروم. في أدنى الأرض وهم من بعـد غلبهم سيغلبـون. في بضـع سنين. للـه الأمـر من قبل ومن بعـد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم**﴾ [الروم: ١-٥].

أفليس ما بين السنة والشيعة أقرب وأقرب مما بين المسلمين والروم؟

إننـا لا ننكـر الخلاف مـا بين المذهبين، ولكن ما نتفـق فيه من القضـايـا الأصليـة والفرعية، النظرية والعملية، أوسع بكثير مما نختلف فيه، أو ليس الأولى بالجميع تبني هذه القـاعدة الـذهبية الحكيمـة: «نتعاون فيما اتفقنـا عليه، ويعـذر بعضنا بعضـا فيما اختلفنا فيه».

ولا ريب أن الذي نتفق عليه كثير وكثير جدا، فليضع كل منـا يده في يد أخيه ليشد أزره فيه: «والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» متفق عليه.

ألسنا جميعا من أهل القبلة؟

ألسنا جميعا من أهل (لا إله إلا الله محمد رسول الله)؟

ألسنا نؤمن جميعا بأركان الإيمان الخمسة كما ذكرها القرآن: (الإيمان بالله واليوم الآخر، والملائكة والكتاب والنبيين)؟

ألسنا جميعا نؤمن بأركان الإسلام الخمسة (الشهادتان، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت)؟

ألسنا جميعا نؤمن بمكارم الأخلاق؟

ألسنا جميعا نرفض الإلحاد والإباحية؟

ألسنا جميعا نقاوم الاستعمار والصهيونية؟

ألسنا جميعا نحارب الاستبداد والمظالم الاجتماعية؟

ألسنا جميعا نقف مع المستضعفين في الأرض من المسلمين؟

ألسنا جميعا ضد الطغاة والمستكبرين في الأرض بغير الحق؟

ألسنا.......... ألسنا..........؟

فلنتعاون في هذه الأمور التي تفتقر منا إلى بذل الجهود، وتجنيد الجنود، وحشد القوى، وتعبئة الطاقات، ورص الصفوف، للوقوف في المعركة جنبا إلى جنب، كما قال تعالى: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص﴾ [الصف: ٤].

تجميع كل الاتجاهات إسلامية وقومية:

ومما يدخل في إطار التجميع والتكتيل المطلوب: توحيد كل الاتجاهات الإيجابية والفاعلة في الساحة الوطنية، والحريصة على سيادة الأمة واستقلالها، والمدافعة عن حقوقها وحرماتها، والواقفة في وجه المعتدي عليها.

وأهم هذه التيارات أو الاتجاهات: الاتجاه الإسلامي الذي ينادي بالإسلام مرجعا للأمة، ومنهاجا للحياة، وأساسا للإصلاح والتغيير.

والاتجاه القومي، ويمثله في الوطن العربي: الاتجاه العروبي، الذي يدعو إلى العروبة

أساسا للوحدة، ومنطلقا لحفز الأمة، وربطها بتراثها وحضارتها، اعتمادا على اللغة الجامعة، والتاريخ المشترك.

ولا يخفى أن في كل من التيارين غلاة ومتشنجين، لا يقبل كل منهما التفاهم مع الآخر، ولا يود الاقتراب منه.

ففي الإسلاميين من يعتبر كل دعوة قومية دعوة جاهلية، ومروقا من الدين، وإنكارا للإسلام ورسالته وحضارته وأمته.

وفي القوميين من يرى الإسلام عائقا للأمة عن التقدم، ومن يرى أن الدعوة للدين دعوة إلى الرجعية والعودة إلى الوراء، وهو يعتبر القومية كأنها هي نبوة جديدة تجمع الناس، بدل نبوة محمد ﷺ، ومن يرى قطع كل علاقة بالمسلمين من غير العرب، وهؤلاء الغلاة من الفريقين لا يمكن أن يلتقيا، ولا أرضية مشتركة بينهما.

ولكن المدار على أهل الاعتدال من الفريقين، ممن يمثل التيار الوسطى أو يقترب منه.

إذ لا ريب أن العربية هي لسان الإسلام، والعروبة وعاؤه، وأرض العرب فيها نشأت دعوة الإسلام، ومنها انطلقت وفتحت الآفاق، وكتاب الإسلام عربي، ورسول الإسلام عربي، وصحابته عرب، وهم الذين تلقوا عنه القرآن، ونشروا الإسلام، وعلموا الأمم. وكل مقدسات الإسلام الكبرى مثل المسجد الحرام والبيت الحرام، ومسجد الرسول وقبره، والمسجد الأقصى، كلها في أرض العرب.

وحضارة الإسلام وثقافته إنما عبرت عنها لغة العرب، فإذا كان معتمد القومية العربية على اللغة والتاريخ، فاللغة هي لغة القرآن، والتاريخ في جوهره هو تاريخ الإسلام.

والإسلام بغير خلاف هو الذي وحّد أمة العرب، وهداهم من ضلالات الوثنية، وعلمهم بعد الجاهلية، وأخرجهم من الظلمات إلى النور وحملهم رسالة الهداية للعالم، وجعل منهم رعاة الأمم بعد أن كانوا رعاة الغنم، وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

فلا يشك عربي مسلما أو غير مسلم، في فضل الإسلام على العرب والعروبة، وأنه الذي رفع ذكرهم في العالمين.

ترى ماذا كان سيكون مثل أبى بكر وعمر وعلي وأبي عبيدة وسعد وخالد لو لم يكن الإسلام، ولو لم يدخلوا فيه ويجاهدوا في سبيله، ويساهموا في تمكينه في الأرض؟

لقد كان عمر بن الخطاب يقارن بعَمرو بن هشام (أبي جهل) وأسلم عمر، وبقى أبوجهل على شركه وضلاله، ومات عليه، فأين هذا من ذاك، وأين الثريا وأين الثرى؟ وهل سيكون خالد بن الوليد أكثر من فارس مثل عنترة بن شداد العبسي؟

إن فخر العرب إنما هو بالقرآن لا بشعر امرئ القيس أو عمرو بن كلثوم.

فخر العرب إنما هو بمحمد الذي جعلهم الله به أمة وسطا، وكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها.

فخر العرب إنما هو بالإسلام الذي أورثهم ممالك كسرى وقيصر، وأصبحوا به كالشامة بين الأمم، حتى قال ابن الخطاب بحق: نحن كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغيره أذلنا الله.

وفي ضوء هذه المعاني ينبغي أن يلتقي الفريقان: القومي والإسلامي، وهذا ما دعا عقلاء التيارين أن يفكروا معا في إطار الجوامع الواشجة، والقواسم المشتركة، للوقوف صفا واحدا في وجه التحديات الكبيرة الهائلة التي تواجهها الأمة اليوم.

وقد أدى هذا إلى تقديم ورقتين من كل من التيارين تدعوان إلى ضرورة التلاقي والتجمع في إطار ما قدمه الطرفان من جوامع وضوابط.

وكان من وراء ذلك المؤتمر القومي الإسلامي الذي انعقد في مدينة بيروت في أكتوبر سنة ١٩٩٤، واعتبر المؤتمر التأسيسي، وأقر صيغة التلاقي، كما اعتبر مؤسسة دائمة، تلتقي كل سنتين.

وقد التقى المؤتمر ثلاث مرات: اللقاء الأول في ١٩٩٤، والثاني في ١٩٩٧، والثالث في هذه السنة يناير ٢٠٠٠، وكلها في بيروت، وكان لي شرف المشاركة في الأول والثالث منها.

وفي اعتقادي أن هذه ظاهرة صحية، وخطوة إيجابية، وكل من التيارين له قوته وله أتباعه وأنصاره في العالم العربي، وله دعاته ومفكروه، وقد عاش التياران متباعدين فترة

طويلـة من الزمـن ، بل أقول بصراحة : متنـافرين ، بـل متعاديين ، بسبب سيطـرة الغلاة والمتفيهقين من هــؤلاء وهـؤلاء ، وبسبب جهل كـل طـرف بـالآخــر ، أو معـرفتــه من السطح ، ومن جهل شيئا عاداه .

فلما اقترب الطرفان ، وخصوصا العقلاء منهما ، وجدا أن ما يجمع بينهما أكثر بكثير مما يفـــرق ، وأن الخير كل الخير في الاتحاد والائتـــــلاف ، وأن الشر كل الشر في الافتراق والاختلاف ، وأنـه إذا أحسن كل طرف الظن بالآخـر ، وأحسن التعمق في فهمه ، واقترب خطـوة من صاحبه ، اســتحال الخــلاف إلى وئام ، ووقـف الجميــع في صـــف واحـد كالبنيان المرصوص .

وأشهد أني رأيت هـذا التقارب قد أدى إلى خير كثير ، فقـد وجدت الذين يتحـدثون من القـوميين في جلسات المؤتمر يبـدأون حديثهم بــ(بسم الله)والصـلاة والسلام على رسول الله .

ووجــدت الجميع يــؤكـدون على معــاني الإيمان ، والتمسك بــالقيم والفضـــائل الأخـلاقيـة ، ويعتــزون بـالتراث والحضـارة الإسـلاميـة ، بل وجــدت هـذا عنـد غير المسلمين ، كما عند المسلمين .

ولقد سميت بعض إخواننا من المسيحيين مثل الأب أنطوان ضو يثني في كلمته على موقعنا الإسلامي العالمي على الإنترنت ، وهو موقع (Islam On line) وعلى ما يقدمه من معرفة وخدمات .

كما رأيت الدكتور جورج جبور من سوريـا يثني على برنامجي في قناة الجزيرة(الشريعة والحيـاة)ويقول لي : إنني أتـابعه بـاستمرار ، وهـو خير ما يقـدم في عصرنا للتعـرف على الإسلام ، وخصوصا لغير المسلمين .

ولقد قـرأت الأوراق المقدمـة من القوميين ، فلم أجـد فيها مـا ينكره الإسـلام ، إلا ما نـدر ، ممـا قد يقع من الإسـلاميين الخلص أنفسهم ، بـل رأيت عددا منهـا يفيض إيمانـا وحماسا لثقافة الإسلام ، وأمة الإسلام .

تجميع كل القوميات عربا وغير عرب :

وفي إطار التجميع والتكتيل وتوحيد الصفوف الذي ننشده، يلزمنا أن نجمع كل القوميات المختلفة، في ديارنا العربية خاصة ما دام يضمها الدين الواحد، والوطن الواحد، والثقافة الواحدة.

ومن هنا لا ينبغي بحال أن يوجد مجال للتفرقة بين عرب وأكراد في العراق، ولا بين عرب وبربر في شمال أفريقيا (الجزائر والمغرب).

فقد ضم الإسلام الجميع في حضانته، وصبهم في قالبه، وصبغهم بصبغته، ربطت بينهم العقيدة الواحدة، والشعائر الواحدة، والقبلة الواحدة، والآداب الواحدة، والشريعة الواحدة، فكلهم يؤمنون برب واحد، وبرسول واحد، وبقرآن واحد، وكلهم جاهد في سبيل هذا الدين، وزاد عنه أعداءه.

الأكراد هم الذين دافعوا عن أرض العرب، أرض المقدسات والمسجد الأقصى، أرض فلسطين، وهم الذين قادوا المعارك وقاوموا الصليبيين بصلابة وشراسة، حتى انتصروا عليهم بقيادة صلاح الأيوبي، وهم الذين نصرهم الله نصره المبين في معركة حطين، وهم الذين فتح الله على أيديهم بيت المقدس، فاسترده المسلمون من الصليبيين ؟؟ بعد أن ظل أسيرا في أيديهم تسعين عاما كاملة.

والبربر هم الذين نصروا الإسلام منذ أن وطنت قدمه بلاد المغرب، ومن ذا الذي ينسى طارق بن زياد وأصحابه الذين اجتازوا البحر، وانطلقوا إلى الشاطئ الأوربي، ليرفعوا فيه راية التوحيد، ويعلوا كلمة الإسلام، ويقيموا دولة أنشأت حضارة شامخة البناء، تعلمت منها أوربا لعدة قرون، وتركت وراءها آثارا لا تزال تشير إليها وتدل عليها، إلى اليوم.

ولن ينسى الجزائريون أن الذي بعث النهضة العربية الإسلامية في الجزائر، كان رجلا بربريا، وهو الشيخ ابن باديس، ومعه كثيرون من العرب مثل الشيخ الإبراهيمي، ومن البربر مثل الشيخ الفضيل الورتلاني، والجزائريون عربهم وبربرهم يفخرون برجلين كبيرين في تاريخ الجزائر الحديثة : الأمير عبدالقادر العربي، والشيخ ابن باديس البربري، الأول جاهد بالسيف والسنان، والثاني جاهد بالقلم واللسان.

ثم إن هـذه القـوميـات هي جزء أصيل مـن وطنها، لا يجوز الجور عليهـا، ونكـران حقوقها، وجحـود خصوصياتها الثقافيـة واللغوية، مع الاعتراف بحق اللغـة العربية في السيادة والسلطان على الأمة كلها.

ومن المعلـوم الذي لا نـزاع فيه: أن الإسـلام رسالـة عالميـة، وأنه لا يفـرق بين عرب وعجم، ولا بين شرق وغرب، وأنـه جاء ليذيب الفوارق بين النـاس، وليمحو النـزغات العصبية التي تفرق جماعتهم، وتعادي وحدتهم، فهـو يبرأ ممن دعا إلى عصبية، أو قاتل على عصبية، وأنه جـاء ليدعو الجميع إلى أخوة إيمانية جـامعة، تضم كل الأعراق، وكل الألـوان، وكل الأقـاليم، وكل الألسنـة، وكل الطبقات، فقـال تعـالى: ﴿**إنما المؤمنـون إخوة**﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال الـرسول الكريم «المسلم أخو المسلم»، «كـونوا عباد الله إخـوانا» متفق عليهما «المسلمون يسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم» رواه أبو داود وابن ماجه.

ومع هـذا لم ينكـر الإسـلام خصـوصيـات القبـائل والشعـوب، فقـد قـال عـز وجل: ﴿**وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا**﴾ [الحجرات: ١٣].

فلا يجوز أن نؤجج حربا مفتعلة بين القوميات الإسلامية بعضها وبعض، وخصوصا بين القوميـات التي تعيش في داخل الـوطن العربي، وتعترف بـاللغة العـربية ومكـانتها بـاعتبـارها لغـة القـرآن والحديث النبـوي، ولغة العبـادة، ولسـان الثقـافة الإسـلاميـة الأصلي، ويجب أن تكون لغة التفاهم المشترك بين المسلمين كافة.

تجميع قوى الأمة الإسلامية في العالم:

ومـا يدخل في إطـار التجميع الـواجب علينا: تجميع قـوى الأمـة الإسلاميـة، وإن اختلفت عروقها، وتباينت ألسنتها، وتباعـدت أوطانها. فنحن جزء من هذه الأمة، وهي أمتنا التي نعتز بالانتماء إليها، ونعتبر أهلها جميعا إخوة كما قال الله تعالى: ﴿**إنما المؤمنون إخـوة**﴾ [الحجـرات: ١٠] وقـد من اللـه علينـا بهذه النعمـة، نعمـة الأخـوة، حين قال: ﴿**واذكروا نعمـة الله عليكم إذ كنتم أعـداء فألف بين قلوبكم، فـأصبحتم بنعمته إخوانا**﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وإذا كنا نحن العرب نحرص على كسب العرب غير المسلمين، وهم أقلية محدودة، فكيف لا نحرص على كسب المسلمين غير العرب، وهم أكثرية ضخمة؟ فالعرب بالنسبة لسائر المسلمين، يساوون نحو الخمس، فكيف نضيع ولاء أربعة أخماس الأمة لنا؟ وهل يصنع هذا عاقل؟

هذا لو كنا نتحدث بالمنطق القومي الذي ينظر إلى هذا الأمر بمعيار المكسب والخسارة، أما المنطق الديني، فيرى تجميع الأمة المسلمة كلها فريضة دينية مقدسة، لا سيما في مواجهة التحديات الكبرى التي نواجهها اليوم. وإذا كان كل يهودي في العالم مستنفرا لحساب إسرائيل، فلماذا لا نستنفر المسلمين حيثما كانوا لقضية فلسطين والمسجد الأقصى، وسائر قضايانا الخطيرة التي تطالبنا أن نقف صفا واحدا، كما أمرنا الله تعالى؟

وأعود فأؤكد أهمية (الدائرة الإسلامية) لنا نحن العرب، وضرورة التلاحم بيننا، لنصرة قضايانا، ولا يجوز لنا أن ننسى أن الإسلام عرّب عواطف المسلمين في العالم، وجعلهم يعتزون بالعرب، ويحبونهم، لأنهم أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما لا ينبغي أن ننسى أن سبب إنشاء منظمة (المؤتمر الإسلامي) العالمية، إنما كان هو (حريق المسجد الأقصى) سنة ١٩٦٩م، الذي أشعل جمرة الحماس في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، ولم يملك القادة إلا أن يتجاوبوا مع الشعوب، ويعقدوا القمة التي انبثقت عن قيام المنظمة المذكورة.

صحيح أن المنظمة ليست على مستوى آمال الشعوب وطموحاتها، ولكنها أحسن من (لا شيء). ويجب أن تتكاتف لتقويتها واستمرارها.

ويسرني أن أنقل هنا صفحات مشرقة لرجل مفكر متوازن، مقبول من القوميين والإسلاميين جميعا، يتحدث فيها بعمق ووضوح عن واجب العرب نحو ما سماه (دائرة الحضارة الإسلامية). ذلكم هو صديقنا الأستاذ الدكتور أحمد صدقي الدجاني حيث يقول حفظه الله وسدد خطاه:

استراتيجية عربية تجاه دائرة الحضارة الإسلامية:

«نعم... الحاجة ماسة إلى انتهاج استراتيجية عربية متكاملة تجاه دائرة حضارتنا الإسلامية في هذه المرحلة من تاريخنا، وفاء بحق أنفسنا، ومن أجل القيام بإسهام

حضاري في عُمران عالمنا . وإنجاز هذا الأمر يفتح الباب واسعا أمام قيام جميع الأمم والشعوب والدول في الدائرة لبلورة الاستراتيجية الإسلامية المتكاملة تجاه حضارات عالمنا وعمرانه .

إن المناخ السائد في العالم المعاصر مناسب لازدهار فكرة تضامن دول دائرة الحضارة الإسلامية . والحديث عن مكان الدائرة ودورها يتردد في أوساط المفكرين في عالمنا على اختلاف اتجاهاتهم ، ومن هؤلاء السويدي انجمار كارلسون صاحب كتاب «الإسلام وأوروبا تعايش أم مجابهة» ، وبول كينيدي الذي أفرد فصلا خاصا في كتاب «الإعداد للقرن الحادي والعشرين» انتهى فيه إلى خلاصة «أن العالم الإسلامي يفتقد ثقافة المشروع» على حد تعبيره ، في إشارة تتحدانا كي نوفر ثقافة المشروع هذه . وقد سبق أن شرحنا في كتاب «عن المستقبل برؤية مؤمنة» في مطلع التسعينيات ما فكرة التضامن هذه التي تشير إلى «علاقات تعاون وتكافل تقوم بين المنتمين للحضارة الإسلامية شعوبا وحكومات ودولا ، وتنطلق من هذا الانتماء ومن استشعار وجود رؤية كونية مؤمنة تجمع بينهم» . كما أوضحنا تفاعل عامل داخلي يحث على الوحدة ، مع عامل خارجي يتمثل في تحديات قوى الهيمنة ، مع واقع عالمنا عالم الكتل الكبيرة ، وثورة الاتصال والمشكلات العالمية ، في صنع فكرة التضامن هذه . وانتهينا إلى إثبات ثلاث حقائق بشأنها هي : أصالتها في ضمير الأمة ، ووجود معوقات وصعوبات وعقبات أمام تنفيذها ، وفي الوقت نفسه وجود ما يفرض اليوم الاشتغال بها ، والتغلب على العقبات بغية تحقيقها . والواقع القائم يؤكد هذه الحقائق في ختام التسعينيات» .

تساؤلات حيوية :

«إن إمعان النظر وإعمال الفكر فيما ينبغي أن تكون عليه هذه الإستراتيجية العربية المتكاملة تجاه دائرتنا الحضارية الإسلامية ، يضعنا أمام تساؤلات حيوية حول كيفية تعزيز الوثائق والروابط في هذه الدائرة على الصعيدين الشعبي والرسمي ، وكيفية معالجة صراعات محتدمة داخلها في القطر الواحد أحيانًا أخرى ، وكيفية تنظيم العلاقات داخلها وبين نواتها العربية وشقيقاتها فيها ، وكيفية اعتماد الاستراتيجية عربيًا . وتصل بنا محاولات الإجابة عن هذه التساؤلات إلى مجموعة أفكار نطرحها في ختام هذا الحديث .

أفكـار:

الفكرة الأولى : التوعية بحقيقة الانتهاء الحضاري لـدائرة الحضارة الإسلامية ، أفرادًا وشعـوبًا وأممًـا ودولًا ، وتكـامل هذا الانتهاء القـومي في دائرة الانتهاء الثـلاثيـة الوطنيـة والقوميـة والحضاريـة التي لا تناقض بينهـا . والحرص على عدم الانجـرار إلى اصطناع تناقـض من خلال تعصب مقيت في الأسرة الـواحدة أو بفعل نـزاعات تاريخيـة نشبت وأخرى قـد تنشب . وإدراك هـذا الانتهاء الحضاري يقـوم على الرؤيـة الكونيـة المؤمنة ، والاعتـزاز بألسنة أقـوام الـدائرة ، مع تبجيل اللسان العـربي الـذي أنزل اللـه به القـرآن الكريم ، واستحضـار تاريخ مشترك طويل ، وهـذه العناصر الثلاثة هي أركـان الهوية الحضاريـة . وهكذا يدرك الجميع ، كـل على مستواه ، أنه فضـلاً على انتهائه الوطني ، وانتهائه القومـي ، منتم لحضارتـه الإسلاميـة التي تعممها وسـائل الإعلام ، وتعتمـدها الحكومات سياسة لها .

الفكرة الثانية : القيام بقراءة موضوعية منصفة للحضارة الإسلامية نابعة من الذات ، مستنيرة بآراء الآخـرين ، معتمدة نظرة نقديـة عادلة تلاحظ الإيجابيـات والسلبيات على السواء ، وتعميم هذه القـراءة من خلال التوعية . والحق أن الحاجة مـاسة لهذا الأمر في واقع تسـود فيـه بين قطـاع واسع من المثقفين والمتعلمين قـراءة أبسط مـا يقـال فيهـا : افتقارهـا للعمق ، ونقلهـا رأيًا آخـر متحيزاً ظهـر في أوساط الحضـارة الغربيـة ، وجرى تعميمه بـوسائل مختلفـة من بينها منـاهج تعليم متبعة في بعض المدارس . وتقـدم هذه القراءة الحضـارة الإسلامية على أنها كـانت محكومـة باستبداد الحكـام ، شأن حضارات أخرى شرقيـة . فالشرق عند هـؤلاء «استبداد» ، وعـالم الإسلام الحضاري جـزء من هذا الشرق . وهكـذا بكلمتين يقـدم تـاريخ كـامـل ومـا أكثـر الأمثلـة على الخطأ والخطـر والتعصب والتحيز في قراءة هؤلاء . وقد قدم إنجهار كارلسون في الفصل الأول من كتابه نهاذج منها ، ونبه إلى أنها تنتهي «إلى حكم بانحطاط الشرق وعجز الشرقيين عن التفكير بشكل منطقي ، وتخلفهم في جميع ميـادين الحيـاة . بل والقـول إن الإنســان العـربي وكـذلك الإنسان المسلم لا يمكن أن يتطـور أو يتقـدم . وبناءً على هـذا الاعتقاد غـدا مقبـولاً الادعاء بأنـه لا ينبغي تمكين العـرب من التعبير عن ذاتهم «ويضيف كارلسـون قـائلاً » ولقد تقبل الكثيرون هـذا الادعـاء الغريب بمن فيهـم شخص من طراز كـارل

كارلسـون بأن العرب لا يستطيعـون تمثيل أنفسهـم! « فكتب يقـول» إنهم لا يستطيعون تمثيل أنفسهم ، ويجب تمثيلهم . « لويس بونابرت ، الثامن عشر من بروميرا» .

القـراءة الموضوعيـة المنصفـة لحضارتنـا تتصف بـالنظـرة الشاملـة ، وتعني بها أسماه البعض (التـاريخ الأكبر) . وهـو التـاريخ الحضـاري الشـامل ، ولا تقتصر على إيـراد جزئيات تتعلق بتاريخ الحكام فقط . وهي لذلك تجعل من التاريخ حافزاً بدل أن يكون عبثًا . وما أغنى ما يمكن أن تثمره هذه القراءة وتعميمها على أبناء حضارتنا .

الفكرة الثالثة : تقوية الـروابط الشعبية والرسمية في دائرة الحضارة الإسـلامية . وهذا يقتضي تـواصل المؤسسات الأهليـة في مختلف الميـادين بعضها مع بعض ، أو اعتمادهـا بـرامج تستهدف تـوثيق العـلاقة والتعـاون . كما يقتضي العنايـة «بـالنظام الإسـلامي» الرسمي . ومعلوم أنه منذ إنهاء «نظام الخلافة» في دائرتنا عام ١٩٢٤ ، والشعور بالحاجة إلى إطار يجمع الدول في العـالم الإسلامي مُلحّ ، وقد أسهم في تحقيق فكرة إقـامة منظمة دول المؤتمر الإسـلامي الـذي انعقـد عـام ١٩٦٩ بعـد محاولـة إسرائيل حـرق المسجـد الأقصى . ولا يـــزال هـــذا «النظـــام الإســلامي» الـــرسمي في حـــده الأدنى من الفاعلية ، واستمـراره وانتظام انعقاد مؤسساته الـرئيسة ، وأعلاها القمة الإسـلامية يدل على إمكان تقويتـه وتطويره ، ليصبح نظامًا إقليميًـا فاعلاً ، يأخذ مكانـه اللائق به بين الأنظمة الإقليمية في عالمنا . وقد فصّل كاتب هذا الحديث شرح النظام الإقليمي لدائرة الحضارة الإسلامية في كتابه «عن المستقبل برؤية مؤمنة» وأورد أحد عشر مبدءًا له بلورها الفكر الإسلامي الحديث .

إن العنايـة بالنظام الإسـلامي تسير متـزامنة مع العنـاية «بالنظـام العربي» المختص بالـدائرة ضمن دائرتنا الحضارية الإسـلامية . ولا بد من إقـامة علاقة وثيقـة بين النظام الإسلامي والنظام العربي ، وأنظمة أخرى فرعية قائمة أو ستقوم داخل الدائرة .

الفكرة الرابعة : إعـلان النظام الإسـلامي «ميثاق استنبـاط السلام بين أعضـائه» ، والتـزام الـدول الأعضاء بهذا الميثـاق وبحلّ المشكلات التي قـد تنشب بين دول أخرى بـروح الأخوة المنطلقـة من الانتماء الحضـاري ، المتمسكـة بتعاليـم الإسلام ، والمحترمـة للقانـون الدولي ، وهـذا يعني نبذ اللجـوء إلى الحرب داخل دائرة الحضارة الإسـلامية . ومعلـوم أن الـدول في دائرة الحضارة الغـربيـة وصلت ـــ بعد أن اكتـوت بنيران حـربين

عالميتين طاحنتين في النصف الأول من القرن العشرين ـ إلى رفع شعار: «لا حرب أخرى في أوروبا» والتزمت به. وقد آن الأوان أن نرفع شعار «لا حرب بين الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي» ومعالجة الخلافات سلمًا. إذ يكفي ما عانيناه من حروب بين هذه الدول في النصف الثاني من القرن العشرين.

الفكرة الخامسة: وثيقة الصلة بسابقتها، وإنما نفردها لتأكيد أهميتها. وهي اعتماد «النظام الإسلامي» «مناطق التخوم»، القائمة على الجوانب «الحدود السياسية» المستحدثة للدول القطرية الأعضاء فيه، مناطق «وصل» وليس«مناطق فصل». والنظر إليها على أنها «تصل» بين أقطار الدائرة، وتربط بين أبنائها، وتشهد أعلى نسبة في التفاعل بين ثقافات حضارتنا، وتعبر عن مصالح دولنا المشتركة.

إن اتخاذ هذه الخطوة يترتب عليه معالجة جميع بؤر التوتر الحدودية القائمة اليوم في دائرتنا الحضارية. وهي بؤر قصد المستعمر الغربي عند رسمه الحدود السياسية للأقطار أن يبقيها، كما قصد أن ينفخ ويؤجج نارها بممارسة مفهوم متعسف للسيادة القطرية، لا ينظر أبعد من الأنف، قاصر النظر. وهكذا تتحول مناطق التخوم إلى مناطق مزدهرة، بعد أن عانت الأمرين منذ نشأة الدولة القطرية. وقد فصّل كاتب الحديث شرح هذه الفكرة في كتابه «تجديد الفكر استجابة لتحديات العصر».

الفكرة السادسة: عناية «النظام الإسلامي» وأنظمته الفرعية، ومنها النظام العربي، والدول الأعضاء، بالتواصل مع أبناء الحضارة الإسلامية المقيمين في دائرة الحضارة الغربية بخاصة والدوائر الحضارية الأخرى بعامة، ومنها الأفريقية والأمريكية الجنوبية، ومتابعة التفاعلات الحضارية الجارية في أوساطهم، وتبادل التأثير بينهم وبين مجتمعاتهم الجديدة التي اكتسبوا مواطنتها. ذلك أن هذه الظاهرة تتسم بالاستجابة الفاعلة، وتعتمد على الدراسة المتعمقة، وتنأى عن ردود الأفعال، وتحرص على العناية باللسان الأصلي، وباللسان العربي، وبالذاكرة التاريخية. وقد فصّل كاتب هذا الحديث شرح هذه الفكرة في مقاله «العرب والمسلمون في أوربا برؤية حضارية».

الفكرة السابعة: اعتماد «النظام الإسلامي» استراتيجية عمل لدائرة الحضارة الإسلامية، تأخذ في الاعتبار واقع كل عنصر فيها، والظروف المحيطة به، وتحدد دورًا له فيها، في حدود ما يستطيع، مع الحرص على تكامل الأدوار. ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وإن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص.

الفكرة الثامنة : اعتبار «قضية القدس» رمزًا لقضية فلسطين، واعتمادها قضية مصيرية لدائرة الحضارة الإسلامية، ووضع هدف تحريرها نصب عين«النظام الإسلامي» ونصب عيون أعضائه عضوًا عضوًا، وبلورة استراتيجية لبلوغ هذا الهدف. وإفشال «الحل العنصري» لقضية فلسطين الذي تحاول قوى الهيمنة الغربية فرضه، لأنه ينتمي باغتصاب القدس وتهويدها.

وبعد. . . . . . فإن هذه الاستراتيجية العربية المتكاملة تجاه دائرة الحضارة الإسلامية، تتطلب كي يتم اعتمادها أن تكون محل حوار أهل الفكر والحل والعقد، ومحل بحث النظام العربي الرسمي، كي يتوافر لها الاقتناع بها اللازم لتنفيذها. وإن لنا ونحن نمضي مع القرن الخامس عشر الهجري ومع مطلع القرن الحادي والعشرين الميلادي أن نستعين بالله لبلوغ هذا الهدف ونقول القول السديد ونعمل الصالحات ونتواصى بالحق ونتواصى بالصبر. والله منجز وعده»[1] اهـ.

تجميع كل فصائل الصحوة الإسلامية:

ومن أوائل ما يدخل في التجميع والتوحيد المنشود لمواجهة التحديات والقوى المعادية للدين والأوطان وللأمة كلها: تجميع فصائل الصحوة الإسلامية، على اختلاف مدارسها، وتعدد وجهاتها، وتنوع مشاربها. بحسبهم أنهم جميعًا إلى الإسلام ينتمون، وعنه يصدرون، وإلى نصرته يتسابقون، وفي خدمة أمته يتنافسون، وفي سبيل شريعته يجاهدون، فلماذا على كلمته لا يجتمعون؟ ولإعلاء رايته يتحدون؟ وعلى البر والتقوى يتعاونون؟ وإذا كنا ندعو أبناء الوطن أن يقفوا صفًّا واحدًا لمواجهة الخطر، وإن اختلفت أديانهم مسلمين ومسيحيين، أو اختلفت عروقهم من عرب وأكراد، أو عرب وبربر، أو اختلفت مذاهبهم الدينية من سنيين وشيعيين، أو اختلفت اتجاهاتهم الفكرية، من إسلاميين وقوميين، فكيف لا ندعو إلى وحدة صف (الإسلاميين) بعضهم مع بعض؟ وهم أولى الناس أن يتحدوا ولا يختلفوا، وأن يجتمعوا ولا يتفرقوا، وأن يتناصروا ولا يتخاذلوا، وأن يسامح بعضهم بعضا، بدل أن يتعصب بعضهم ضد بعض.

---

(١) من دراسة للدكتور أحمد صدقي الدجاني قدمها للمؤتمر القومي الإسلامي الثالث.

لقد رأينا الكنائس والمذاهب النصرانية يتقارب بعضها مع بعض، رغم أن كل مذهب منها يعتبر دينا مستقلا بذاته، وإن انتسبوا جميعا إلى المسيحية، فالكاثوليكية غير البروتستانتية، وكلتاهما غير الأرثوزكسية، وقد وقع بين هذه المذاهب من الصراعات والحروب ما انتفخت به بطون الكتب، وما سجله التاريخ بمداد من الدم الأحمر. ثم وجدوا المصلحة في تناسي هذا كله، والاتفاق على الحد الأدنى.

بل رأينا المسيحية تتقارب مع اليهودية، برغم العداء التاريخي بينهما، وبرغم ما صنعه اليهود بالمسيح عليه السلام، رأينا ذلك في موقف الفاتيكان وتبرئة اليهودية من دم المسيح، ورأينا ذلك في المسيحية الأصولية ومساندتها المتحمسة والمتعصبة لدولة إسرائيل. ورأينا ذلك أخيرا في اعتذار بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثاني بصراحة عما وقع لليهود على يد الكنيسة المسيحية.

ورأينا اليهودية والوثنية الهندوسية تتقاربان وتتعاونان وتتحالفان سرا وعلانية، ورأينا الشيوعية الروسية السوفيتية والرأسمالية الأمريكية الغربية — في زمن الحرب الباردة — تتعايشان سلميا، بل تعقدان سياسة الوفاق من أجل المصالح المشتركة.

فلماذا يكون المسلمون دون غيرهم، هم الاستثناء الوحيد في العالم، ليظلوا متناكرين غير متعارفين، متباعدين غير متقاربين، متخاذلين غير متناصرين، متفرقين غير مجتمعين؟

لم ذلك كله؟ وكتاب ربهم يناديهم بقوة وجلاء: ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا**﴾ [آل عمران: ١٠٣]. ﴿**ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم**﴾ [آل عمران: ١٠٥]. ﴿**ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم**﴾ [الأنفال: ٤٦]. ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان**﴾ [المائدة: ٢].

ولو لم يكن منطق الدين يفرض عليهم أن يجمعوا صفهم ولا يتفرقوا، لكان منطق الحياة ومنطق الواقع يفرض عليهم ذلك، فإن الأهداف الكبيرة لا تتحقق إلا بتكاتف القوى، والأعمال العظيمة لا تتم إلا بتضافر الجهود، كما قال ذو القرنين للقوم الذين طلبوا منه أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدًّا، ويدفعوا له مبلغا من المال، فعرض عليهم ما هو أجدى وأرشد من ذلك ﴿**قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة**

﴿أجعل بينكم وبينهم ردما﴾ [الكهف: ٩٥]. فبالتعاون بينه وبين القاعدة الشعبية - مع عون الله تعالى وتمكينه - أمكنه أن يبني سده العظيم.

يؤيد هذا المنطق ويؤكده: أن أعداء الأمة يتكتلون بعضهم مع بعض، ويوالي بعضهم بعضا، ويتفقون على الكيد للمسلمين رغم اختلافهم فيما بينهم. يشير إلى ذلك القرآن حين يقول: ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ [الأنفال: ٧٣].

ومعنى: ﴿إلا تفعلوه﴾ أي إن لم يوال بعضكم بعضا، ويساند بعضكم بعضا، ويشد بعضكم أزر بعض، كما يفعل خصومكم: تكن فتنة في الأرض وفساد كبير. لماذا؟ لأن معنى ذلك أن يكون أهل الكفر مجتمعين وأهل الإسلام متفرقين، أن يكون أهل الكفر متوالين متناصرين، وأهل الإسلام متخاذلين. تجمع هناك، وتفرق هنا، عمل هناك وفراغ هنا، نظام هناك، وفوضى هنا، وسنة الله ألا تنتصر الفرقة والتنازع على الاجتماع والتلاحم، وأن ينهزم الفراغ أمام العمل والدأب، وتهزم الفوضى أمام النظام ولن تجد لسنة الله تبديلا.

رفع الخلاف غير ممكن:

وأود أن أبين لبعض الإخوة الذين يضيقون بالخلاف ذرعا، ويريدون أن يرفعوا الخلاف في فروع العقيدة أو فروع الفقه من الأمة، وأن يجمعوا الناس على رأي واحد، وهو - بالطبع - رأيهم: أنهم واهمون في ذلك كل الوهم، فرفع الخلاف غير ممكن أصلا، وغير مطلوب شرعا، وغير ضار واقعا.

أما أنه غير ممكن، فلأن أسبابه موجودة ولازمة، وهو - كما بينت في بعض كتبي [1] - ضرورة لا مفر منها، ضرورة دينية، وضرورة لغوية، وضرورة بشرية، وضرورة كونية.

أما أنه ضرورة دينية، فلأن الله تعالى لو أراد أن يجمع الناس على رأي واحد، لجعل

(١) كتاب (الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم) نشر دار الوفاء بمصر، ومؤسسة الرسالة ببيروت.

نصوص الـدين كلها قطعية الثبوت، قطعية الـدلالة، فـلا مجـال فيهـا لخـلاف، ولكن لم يفعل ذلـك، فـدلنـا على أنــه تعـالى لم يـرد أن يمنع النـاس من اختـلاف الاجتـهادات والآراء.

وقد اختلف الصحابة في اجتهـاداتهم في عصر الرسول ﷺ، كما في صلاة العصر في بني قـريظـة وغيرهـا، وبعد عصر الـرسـول ﷺ، ولكن وسع بعضهـم بعضـا، وقـدر بعضهـم اجتهاد بعض.

وأما أنه ضرورة لغوية، ، فلأن الـدين يتمثل في نصوص قرآنية ونبوية، وهي تفهم في ضوء اللغة، واللغة فيها الحقيقة والمجاز، والصريح والكناية، والمنطوق والمفهوم، والظاهر والمؤول، وما يفهم بالعبارة، وما يفهم بالإشارة، والخاص والعام، والمطلق والمقيد، والأمر والنهي، . . . وكل هذه قابلة للاحتمال وتعـدد الأقوال، ولا حرج على مجتهد اتخذ منها موقفا غير موقف صاحبه، فلكل مجتهد نصيب.

وأما أنه ضرورة بشرية، فلأن البشر يختلفون في طباعهم واتجاهاتهم ومواقفهـم، فمنهم الميسر، ومنهم المشدد، ومنهم من يميل إلى الظواهـر، ومنهم من يميل إلى المقاصد، منهم من يميل إلى الأثر، ومنهم من يميل إلى النظـر، وهذا من أسباب تعـدد المذاهب، وتنوع المشارب. وكل إلى خير، وقـد عرف تراثنـا الفقهي فيما عرف: شـدائد ابن عمر، ورخص ابن عباس.

وأما أنه ضرورة كـونية، فلأن الله تعـالى أقام هذا الكون على (التنـوع)، ولذا شاع في القرآن هذا التعبير ﴿**مختلف ألوانه**﴾. فلماذا لا تختلف ألوان الاجتهـاد والاستنباط وتتنوع مدارسـه؟ فمن أثري، إلى ظاهري، إلى قيـاسي، إلى استصلاحي. وكلها أشبـه بما يخرجه النحل من شراب مختلف ألوانه، فيه شفاء للناس.

وهذا يدلنا على أن منع الخلاف غير ممكن، كما يـدلنا على أنه غير مطلوب، وأنه غير ضار أيضـا. وقد قبل المسلمون ــ منذ عهد الصحـابة وتابعيهم بإحسـان ـ الخلاف في الآراء العلميـــة، والاجتهـــادات الشرعيـــة، فما ضرهـم شيئـــا، وصلى بعضـهم وراء بعض، وأثنى بعضهم على بعض، وقبل المسلمـون بعـدهـم تعـدد المذاهب، منذ القـرن الثاني للهجرة، فما نال ذلك من وحدتهم ولا من أخوتهم، إنما الذي ضرهم بعد ذلك هو التعصب الأعمى للمذهب، ومحاولة نصره بالحق وبالباطل، واعتبار المخالفين خصوما.

اختلاف الاجتهادات رحمة بالأمة :

بل رأى رجل مثل عمر بن عبد العزيز خامس الراشدين : أن اختلاف الصحابة كان رحمة ، وأنه لم يكن يود أبدا أنهم لم يختلفوا ، لأنهم لما اختلفوا أمكن الناس أن يأخذوا برأي واحد منهم ، ولا حرج ، ولو كانوا على رأي واحد ، ما وسع الناس إلا هذا الرأي . كما أنهم باختلافهم شرعوا للناس بعدهم أن يجتهدوا ويختلفوا ، فليسوا أفضل من الصحابة .

وقد ألف بعض العلماء السابقين كتابا سماه (رحمة الأمة باختلاف الأئمة) .

والذي مارس الفقه ، وغاص في أعماقه ، يرى أن هذا التعدد والتنوع قد أتاح لنا أن نملك نحن المسلمين ، ثروة هائلة من الفقه الذي خدمته عقول عبقرية ، فقد يضيق مذهب بقضية ، ويوسع فيها آخر ، ويشدد مذهب في أمر وييسر فيه غيره ، وقد يصلح مذهب في بيئة ولا يصلح في أخرى ، وقد ينجح في زمان ولا ينجح في زمان آخر ، فيستطيع الفقيه أمام هذه الخصوبة أن يختار ما يراه ، أهدى سبيلا ، وأرجح دليلا ، وأدنى إلى تحقيق مقاصد الشرع ومصالح الخلق ، دون أن يخرج من إطار الشريعة وفقهها الثري .

بل إن هذه الثروة الفقهيه الطائلة تنير له الطريق ، ليبني على أساسها فقها معاصرا ، يستمد من منطق هذا الفقه وروحه ومنطلقاته وتعليلاته وتخريجاته ، ما يعالج به مشكلات عصره ، مراعيا تغير الزمان والمكان وحال الإنسان .

رأيي صواب يحتمل الخطأ :

ومن المهم هنا أن يكون صاحب الرأي الذي يؤمن بصوابه متواضعا ، بعيدا عن الغرور بالنفس ، والإعجاب بالرأي ، فهو أحد المهلكات ، وأن يعلم أن اعتقاده بصواب رأيه لا يضفي عليه (العصمة) ، فهو رأي بشر ، قابل للصواب والخطأ . وهذا هو موقف المجتهدين الكبار ، فلم يروا أنفسهم معصومين ، بل قال أبو حنيفة : فقهنا هذا رأي ، فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه . وقال مالك : كل أحد يؤخذ من كلامه ويرد عليه ، إلا صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم ، وأشار إلى القبر النبوي ، فقد كان يعلم الناس في مسجده عليه الصلاة والسلام .

وقال الشافعي: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب.

وهـذا الاحتمال في الجانبين يقـرب المسـافـة بين المختلفين، بل ذهب بعضهم إلى أن نسبة الـرأيين المختلفين إلى احتمال الصواب والخطأ واحدة، وأن الصواب هـو ما انتهى إليه رأي المجتهد، وأنه قد يتعدد، وهؤلاء هم الذين يسميهم الأصوليون (المصوِّبة).

وسمعت بعض الإخـوة يقـول: كيف يحتمل قـولي الخطأ، وأنـا أعمل بـالحديث النبوي، فهل يخطئ الوحي؟

وقلت لهؤلاء: إن الحديث وحي، ولكن فهمك للحـديث ليس وحيا، بل هـو رأي قد يخالفك فيه غيرك، كما خـالف الصحابة في قصة بني قـريظة لفظ الحديث، وصلُّوا العصر في الطريق، وقال ابن تيمية: إن الصواب كان معهم.

وبعض الإخوة يقـول ببطلان صدقة الفطـر إذا أخرجها المسلم في عصرنا بـالقيمة، لأنه خـالف السنة في رأيـه. ورأيي أن هذا المفتـي هو الـذي خالف السنـة، لأن السنة أرادت التيسير على المعطي، والمنفعـة لـلآخـذ، وهـو هنـا يعسر على المعطي، ويضر بالآخذ، فقد خالف روح السنة، وإن ظن أنه عمل بجسمها.

إحسان الظن بالآخرين:

على أن من الواجبات التي يفرضها الدين على الناس كافة، وعلى الداعي إلى الإسلام خاصة: أن يحسن كل منهم الظن بأخيـه، ولا يسيئ به الظن، فإن بعض الظن إثم، وهو ظن السوء. وقد قـال عليه الصلاة والسلام: «إيـاكم والظن فإن الظن أكذب الحديث» متفق عليه.

ومن أعظم خصال الخير: حسن الظن بالله تعالى، وحسن الظن بالناس.

ومن أسوأ خصال الشر: سوء الظن بالله سبحانه، وسوء الظن بالناس.

فينبغي أن يحمـل المسلم حال أخيـه ـ وخصوصـا إذا كان مـن أهل الدعـوة ـ على الصلاح، ويفسره على أفضل وجه محتمـل، ويلتمس له العذر ما استطاع، فـالمؤمن أبدا يلتمس المعاذير، والمنافق يتصيد العيوب.

وقد كان من كلام السلف: ألتمس لأخي من عذر إلى سبعين، ثم أقول: لعل له عذراً آخر لا أعرفه، فهذا هو الذي يجب أن يسود جو الدعاة إلى الإسلام، لا جو الكيد بعضهم لبعض، ومحاولة كل منهم أن يبني نفسه على أنقاض إخوانه. فإنهم جميعا ركاب سفينة واحدة، تتغير عليها الرياح من ريح طيبة إلى ريح عاصف، ويحيط بها الموج من كل مكان. فإذا نجت السفينة نجت بكل من فيها، وإذا غرقت غرق معها الجميع.

فلتختلف الاجتهادات، ولتختلف المواقف والسياسات، ولكن لا يجوز أن يؤدي ذلك الاختلاف المشروع إلى التفرق الممنوع.

٣ـ تحدي العولمة

وثالث التحديات الكبرى التي نواجهها، هو: تحدي (العولمة) التي يروّج لها اليوم، والتي تقوم أمريكا بتصنيعها وتسويقها، وقد أمست حديث الناس في مشرق ومغرب، شأن كل ما يصدر عن أمريكا من سلع وأفكار.

ويتساءل الكثيرون: ما موقفنا من (العولمة) المطروحة اليوم على كل صعيد؟ وقبل أن نجيب عن هذا التساؤل، لابد أن نحدد مفهوم (العولمة) وماذا يراد منه؟ فالتعبير نفسه جديد على لغتنا، وهو مترجم قطعًا، كما سنرى.

والعولمة مصطلح من المصطلحات التي شاعت بيننا في هذه السنين الأخيرة، مثل الحداثة، وما بعد الحداثة، وما بعد الاستعمار، وما بعد الإمبريالية، وغيرها.

والمعروف أن (العولمة) مصدر على وزن (فوعلة) مشتق من كلمة (العالَم)، كما يقال (قولبة) اشتقاقا من كلمة (قالب).

فالتعبير صحيح من الناحية اللغوية، ولكن يبقى علينا أن نعرف معناه والمقصود منه، حتى يمكننا الحكم عليه، فالحكم على الشيء فرع من تصوره، كما قال قديماً علماء المنطق.

العولمة: تعني في نظر البعض: إزالة الحواجز والمسافات بين الشعوب بعضها وبعض، وبين الأوطان بعضها وبعض، وبين الثقافات بعضها وبعض. وبذلك يقترب الجميع من (ثقافة كونية) و(سوق كونية) و(أسرة كونية). ويعرفها بعضهم بأنها تحويل العالم إلى (قرية كونية).

ويرى العالم الاقتصادي والاجتماعي المعروف الدكتور جلال أمين: أن لفظ (العولمة) حديث، ولكن الظاهرة نفسها قديمة جدًّا. يقول: فإذا نحن فهمنا (العولمة) بمعنى: التضاؤل السريع في المسافات الفاصلة بين المجتمعات الإنسانية، سواء فيما يتعلق بانتقال السلع أو الأشخاص أو رءوس الأموال، أو المعلومات، أو الأفكار، أو القيم، فإن العولمة تبدو لنا وكأنها تعادل في القدم نشأة الحضارة الإنسانية.[1] اهـ.

ويبدو من صيغة التعريف أن الدكتور أمين يتحدث عن (التعولم) لا عن (العولمة) والتعولم هو أثر العولمة أو هو مصدر(الفعل المطاوع) للعولمة، مثل (التعلم) هو مصدر فعل مطاوع لـ(التعليم).

فالتضاؤل السريع في المسافات، الذي ذكره الدكتور أمين، إنما هو أثر، والعولمة إنما هي تأثير قاصد. وهذا هو الذي يجري الحديث عنه اليوم.

ويمكن تصحيح التعريف المذكور للعولمة إذا أضيفت إليه عبارة، مثل: العمل على التضاؤل السريع... إلخ.

ويعرف الدكتور محمد عابد الجابري (العولمة) بقوله:

«العولمة» ترجمة لكلمة (Monodialisation) الفرنسية التي تعني جعل الشيء على مستوى عالمي، أي نقله من المحدود المراقب إلى اللامحدود الذي ينأى عن كل مراقبة. والمحدود هنا هو أساسا الدولة القومية التي تتميز بحدود جغرافية وبمراقبة صارمة على مستوى الجمارك: تنقل البضائع والسلع، إضافة إلى حماية ما بداخلها من أي خطر أو تدخل خارجي، سواء تعلق الأمر بالاقتصاد أو بالسياسة أو بالثقافة. أما اللامحدود فالمقصود به «العالم»، أي الكرة الأرضية. فالعولمة إذن تتضمن معنى إلغاء حدود الدولة القومية في المجال الاقتصادي (المالي والتجاري) وترك الأمور تتحرك في هذا المجال عبر العالم وداخل فضاء يشمل الكرة الأرضية جميعها، ومن هنا يطرح مصير الدولة القومية، الدولة/ الأمة، في زمن تسوده العولمة بهذا المعنى.

على أن الكلمة الفرنسية المذكورة إنما هي ترجمة لكلمة (Globalization)

---

(١) انظر: مقدمة كتاب (العولمة والتنمية العربية من حملة نابليون إلى جولة الأورغواي) للدكتور جلال أمين، نشر مركز دراسات الوحدة العربية.

الإنكليزية التي ظهرت أول ما ظهرت في الـولايات المتحدة الأمريكية، وهي تفيد معنى تعميم الشيء وتـوسيع دائرتـه ليشمـل الكل. وبهذا المعنى يمكن أن نحـدس، أو على الأقل نفترض، أن الدعوة إلى العولمة بهذا المعنى إذا صدرت من بلد أو جماعة فإنها تعني تعميم نمط من الأنماط التي تخص ذلك البلد أو تلك الجماعـة وجعله يشمل الجميع: العالم كله.

من هنـا نستطيع أن نحدس، منـذ البـداية، أن الأمـر يتعلق بـالـدعوة إلى تـوسيع النمـوذج إلى العولمة قـد ظهرت فعـلا في الـولايات المتحـدة الأمريكيـة بهذا المعنى، في أوساط المال والاقتصـاد، فإن لنا أن نستنتج أن الأمـر يتعلق ليس فقط بآليـة من آليات التطور الـرأسمالي الحديث، بل أيضا بالدعـوة إلى تبني نموذج معين، وبالتالي فـالعولمة هي، إلى جانب كونها نظامـا اقتصاديا هي أيضا أيديولوجيـا تعكس هذا النظام وتخدمه وتكرسه، وهنـاك من الكتاب من يقرن بينها وبين « الأمـركة »، أي نشر وتعميم الطابع الأمريكي[1].

بين العولمة والعالمية:

وربما كان معنى العولمة في ظاهره يقترب من معنى (العـالمية) الذي جاء به الإسلام، وأكـده القرآن في سـوره المكيـة، مثل قـوله تعـالى: ﴿ومـا أرسلناك إلّا رحمة للعـالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. ﴿تبـارك الـذي نزل الفـرقـان على عبـده ليكـون للعالمين نـذيـرا﴾ [الفرقان: ١]. ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين* ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ [ص: ٨٧ ـ ٨٨].

ولكنْ هنـاك في الواقع فـرق كبير بين مضمون (العـالميـة) الذي جـاء به الإسـلام، ومضمون (العولمة) التي يدعو إليها اليوم الغرب عامة، وأمريكا خاصة.

فالعالمية في الإسلام تقـوم على أساس تكريم بني آدم جميعا ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ [الإسراء: ٧٠]. فقـد استخلفهم الله في الأرض، وسخـر لهم ما في السماوات ومـا في الأرض، جميعـا منـه. وكـذلك على أسـاس المسـاواة بين النـاس فـي أصل الكـرامـة

---

(١) انظر: قضايا في الفكر المعاصر للجابري. نشر مركز دراسات الوحدة العربية ص ١٣٦، ١٣٧.

الإنسانية، وفي أصل التكليف والمسئولية، وأنهم جميعًا شركاء في العبودية لله تعالى، وفي البنوّة لآدم، كما قال الرسول الكريم أمام الجموع الحاشدة في حجة الوداع: «يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا أعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلاّ بالتقوى..»[1].

وهو بهذا يؤكد ما قرره القرآن في خطابه للناس كل الناس: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ [الحجرات: ١٣].

ولكن القرآن في هذه الآية التي تقرر المساواة العامة بين البشر، لا يلغي خصوصيات الشعوب، فهو يعترف بأن الله تعالى جعلهم (شعوبًا وقبائل) ليتعارفوا.

أما (العولمة) فالذي يظهر لنا من دعوتها حتى اليوم: أنها فرض هيمنة سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية من الولايات المتحدة الأمريكية على العالم، وخصوصًا عالم الشرق، والعالم الثالث، وبالأخص العالم الإسلامي. الولايات المتحدة بتفوقها العلمي والتكنولوجي، وبقدرتها العسكرية الهائلة، وبإمكاناتها الاقتصادية الجبارة، وبنظرتها الاستعلائية التي ترى فيها نفسها أنها سيدة العالم.

إنها لا تعني معاملة الأخ لأخيه، كما يريد الإسلام، بل ولا معاملة الند للند، كما يريد الأحرار والشرفاء في كل العالم، بل تعني معاملة السادة للعبيد، والعمالقة للأقزام، والمستكبرين للمستضعفين.

العولمة في أجلى صورها اليوم تعني: (تغريب العالم) أو بعبارة أخرى: (أمركة العالم). إنها اسم مهذب للاستعمار الجديد، الذي خلع أرديته القديمة، وترك أساليبه القديمة، ليمارس عهدا جديدا من الهيمنة تحت مظلة هذا العنوان اللطيف (العولمة) إنها تعني فرض الهيمنة الأمريكية على العالم، وأي دولة تتمرد أو تنشز، لا بد أن تؤدب، بالحصار، أو التهديد العسكري. أو الضرب المباشر، كما حدث مع العراق والسودان

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٥/ ٤١١ عن جبي نضرة عمن سمع خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسط أيام التشريق. وذكره الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٦٦) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. ونقل الشيخ الألباني عن ابن تيمية في (الاقتضاء ٦٩)، أنه قال: إسناده صحيح.

وإيران وليبيا . وكـذلك تعني : فرض السياسات الاقتصـادية التي تريدهـا أمريكا عن طريق المنظمات العـالمية التي تتحكم فيهـا إلى حد كبير، مثل البنك الـدولي ، وصندوق النقد الدولي ، ومنظمة التجارة العالمية ، وغيرها .

كما تعني : فـرض ثقافتهـا الخاصة ، التي تقـوم على فلسفة الماديـة والنفعية وتبريـر الحريـة إلى حد الإبـاحيـة ، وتستخدم أجهـزة الأمم المتحـدة لتمريـر ذلك في المؤتمرات العالمية ، وتسـوق الشعوب إلى الموافقة على ذلك بسياط التخويف والتهـديد ، أو ببوارق الوعود والإغراء .

وتجلى ذلك في (مؤتمر السكان) الذي عقد بالقاهرة في صيف ١٩٩٤م . والذي أريد فيه أن تمرر وثيقة تبيح الإجهاض بإطلاق ، وتجيز الأسرة الوحيدة الجنس ، (زواج الرجال بالـرجال ، والنسـاء بالنسـاء) وإطلاق العنـان للأولاد في السلـوك الجنسي ، والاعتراف بالإنجـاب خارج إطـار الزواج الشرعي ، إلى غير ذلك من الأمـور التي تخالف الأديان السماويـة كلها ، كما تخالف مـا تعـارفت عليه مجتمعـاتنا ، وغـدا جـزءا من كينونتهـا الروحية والحضارية .

ومن هنـا وجـدنـا الأزهـر الشريف في مصر، ورابطـة العـالم الإسـلامي في مكـة ، وجمهوريـة إيران الإسلامية ، والجماعـات الإسلامية المختلفـة ، تقف جنبًا إلى جنب مع الفاتيكـان ورجال الكنيسـة ، لمقـاومة هـذا التوجـه المدمر، إذ شعـر الجميع أنهم أمام خطر يهـدد قيم الإيمان بـالله تعـالى ورسـالاته ، والأخـلاق التي بعث اللـه بها رسله عليهم السلام .

كما تجلت هـذه العـولمة في (مـؤتمر المرأة) في بكين سنة ١٩٩٥م وكـان امتـدادا لمؤتمر القاهرة وتأكيدا لمنطلقاته ، وتكميلا لتوجهاته .

وهذه قضية في غاية الأهمية (الاعتراف بالخصوصيات) حتى لا يطغى بعض الناس على بعض ، ويحاولوا محو هويتهم بغير رضاهم .

بل نجـد الإسـلام يعترف باختـلاف الأمم ، وحق كـل أمة في البقـاء حتى في عـالم الحيـوان ، كما جاء في حـديث النبي صلى الله عليـه وسلم : «لـولا أن الكلاب أمـة من

الأمم لأمرت بقتلها» رواه أبو داود. [1] وهو يشير إلى ما قرره القرآن في قوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم﴾ [الأنعام: ٣٨].

وإذا خلق الله أمة مثل أمة الكلاب، فلابد أن يكون ذلك لحكمة، إذ لا يخلق سبحانه شيئًا إلا لحكمة ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلا، سبحانك﴾[آل عمران: ١٩١] فلا يجوز إذن حذف هذه الأمة المخلوقة من خارطة الوجود، فإن هذا تطاول واستدراك على خلق الله تبارك وتعالى.

إذا كان هذا في شأن الأمم الحيوانية، فما بالك بشأن الأمم الإنسانية؟ إلاّ أن ترتضي أمة باختيارها الانصهار في أمة أخرى: في دينها ورسالتها ولغتها، كما فعلت مصر وبلاد شمال أفريقيا وغيرها، حين اختارت الإسلام دينًا، والعربية لغة، بل أصبحت عضوًا مهمًا في جسم هذه الأمة، بل لها دور القيادة في كثير من الأحيان.

إن (العولمة) كما تطرح اليوم، إنما تصب في النهاية لصالح الأقوياء ضد الضعفاء، ولكسب الأغنياء ضد الفقراء، ولمصلحة الشمال الغني ضد الجنوب الفقير.

وهذا طبيعي، لأن التكافؤ مفقود في حلبة المصارعة أو الملاكمة، بين الأوزان الثقيلة والأوزان الخفيفة، بل بين المصارع المدرب الممارس، وبين خصمه الضعيف، الذي سيسقط لا محالة في بداية اللقاء من أول ضربة.

وماذا يمكن أن نتصور من نتائج سباق يفتح ميدانه لمن يريد المشاركة فيه؟ كيف يكون مصير من يركب الجمل أو الحمار إذا سابق من يركب السيارة؟

إن فتح الأبواب على مصاريعها ـ بدعوى العولمة ـ في مجالات التجارة والاقتصاد، والتصدير والاستيراد، أو في مجالات الثقافة والإعلام، سيكون لحساب القوى الكبرى، والدول التي تملك ناصية العلم والإعلام الجبار والتكنولوجيا العالية والمتطورة، ولا سيما الدولة الأكبر قدرة، والأشد قوة، والأعظم نفوذا وثروة، والأقدر والأوسع في عالم المعرفة، وهي أمريكا.

أما بلاد (العالم الثالث) كما يسمونها، وخصوصا (البلاد الإسلامية) منها، وهي ما

---

(١) انظر تعليقنا على هذا الحديث في كتابنا (السنة مصدرا للمعرفة والحضارة) ص ١٤٦، ١٤٧ طبعة دار الشروق القاهرة.

أطلق عليه المفكر الجزائري مالك بن نبي رحمه الله (محور طنجة ـ جاكرتا) فليس لها من هذا السباق العـالمي، إلا بقايا ما يفضل من الأقوياء، إن بقي لـديهم ما يجودون به من فتات على الآخرين.

إنه الاستعمار القديم بوجه جديد، واسم جديد، إن الاستعمار يغير لونه كالحرباء، ويغير جلده كالثعبان، ويغير وجهه كالممثل، ويغير اسمـه كالمحتال، ولكنه هو هو، وإن غير شكله، وبـدل اسمه: استكبار في الأرض بغير الحق، وعلـو كعلو فـرعون في الأرض، والذي جعل أهلهـا شيعا، يستضعف طائفـة منهم. ولكن الاستعمار الجديد الذي يريد العلو والفساد في الأرض كافة، لا يستضعف طائفة، بل يستضعف شعوب الأرض، لمصلحة أقلية ضئيلة منهم.

موقفنا من العولمة

ثلاثة مواقف من العولمة :

وللناس من العولمة مواقف ثلاثة ، طرفان وواسطة ، شأن الناس في معظم القضايا الكبيرة ، إما مُفْرطون أو مفرِّطون أو متوسطون .

فأما الطرف الأول فهو طرف المندفع إلى العولمة ، المتحمس لها ، السابح في تيارها ، ممن يتعاملون معها بغير قيود ولا تحفظ . كالذين ذكر عنهم الحديث النبوي أنهم يتبعون سنن غيرهم من الأمم ، شبرا بشبر وذراعا بذراع ، حتى لو دخل الآخرون جحر ضب لدخلوه .

وهذا موقف الغلاة من دعاة (التغريب) ودعاة (التطبيع) في عالمنا العربي والإسلامي .

وأما الطرف الآخر ، فهم عكس هؤلاء ، يهربون من المواجهة ، ويلوذون بالصومعة ، وينكفئون على الذات ، في عزلة وتقوقع ، وغيبة عما يدور به الفلك حولهم في دنيا الفكر ، ودنيا الاقتصاد ، ودنيا السياسة ، وغيرها ، مؤمنين بسياسة إغلاق الأبواب ، التي تهب منها الرياح ، خشية أن تحمل هذه الرياح بعض الأتربة أو الأهوية الضارة . مع أن الحاجة إلى هذه الرياح مؤكدة .

وهذا هو موقف كثير من الخائفين من اللقاء مع الآخرين ، من المتمسكين بكل قديم ، والمتوجسين من كل جديد .

وأما الواسطة، فهو الموقف المقبول، الذي يمثل المنهج الوسط للأمة الوسط. إنه موقف المؤمن القوي البصير المنفتح، المعتز بهويته، الواعي لرسالته، المتمسك بأصالته، المؤمن بعالميته، المغالي بثقافته، وحضارة أمته، الذي لا يفر من المواجهة، ولا يخاف من الحوار، بل ينطلق من أفق واسع، ويقف على أرض صلبة. يأخذ ويعطي، ويستقبل ويرسل، ولا يفرّط في خصائصه الذاتية، ولا مقوماته الأساسية.

وهذا هو موقف تيار الوسطية والاعتدال من الإسلاميين ومن القوميين والوطنيين، الذين آمنوا بربهم وبأنفسهم وأمتهم، وعلموا أنهم لا يمكن أن يعيشوا وحدهم.

خلاصة موقفنا من العولمة:

الواقع أننا لا نملك أن نفر من هذه (العولمة) فيبدو أنها قدر مفروض علينا في هذه المرحلة. وليس في استطاعتنا رفضها أو الهرب من حصارها وضغطها.

كما أنه لا ينبغي لنا أن نتقبلها كما هي، ونستسلم لها مطأطئي الرءوس، قائلين: سمعنا وأطعنا.

لابد أن نتحرك ـ عربا ومسلمين وأفارقة ودول عدم الانحياز، وكل الفقراء والمستضعفين في الأرض ـ لنحمي أنفسنا من هذا الغزو الجديد، بالتماسك والتناصر والتكتل، ولابد من توعية شعوبنا وتحصينها عقائديا وفكريا وثقافيا، حتى لا تنساق وراء هذه الهجمة الجديدة، وتفقد خصوصيتها ومشخصاتها.

الموقف اللائق بنا هو (الموقف الوسط) الذي يجتهد أن يستفيد من إيجابيات هذه العولمة وانفتاحها، ويأخذ خير ما فيها، وأن يجتنب سلبياتها المادية والمعنوية، متحصنين بإيماننا، معتزين بأنفسنا، عاملين بكل ما نستطيع لتطوير قدراتنا، وتحسين إمكاناتنا، حتى يكون يومنا خيرا من أمسنا، وغدنا خيرا من يومنا.

ومعنى ذلك: أن نطور علومنا، ونطور أعمالنا، ونطور مواردنا، ونطور زراعتنا، ونطور صناعتنا، ونطور إدارتنا، وقبل ذلك كله نطور إنساننا، الذي هو الوسيلة والغاية للتنمية والتقدم، وأن نسعى لتحقيق ذلك منفردين ومجتمعين. حتى نقوم بدورنا في هذا العالم، ولا نظل عالة أو كلاً على غيرنا.

يقول الدكتور جلال أمين في خاتمة كتابه عن (العولمة):

«أصابت العولمة دولتنا القومية بالتدهور والضعف عن طريق الاستعمار المباشر أولا، ثم عن طريق مختلف وسائل فرض النفوذ والسيطرة الاقتصادية في مرحلة ما بعد الاستقلال الصوري، ثم عن طريق ما فرضته وتحاول ترسيخه مؤسسات التمويل الدولية من سياسات، أشهرها سياسة التكييف الهيكلي والتثبيت الاقتصادي، وأخيرا عن طريق استدراج دولنا إلى الارتباط الجبري باتفاقيات دولية، كان آخرها وأشهرها تلك الناجمة عن جولة الأوروغواي. كان الضعف والهوان اللذان أصابا الدولة القومية في المنطقة العربية في عصر الاستعمار واضحين وضوح الشمس، إذ لم يكن ما حدث إلا إحلال دولة استعمارية محل أخرى، ولكن الضعف والهوان كانا شديدين أيضا حتى في ظل الاستقلال الصوري، وإن كان فرض الإرادة والتحكم في الدول القومية في ظل هذا الاستقلال أنعم ملمسا وأرق مظهرا. ولم يتبدل الضعف والهوان في ظل السياسات الاقتصادية الجديدة، واتفاقيات «التحرير» الأخيرة، وإنما زاد المظهر رقة والملمس نعومة.

والمحبذون والمتحمسون للسير في هذا الطريق يعدون البلدان العربية بأن هذه السياسات الجديدة سوف تحقق آمالهم في التصنيع، والنهوض بأحوال الفقراء، ولن تشكل خطرا على الثقافة الوطنية. وفي هذا يتخذ كثير من المحللين العرب، للأسف، الموقف نفسه. ولكن الزعم نفسه قديم، سمعناه من قبل ولم يتحقق. لقد قال المستعمرون الأوائل كلاما مشابها عندما قدموا إلى بلادنا لأول مرة منذ قرنين، تحت شعار التمدين ونقل الحضارة. وقاله خلفاؤهم في منتصف القرن الحالي تحت شعار التنمية الاقتصادية. ثم قالوه مرة أخرى في الثمانينيات تحت شعار إصلاح ما أفسده الماضي والتصحيح الهيكلي. ويقولونه الآن تحت شعار العولمة.

شعار العولمة جديد، لكن الظاهرة قديمة. وهي لم تخل في أي مرحلة من تاريخها من نفع، ولكن النفع يعود أغلبه على مركز بثها وإشاعتها، وأغلب أضرارها تعود على الأطراف، ومن بين هذه الأطراف بالطبع المنطقة العربية. وهي ظاهرة حتمية بمعنى أن تقارب أجزاء العالم وتضاؤل المسافات الفاصلة بين جزء وآخر من العالم، ماديا وفكريا، لا مجال لوقفه أو صده، ولكن من الممكن دائما أن تحقق أمة من أمم الأطراف نهضة تحولها من طرف سلبي في التعامل الدولي إلى قوة فاعلة وإيجابية». اهـ.

وأقول للدكتور أمين : إن كلامه صحيح ، ولكن (الدولة) القومية لن تستعيد قوتها ، ما لم تستعِد (الأمة) ذاتها قـوتها . فإنما قوة الدولة بقوة شعوبها ، فـالشعوب الميتة لا تقيم دولة حيـة ، والشعوب الضعيفة لا تبني دولة قـوية ، كما في الأثر المشهور: « كما تكـونوا يولّ عليكم » .

إعادة التوعية للأمة :

ومما يفيدنا هنا أن نعلم أن أمتنا حية لا تموت ، ولكنها تنام أو تنوّم ، فعلينا أن نوقظها من سباتها ، وننبهها من غفلتها ، ونعيد إليها وعيها بذاتها وبرسالتها ، وبدورها المنشود لنفسها ولغيرها ، فهي أمة عالمية ، أمة لم تخرج لنفسها ، وإنما ﴿**أخرجت للناس**﴾ لنفع الناس ، ولهداية الناس ، ولخير الناس .

ولن تستطيع أمتنا أن تقدم الخير لغيرها قبل أن تقدمه لنفسها . فإن إصلاح الداخل مطلوب قبل إصلاح الخارج .

يجب أن نعيد توعية شعوبنا توعية بصيرة سليمة ، بعيدة عن الرومانسية والمبالغة والتهوين والتهويل . يجب أن نتخلى عن الظواهر السلبية في تفكيرنا وسلوكنا ، مثل الاكتفاء بالتغني بأمجاد ماضينا التليد ، والبكاء على أطلال حضارتنا الزاهرة ، ومثل شتم الغرب ومهاجمة حضارته المادية الآلية ، فإن مجرد التمدح بمآثر الماضي لا ينفع إذا لم يحْيِ الحاضر ، والبكاء على الأطلال هو من عمل الشعراء العاطفيين ، وليس من عمل البنائين للحضارات ، وسب الآخرين ـ ولو كانوا مسيئين ـ لا يغنينا في شيء ما لم نفُقْهم ـ أو على الأقل نكافئهم ـ بعملنا وجهودنا . والحديث الشريف يعلمنا ـ بدل أن نسب الشيطان ـ أن نقول : بسم الله ! سب الشيطان عمل سلبي ، أما ذكر اسم الله لنستمد منه القوة ، فهو عمل إيجابي .

يجب أن نصنع لأنفسنا مجدا جديدا بأيدينا وعقولنا ، كما صنع آباؤنا من قبل ، أيام عصورنا الذهبية . وننشد معا قول الشاعر :

إنّا وإن كرمت أوائلنا لسنا على الأحساب نتكل
نبني كما كانت أوائلنا تبني ، ونفعل مثلما فعلوا

يجب علينا أن نملأ قلوب أبنائنا بالإيمان والأمل والعزم، والثقة بالله ثم بأنفسهم، والتخلص من أسطورة الزعيم الملهم، والقائد الذي لا يخطئ، والاعتماد على سواعد الشعوب والجماهير، فهي التي تصنع التاريخ.

يجب أن نكون شجعانا ونعترف بعللنا النفسية، وآفاتنا العقلية، وانحرافاتنا السلوكية، وأمراضنا الاجتماعية، وسلبياتنا الاقتصادية، وخطايانا السياسية.

واعترافنا بها لا يعني استسلامنا لها، وقنوطنا من علاجها، فما من داء إلا له دواء، وما من عقدة إلا ولها حلال. وإذا عرفنا الأسباب أمكننا تشخيص الداء، ووصف الدواء.

وأول خطوة في العلاج أن نعرف الخلل في أنفسنا، ولا نحمل كل فساد على غيرنا، وأن نعمل جاهدين لتغيير ما بأنفسنا، وبهذا تتغير حياتنا، ويتغير مجتمعنا وفق السنة الإلهية المطردة ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ [الرعد: ١١].

ضرورة الدين في حياتنا:

هناك بعض الناس الذين يسمون بـ(الحداثيين) أو (التقدميين) أو ما شابه ذلك، يرون أن لا تقدم ولا نموّ لنا إلا بحذف (الدين) من حياتنا.

وأنا أقول لهؤلاء: إن حذف الدين من حياة الإنسان غير ممكن، ولو أمكن، فهو غير مفيد، والإنسان بغير دين، إنسان بلا جذور، ولا أمل، ولا غد. إنسان مكشوف مخترَق من كل جانب، فقد اليقين والرضا، وحطمه الشك والسخط، وعاش في الحياة محروما من سر الحياة وهو الدين.

ولو جاز لإنسان ما أن يستغني عن الدين، ما أمكن للإنسان العربي أو الشرقي أن يستغني يوما عن الدين. فكيف إذا كان هذا الدين هو (الإسلام) الذي ختم الله به الرسالات، وضمنه من عناصر الخلود والشمول والعالمية، ما يجعله بحق دين البشرية في المستقبل، يصلح منها ما فسد، ويجدد منها ما بلى، بشرط أن يحسن المسلمون فهمه، ويحسنوا تطبيقه، ويحسنوا الدعوة إليه، وتقديمه للعالمين بلسان القرن الحدي والعشرين، حتى يفهموه.

لهذا كان علينا أن نحذف (الفهم السقيم) للدين، الذي شوشه بخرافات في العقيدة، ومبتدعات في العبادة، وسلبيات في التربية، وجمود في الفكر، وتفريط في السنن، وتقصير في الحياة.

على أن الذين حاولوا أن يستغنوا عن الدين كالشيوعيين، صنعوا لهم دينا آخر، له إلهه، وله شيطانه، وله أنبياؤه، وله مقدساته، وله عقائده، وله طقوسه، وله جنته وناره، فقد استغنوا عن الدين الحق بدين باطل و «بئس للظالمين بدلا».

نحن ـ المسلمين ـ والغرب:

بقي علينا أن نبين: ما موقفنا ـ نحن المسلمين ـ من الغرب؟ وما علاقتنا به؟ أيمكن أن تكون علاقة تعارف وتفاهم أم لابد أن تكون علاقة صراع وتصادم؟

إن الإسلام رسالة عالمية، فلا فرق عنده بين غرب وشرق، فهو جزء من مملكة الله الواسعة كما قال تعالى: **﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾** [البقرة: ١١٥].

والغربيون هم جزء من العالمين الذين أرسل الله رسوله محمدا رحمة لهم، كما قال تعالى: **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾** [الأنبياء: ١٠٧].

مشكلة الغرب والإسلام:

ولكن المشكلة تكمن في أنفس الغربيين أو ـ إذا أردنا الدقة ـ في أنفس الكثيرين منهم، وموقفهم من الإسلام، فقد توارثوا عن الإسلام صورة شائهة المنظر، دميمة الوجه، لا تمت إلى الإسلام من قريب أو بعيد، ولا ترجع إليه في ورد ولا صدر.

وهذه الصورة ورثوها منذ الحروب الصليبية، حين قدمت جيوشهم من أوربا في حملات متواصلة، مكتسحة دول المنطقة الممزقة، مقيمة لها ممالك وإمارات. وقد انتصرت في أول الأمر، ثم لم تلبث أن هزمت هزيمة ساحقة في معارك حطين، وفتح بيت المقدس، ومعركة المنصورة، وأسر (لويس التاسع) في دار ابن لقمان الشهيرة..

وهذه الحروب كان لها آثارها النفسية والعقلية، وكانت من أسباب نهضة الغرب بعد ذلك مما اقتبسه من حضارة الشرق الإسلامية. ولكن رجال الدين صوروا

الإسلام والمسلمين لعوام الناس صورة كريهة منفرة، لا تمت إلى حقيقة الإسلام بصلة، بيد أنها رسخت في الذهنية الغربية، والنفسية الغربية، وتوارثها الناس جيلا بعد جيل.

ولذلك ترى الغربي حين يتحدث عن الأديان الأخرى غير الإسلام، وعن الأمم الأخرى غير أمة الإسلام، يتحلى بكثير من الموضوعية والإنصاف، فإذا تحدث عن الإسلام وعن حضارته وأمته، وقف موقفا آخر، فيه كثير من التحيز والميل مع الهوى، وكان على من يريد الإنصاف منهم أن يتجرد من العقد الخبيثة الموروثة، ويتقمص شخصية أخرى تغلّب الموضوع على الذات، والحق على العصبية. وهذا ما اعترف به غوستاف لوبون، ومونتجومري وات وغيرهما.

لماذا ننفتح على الغرب؟

أما نحن المسلمين فنريد أن ننفتح على الغرب، ونجد من ديننا ما يحثنا على ذلك، ولا نحب أن ننغلق على أنفسنا، أو نعادي غيرنا. والذي يدعونا إلى ذلك جملة أمور:

أولها: أننا أصحاب رسالة عالمية، جاءت لكل الناس في كل أنحاء الأرض. صحيح أن كتاب الإسلام عربي، وأن رسول الإسلام عربي، وأن الإسلام نشأ في الشرق، ولكن لا يعني هذا أن الإسلام لجنس خاص، أو لهجة معينة، بل الإسلام لأهل الأرض جميعا.

ولقد نشأت المسيحية في الشرق، وانتشرت في أنحاء العالم.

ثانيها: أن أسباب اللقاء والتقارب والتفاهم كثيرة ووفيرة، وقد قال تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا**﴾ [الحجرات: ١٣].

فالتعارف ـ لا التناكر ـ هو واجب شعوب الأرض جميعا.

لسنا مع الأديب الأوربي الذي قال: الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا. فإن اللقاء ممكن، بل واجب إذا صحت النيات، وصدقت العزائم.

ثالثها: أن العالم تقارب جدا وخصوصا بعد ثورة الاتصالات، والثورة الإلكترونية، حتى قال بعض الكتاب: إن العالم أصبح قريتنا الكبرى. وأنا أقول: إن العالم أصبح

قرية صغـرى لا كبرى ، فالقرية الكبرى لا يعرف الناس في شرقهـا ما يجري في غربها إلا بعد يوم أو يومين ، أو على الأقل بعد ساعات من وقوع الحادث .

أما العـالم اليوم فيعـرف الناس ما يجري في أي مكـان فيه بعـد لحظات ، وقـد يتابع الناس الحادث في أثناء وقوعه .

وكل هـذا يحتـم على أصحـاب الأديـان السماويـة أن يتحـاوروا ، وعلى أصحـاب الحضارات أن يتفاهموا . . والحوار والتفاهم أولى من الخصومة والتنافر، ونحن المسلمين مأمـورون ـ بنصـوص قرآننا ـ أن نحاور المخالفين بـالتي هي أحسن ، وخصوصا (أهل الكتاب) منهم كما قـال تعالى : ﴿**ولا تجادلـوا أهل الكتـاب إلا بـالتي هي أحسن . . . وقولـوا ، آمنا بـالذي أنزل إلينـا وأنزل إليكم وإلهنـا وإلهكم واحد ونحن لـه مسلمون**﴾ [العنكبـوت : ٤٦] . يأمـرنا القـرآن هنـا أن نركـز على الجوامع المشتركـة ، أي على نقط الاتفاق ، لا نقاط التمايز والاختلاف ، سعيا إلى التفاهم ، مـا دمنا نؤمن جميعا بالألوهية الواحدة ، وبالرسالات السماوية المنزلة من عند الله .

ماذا نطلب من الغرب؟

كل ما نطلبه من الغرب يتلخص في هذه الكلمات :

١ ـ أن يتخلى عن الأحقاد القديمة ، فنحن أبناء اليوم لا بقايا الأمس .

٢ ـ وأن يتخلى عن الأطماع الجديدة والرغبة في السيطرة على بلادنا ومقدراتنا ، فعصر الاستعمار قد ولى .

٣ ـ وأن يتبنى النظرة العـالمية والإنسانية الحقـة ، ويتخلى عن نظرة الاستعلاء ، التي كانت عند الرومان الذين يرون كل من عداهم برابرة .

٤ ـ وأن يتجرد من مخاوفه منا ، فلسنا وحوشا ولا أغوالا ، . ولا سيما ونحن ـ منذ قرون ـ ضحايا ظلم الغرب .

٥ ـ أن يدع لنـا الحرية في أن ننظم حياتنا وفق عقيدتنـا إذا أرادت ذلك شعوبنا ، ولا يتدخل في شئوننا بفرض فلسفته علينا بالقوة أو بالحيلة . فنحن أحرار في ديارنا .

٦ ـ لا داعـي للغرب أن يتخـذ منا (عـدوا) يعبئ مشاعـر أممه ضـدنا ، بعـد سقوط

الاتحاد السوفيتي، وأن يسمينا (الخطر الأخضر) بعد زوال (الخطر الأحمر) والتقارب مع (الخطر الأصفر).

إن الإسلام ليس خطرا إلا على الإباحية والإلحاد، وعلى الظلم والاستعباد، وعلى الرذائل والفساد. وفيما عدا ذلك هو رحمة الله للعالمين، والمسلمون هم دعاة الخير والمحبة والسلام للعالم.

وإذا وجد في المسلمين أفراد أو فئات محدودة تستخدم العنف في غير موضعه، فهؤلاء لا يمثلون كل المسلمين، بل هم فئات صغيرة، ضخمها الإعلام الغربي نفسه. وغالبهم دفعتهم إلى التطرف مظالم الغرب وعدوانيته وتحيزه ضد المسلمين، ووقوفه أبدا مع إسرائيل الغاصبة لدياره، المشردة لأهله، وشدة الضغط تولد الانفجار.

نحن المسلمين تقر أعيننا، وتنشرح صدورنا إذا وجدنا من ينصفنا ومن ينظر إلينا نظرة خالية من التعصب، وإذا وجدنا ذلك نوهنا به، ورحبنا بأهله، وفتحنا لهم قلوبنا وديارنا.

ويسرني أن أنقل هنا: هذه الكلمات العاقلة العادلة المنيرة للأستاذ جيسلينجّ الذي ختم بها بحثه (الشرق والغرب وأزمة سوء الفهم بينهما) فقد قال:

«إنني شخصيا مقتنع اقتناعا تاما بأن هناك أرضية مشتركة بين الغرب والعالم العربي، وبأن العلاقات بين الطرفين يمكن أن تتطور بطريقة بناءة ومثمرة، هذا إذا اعترف كل فريق بالقيم والمبادئ التي يؤمن بها الفريق الآخر. وعندما نصل إلى المرحلة التي يحترم فيها كل معسكر معتقدات وقيم المعسكر الآخر، ويقبل حق الآخرين في الاختلاف معه، فمن الممكن أن يعني هذا بالنسبة للغربيين: أنه لا ينبغي عليهم أن يفرضوا قيمهم ونظرياتهم السياسية على العالم العربي. وسوف يرتكب الغرب خطأ فادحا، إذا حاول أن يفرض « نظاما عالميا جديدا » على منطقة الشرق الأوسط. ذلك أنه إذا قدر لنظام عالمي جديد أن يظهر، فينبغي أن يكون مبنيا على التفاهم المتبادل بين الغرب والعرب. إني آمل أن يتحقق ذلك فعلا »[1].

---

(١) من مقدمة المؤلف لكتاب الباحث المسلم ثابت عيد (الإسلام في عيون السويسريين).

خـــاتمـــة

نهاية التاريخ وصدام الحضارات

نهاية التاريخ :

حاول كثيرون أن يوقفوا عجلة التاريخ الدائرة والمستمرة، عند نقطة معينة، زينتها لهم أفكارهم أو أهواؤهم.

قال الماركسيون يوما: إن صراع الأضداد، أو النقائض الذي اعتبروه حتمية تاريخية ـ وهي فكرة هيجيلية الأصل ـ سيظل قانونه ساريا في الوجود، حتى يصل الشيوعيون أو ـ بعبارتهم ـ تصل طبقة البيروليتاريا إلى الحكم، وتتسلم مقاليد السلطة من الرأسماليين والبرجوازيين الأشرار، وعند ذلك تنحل كل العقد، وتنتهي كل المفرقات بين الناس من الدين والأسرة والطبقة والقوم، ويعيش الناس في ظل مساواة كاملة، تذوب فيها الفوارق بين الناس. ويقف التاريخ عند هذا الحد، ولا يتحرك إلى أمام ولا إلى خلف!

هذه هي (الجنة الموعودة) التي وعد الشيوعيون بها الناس ـ بدلا عن (جنة الخلد) التي وعد الله بها عباده الصالحين في الآخرة كما يقول المؤمنون بالأديان ـ والتي لم يصل الموعودون بها في بلاد الشيوعية إليها يوما ما، ولم يجدوا ريحها، أو يقتربوا منها، بل عاشوا حياة أقرب ما تكون إلى الجحيم، فقد سلبوا الحرية بحلم الحياة الطيبة، وبحلم المساواة التامة، ولم يحققوا هذه ولا تلك.

بل الواقع أن كل الأيديولوجيات الوضعية التي اتخذها بعض الناس لتكون بديلا عن الدين، وأرادت أن تجعل من الإنسان (حشرة اجتماعية) أو نملة في (مجتمع النمل) كما

يقول توينبي، قد سقطت وخاب سعيها، وبقيت حاجة الإنسان إلى الدين كما هي، بل ازدادت حاجة الإنسان إليه، في خضم تيار المادية والنفعية، الذي مزق أواصر الناس، وجعل الإنسان يعيش لنفسه فقط، أي لنزواته وشهواته.

الذي يهمنا هنا: أن الشيوعيين حلموا يوما بإنهاء التاريخ أو إيقاف سيره عند مرحلة معينة، ثم جاء التاريخ واكتسحهم، وكنسهم بمكنسته، وانتهى (الاتحاد السوفيتي) وسقطت الشيوعية، وتبخرت أحلامها، وظلت عجلة التاريخ تدور.

ثم فاجأ العالم مفكر أمريكي ـ ياباني الأصل ـ هو فرنسيس فوكوياما، الذي ظهر على الناس بكتابه، الذي فجر في دنيا الفكر قنبلة مدوية، هو (نهاية التاريخ) وهذا هو عنوان الكتاب. الذي ظهر في سنة ١٩٩٣م وقد انتهى التاريخ ـ في رأيه ـ لحساب القوى الرأسمالية والليبرالية الديموقراطية واقتصاد السوق الحرة، وأن هذا ما يفرضه منطق العلوم الطبيعية الحديثة، بعد أن أخفقت كل أشكال الحكم السابقة، لا سيما الشيوعية، ووصل العالم بأسره إلى ما يشبه الإجماع بأن الليبرالية الرأسمالية الديموقراطية هي النظام الصالح للحكم.

على أن الأديان الكتابية الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام، كلها تؤمن بنهاية التاريخ على غير ما ذكره فوكوياما. فهي جميعا تنتظر (مسيحا) يبعثه الله أو ينزل من السماء، ويقيم دين الله في أرض الله، وينشر العدل والخير، ويحارب الظلم والفساد.

ونحن المسلمين نؤمن بنزول المسيح في آخر الزمان، وإنه سيملأ الأرض عدلا وخيرا وبركة، وسيحكم بشريعة الإسلام، ولكنا لا نعرف متى يكون ذلك، فهو من علامات الساعة الكبرى التي لا يعلم موعدها إلا الله تعالى.

وقد هلل المهللون، وطبل المطبلون لهذا الكتاب عند ظهوره، واحتل مساحة واسعة في ساحة النقاش والجدل بين المثقفين في أنحاء العالم، بين مؤيد ومعارض.

هذا مع أنه يقوم على فرضية لم يسندها دليل قوي من علم أو منطق أو واقع. وفشل الشيوعية ونظامها الاقتصادي والسياسي الاستبدادي، لا يكفي ليكون دليلا على صواب مقابلها الرأسمالي الليبرالي.

ولم لا يكون هناك نظرية أخرى، مشروع آخر أو منهاج آخر، لا هو رأسمالي ولا

شيوعي، ولا هو دكتاتوري ولا ليبرالي، بل يأخذ أفضل ما في المشروعين، ويتجنب أسوأ ما فيهما، فلا هـو فردي ولا جماعي، وإنما هو نظام متوازن يقـوم على الوسطية، والجمع بين الثنائيات أو المتقابلات التي يحسب كثير من الناس التقاءها ضربا من المحال، مثل المادية والروحية، والمثالية والواقعية، والربانية والإنسانية، والفردية والجماعية، والدنيوية والأخروية، والقدرية والحرية، والعقل والوحي، والنص والاجتهاد، والحق والواجب، والثبات والتطور.

وهذا هـو المنهج المتكامل الذي يقـدمه الإسـلام للبشرية، رحمة للعالمين، وهـداية للحائرين، وعدلا وإخاء وسلاما للناس أجمعين.

صدام الحضارات:

ولم تكد تمضي سنتان على كتاب (فوكويـاما) وما أحدث من ضجة وصخب في دنيا الفكر والثقـافة والسياسـة، على الطريقة الأمـريكية في الـدعاية والإعـلان، والتهويل والتضخيم، لتسـويق كل ما هـو أمريكي الصنع، في عـالم الأشياء، أو عـالم الأفكار. حتى خطف الأضواء كتاب آخر لمؤلف آخر في نفس الموضوع: الدراسات الاستراتيجية والمستقبلية.

ذلك هو كتـاب (صمويل هـانتنغتون) أستـاذ العلوم السيـاسية بجـامعة هـارفارد الشهيرة، وأحد أساتذة الدراسات الاستراتيجية القريبين من صناع القرار، بالإضافة إلى أنه يهودي. فـانتقل الضجيج والبريق والـوهج إلى المؤلف الجديد، والكتـاب الجديد، الذي سماه (صدام الحضارات) أو (صراع الحضارات).

ورغم أن الكتاب كان في أصله مقالة مطولـة في مجلة (الشئون الخارجية) القريبة من وزارة الخارجية الأمريكية، إلا أنه أحدث هذا الدوي أو أريد له أن يحدث هذا الدوي، ويسحب البسـاط من تحت (نهاية التـاريخ). ولا غـرو أن كثرت حـولـه المناقشـات، وتوالت التعقيبـات، ما بين مؤيـد ومعارض، كليا أو جـزئيا، في أمريكـا نفسها، وفي أوربا، وفي آفاق العالم، ومنه العالم العربي والإسلامي.

وهذا ما جعل الكاتب ذاته يعقب على المعقبين، ويضيف أفكارا جديدة على مقالته

الأولى، أثرى بها كتابه، واتضحت بها فكرته أكثر فأكثر. والآن نسأل: ما هدف الكتاب وفكرته الأساسية؟ وما سبب إحداثه لكل هذا الصخب الذي كاد يصم الآذان؟

تقوم فكرة (هانتنغتون) على أن التاريخ لم ينته، ولم ينته الصراع فيه، ولم تغلق ملفاته، بسقوط الاتحاد السوفيتي، وسقوط الخطر الشيوعي معه، بل لا يزال في جعبة التاريخ سهام لم يرم بها بعد، ولا زال الصراع كامنا، وأسبابه قائمة، ولكن أسباب الصراع ليست بسبب الأيديولوجيات المختلفة والمتناقضة كالشيوعية الدكتاتورية، والرأسمالية الليبرالية، ولا بسبب المصالح الاقتصادية المتعارضة للدول المختلفة.

ولكن الصراع الذي يخبئه المستقبل سيكون سببه اختلاف الحضارات أو الثقافات، وتناقضها. ومحاولة كل حضارة أن تثبت وجودها، وتفرض رؤيتها للإنسان وللكون والدين والحياة والتاريخ.

ولقد بين الكاتب أن هناك حضارات سبعا أو ثمانيا، هي التي يمكن أن يقوم بينها النزاع والصراع، في المستقبل، وهي: الحضارات الغربية، والكونفشيوسية، واليابانية، والإسلامية، والهندية، والسلافية الأرثوذكسية، والأمريكية اللاتينية، وربما الأفريقية.

كان الصراع والحروب قديما بين الملوك والأباطرة بعضهم وبعض بسبب الأطماع والرغبة في التوسع، ثم بعد الثورة الفرنسية، أصبح الصراع والحروب بين الدول والأمم بسبب تعارض المصالح، ثم صار بين الأمم ذات السياسات المختلفة مثل النازية والفاشية وحلفائهما، ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا وأمريكا، ثم أصبح سبب الصراع بين الأيديولوجيات المتناقضة، مثل الرأسمالية والشيوعية، كالنزاع بين أمريكا وحلفائها، وروسيا وحلفائها.

أما حروب المستقبل فيرى (هانتنغتون) ـ بعد سقوط دولة الشيوعية وانهيار الاتحاد السوفيتي ـ أنها حروب حضارات متباينة، وخصوصا الحضارات السبع المذكورة.

وقد لاحظنا ـ كما لاحظ بعض الباحثين[1] ـ أنه لا يوجد أساس واحد أو معيار واحد، بنى عليه المؤلف تصنيفه للحضارات.

---

(١) انظر: الجابري ـ قضايا في الفكر المعاصر.

فبعضها بناه على أساس جهوي، مثل الحضارة الغربية.

وبعضها بناه على أساس إقليمي مثل الحضارة الهندية والحضارة اليابانية، وحضارة أمريكا اللاتينية، وإن ضم إليها عنصرا آخر مع الجهة، (اللاتينية).

وبعضها بناه على أساس ديني مثل الحضارة الإسلامية، والحضارة السلافية الأرثوذكسية، وإن ضم إليها العرق مع الدين.

وبعضها بناه على أساس فلسفي مثل الحضارة الكونفشيوسية (وكونفيشيوس هو فيلسوف صيني أخلاقي).

وكأني ألمح العنصر الديني مختفيا وراء هذا التقسيم، وإن لم ينبئ عنه الكاتب بصراحة، إلا بالنسبة للحضارتين: الإسلامية، والأرثوذكسية.

فحضارة الهند هي حضارة الهندوس والديانة الهندوسية بمعبوداتها الوثنية والحيوانية (كالأبقار) وفلسفتها البرهمية، وتقسيمها للناس إلى طبقات مفروضة عليهم قدرا.

وحضارة اليابان هي حضارة الديانة الشنتوية.

وكذلك حضارة الصين أقرب إلى أن تسمى (الحضارة البوذية) منها إلى الحضارة (الكونفيشيوسية).

والواقع أن الدين هو أعظم المؤثرات في تكوين الحضارات أو الثقافات، وقد اعترف بذلك هانتنغتون نفسه حين ذكر مكونات الحضارة من اللغة والتاريخ والتقاليد.. إلخ. ثم قال: وأهمها الدين. فكشف بذلك عما يكنه صدره من اعتبار الدين وراء هذا الصراع المرتقب، بل الحتمي في نظره.

وهو في هذا يتفق مع بعض المفكرين الغربيين الذين يرون (الدين) جوهر (الثقافة) وأن الثقافات تختلف أساسا بمقدار اختلاف الأديان.

ومما يحمد لـ(هانتنغتون) أنه اعترف أن في العالم حضارات مختلفة، يتميز بعضها عن بعض، وهذا أمر مهم. ويرد على الذين يزعمون أنه لا توجد اليوم إلا حضارة واحدة، أو ثقافة واحدة، هي الحضارة الغربية، والثقافة الغربية، على اعتبار أن الثقافة هي الحضارة، أو هي جوهر الحضارة. فقد ادعى هؤلاء أن الثقافة الغربية أو الحضارة

الغربية، أصبحت ثقافة ـ أو حضارة ـ كونية، حضارة للعالم كله، غربه وشرقه، وشماله وجنوبه، كتابييه ووثنييه، مؤمنيه وملحديه. وعلى الجميع أن يولوا وجوههم شطر هذه الثقافة، ويكيفوا أنفسهم وفقا لفلسفتها، ومفاهيمها وقيمها وتقاليدها وأنظمتها.

وهؤلاء قوم (مهزومون) في داخلهم، يريدون أن يبرروا الواقع، ويفلسفوا ويؤصلوا غلبة القوي، أو قوة الغالب.

والواقع أن هناك حضارات عدة في عالمنا، ولا تزال باقية وفاعلة إلى اليوم، لكل حضارة فلسفتها ونظرتها إلى الإنسان والكون والحياة، وإلى الدين والدنيا، ولها مصادرها، ولها أهلها، ولها تاريخها، ولها عطاؤها وتأثيرها الممتد من الأمس إلى اليوم.

ومن الخير أن نقر بأن لكل حضارة خصوصيتها، وأن نبقي على خير ما فيها، وأن نقتبس من إيجابياتها، ونتجنب سلبياتها، وألا نقهر أمة على التخلي عن حضارتها، والانقطاع عن جذورها، ما لم تتحول هي من حضارة إلى أخرى باختيارها الحر، وإرادتها المستقلة، كما رأينا إيران قديما ـ بعد الإسلام ـ تنتقل بكل حريتها من الحضارة الفارسية إلى الحضارة الإسلامية، وكما رأينا مصر ـ كذلك تنتقل من الحضارة الفرعونية والرومانية طائعة مختارة إلى الحضارة العربية الإسلامية. وكذلك شمال أفريقيا انتقل من الحضارة البربرية إلى الحضارة العربية الإسلامية.

ومما يحمد لهانتنغتون أيضا: أنه اعترف بـ(الحضارة الإسلامية) كواحدة من أبرز الحضارات القائمة والمؤثرة في العالم. وهي حقيقة لا ريب فيها، وهي ترد على أولئك المفتونين المطموسين من بني جلدتنا، الذين يريدون لنا أن نقطع جذورنا، ونهدم أساس بنياننا، وأن ندع حضارتنا مختارين، لنأخذ حضارة غيرنا ولاسيما الحضارة الغالبة والمنتصرة: حضارة الغرب: نأخذ منها الفلسفة والمفاهيم، ونأخذ منها القيم والمعايير، ونأخذ منها الآداب والتقاليد، ونأخذ منها الأنظمة والقوانين. فماذا بقي لنا من حضارتنا؟

بل الواقع أن كل ما ذكره (هانتنغتون) من حضارات، إنما يغطي به ما يهدف إليه بالفعل من الصراع المخبوء والمخوف، وهو الصراع مع الحضارة الإسلامية، أو قل بصراحة مع الإسلام. كما ينكشف القناع بعد.

ولقد ذكر مؤلف (صدام الحضارات) في كتابه أن سائر الحضارات ـ اليابانية والهندية والسلافية الأرثوذكسية والأمريكية اللاتينية ـ يسهل التفاهم والتقارب معها لأسباب شرحها، إلا حضارتين ناشزتين، هما الحضارة الإسلامية والحضارة الكونفوشيوسية (الصينية). فإذا تفاهمتا أو تقاربتا أو اتفقتا ـ وهو أمر محتمل بل مرجح ـ كوّنا خطرا على الغرب، ليس بالهين[1].

أهو صدام حضارات أم صدام مصالح أم صدام أديان؟

وقد ناقش كثيرون (هانتنغتون) معارضين له في صدام الحضارات، مبينين: أن الدافع الحقيقي وراء الحروب إنما هو مصالح الدول والقوى الكبرى، ومطامع الزعماء، وليس الخلاف الحضاري.

قال ذلك الدكتور بيكو المكلف بحوار الحضارات في الأمم المتحدة في لقائه بقناة الجزيرة، وقال ذلك الدكتور الجابري في تعقيبه على هانتنغتون وكتابه، وهذه عبارته:

لو أن الكاتب كان يفكر في قضايا عصره من أجل فهمها، والتماس حلول تخدم صالح الإنسانية ككل، مع افتراض أنه مقتنع فعلا بأن (صدام الحضارات) يتهدد الأمن العالمي في المستقبل، كان المفروض أن ينتهي هذا الكاتب إلى نتيجة يدعو فيها جميع الجهات، جميع الدول والأمم، إلى الوعي بهذا الخطر، ويطالبها بل ويقترح عليها اتخاذ التدابير الضرورية الكفيلة بتلافي هذا الخطر الماحق. لكن صاحب المقالة سلك مسلكا آخر معاكسا تماما، فتعامل منذ البداية مع «الفرضية»، لا كمجرد فرضية تعبر عن احتمال وقوع أمر ما، بل كحقيقة تاريخية حكمت تطور التاريخ في الماضي وستحكمه في المستقبل. وهكذا راح يعيد بناء «التاريخ كله» بالصورة التي تجعل منه «صدام الحضارات»، الماضي في ذلك والحاضر سواء، باذلا كل جهده لحشد الأمثلة والوقائع التي تؤيد هذه «الحقيقة التاريخية» المزعومة: يختار أمثلة من هنا وهناك، ويؤولها تأويلا يبتعد بها عن إطارها ويلبسها دلالات لا تحتملها. ثم يكرر المثال الواحد

---

(١) انظر: صدام الحضارات والتعقيبات عليه من عدد من المفكرين. نشر مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق ـ بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

مـرات ويقفـز ويــراوغ، ســلاحــه المنطقي في كل ذلك « المغــالطـة» أو « الاستـدلال المغالطي» بالتعبير المنطقي.

والهدف من كل ذلك: التهويل والتخويف، وإعـداد القارئ لتقبل النتيجة وتحمل ما يلزم عنها، وكأن ذلك قدر لا مفر منـه. والنتيجة التي أفصحت عنها المقالة، هي: ضرورة أن يستمر الغـرب في تطوير قواه العسكـرية، وبالتالي ضرورة أن يصرف مـا يلزم من الأموال في سبيل ذلك.

لكن خطورة المقالة ليست في النتيجة التي تنتهي إليهـا، فدعوة الغرب، إلى الحفاظ على مركزه وهيمنته، والعمل بكل الوسائل على صيانة مصالحه، أمر مفهوم وعادي.

إن خطورة المقالة تكمن في نظرنا في ما بين « المقدمة » و «النتيجة»، ويشغل كل منها بضـعة أسطر لا غير. أمـا « بؤرة » أو «قلب » الموضـوع ـ بالتعبـير الأمريــكي ـ فـهو «الإسلام بالدرجة الأولى « والصين» بدرجة أخف قليلا». ذلك أن صاحب المقالة يركز على الإسلام سواء في تحليله « التاريخي» أو في عـرضه لوقائع الحاضر، بينما لا يستحضر الصين إلا في حديثه عن اتجاه تطور النمو في الوقت الحاضر بجنوب شرق آسيا.

و « الإســلام » هو الآن، ومنـذ عقد من السنين، الشغل الشـاغل في الغرب. ومـا يعنيه ليس « الإســلام » كدين، ولا كحكومـات تحكم باسمه. فبـالأمس القريب فقط كان الغرب يتخذ من « الإسلام» حليفا له ضد الشيوعية.

كان ذلك بالأمس القـريب، أما اليوم فـ« الإسلام » في نظر الغـرب ـ الـذي يتكلم باسمـه هانتنغتون ـ شيء آخـر. إنه « العدو رقم ١ »، إن لم يكن اليوم فسيكـون كذلك غدا. لا، بل إنه كذلك أمس واليـوم وغدا. فماذا تغير؟ ولماذا هذا الخوف « الجديد» بل «المتجدد » من الإسلام؟

يقول الجابري: يمكن القول إن هناك ثابتا واحدا أساسيا في موقف الغرب، والباقي متغيرات. والموقف من العرب أو من الإسلام أو من الصين أو من اليابان أو من أية دولة أخـرى في العالم يتغير دائما، وقـد يقفـز من النقيض إلى النقيض إذا اقتضى ذلك منطق «الثابت ». وليس « الثابت » في تحركـات الغرب شيئا آخر غير المصــالح، فعندما تمس مصالح الغرب أو يكون هناك ما يتهددها يتغير الموقف.

وفي الختام يقول: الغرب مصالح، ولا شيء غير المصالح. وكل حوار معه أو تفكير ضده لا ينطلق من المعادلة التالية (الغرب = المصالح) إنما هو انزلاق وسقوط في شباك الخطاب المغالطي التمويهي السائد في الغرب، والهادف إلى صرف الأنظار عن «المصالح» وتوجيهها إلى الانشغال بما يخفيها، ويقوم مقامها في تعبئة الرأي العام مثل «الحضارة» و «الثقافة» و «الدين» و «الأصولية». اهـ[١].

وأقول للأستاذ الجابري: صحيح أن الغرب تحكمه المصالح قبل كل شيء، ولكن الغرب بالنسبة للإسلام تحكمه ـ مع المصالح ـ عقد قديمة جديدة، هي عقدة الحقد، وعقدة الخوف. الحقد المتوارث من عهد الحروب الصليبية، وربما من عهد اليرموك وأجنادين وفتح مصر وشمال أفريقيا، وكلها كانت مسيحية أصبحت إسلامية.. وعقدة الخوف من انطلاق المارد الإسلامي مرة أخرى. وهذا سر قلقهم من الصحوة الإسلامية، ورصدهم الأموال الطائلة لدراستها، وعملهم على تعويقها، وحديثهم الدائم عن (الخطر الإسلامي)، العدو الجديد بعد زوال الاتحاد السوفيتي.

إنهم يسمون الإسلام (الخطر الأخضر) خطر ظهور (صلاح الدين) من جديد، وهو الخطر المخوف رغم ضعف أهله وتفرقهم، وقد زال (الخطر الأحمر) السوفيتي، وتقاربوا مع (الخطر الأصفر) الصيني.

إن هاجس الخوف، مع هاجس الحقد، هما اللذان يؤثران في السياسة الغربية، بل والفكر الغربي دائما تجاه الإسلام.

يقوى هذه الهواجس ويؤكدها في عصرنا (البعد الديني) الذي برز بوضوح في العقدين الأخيرين في أمريكا، عن طريق (المسيحية الأصولية) المرتبطة بالتوراة، والتي تعمل لخدمة الصهيونية وإسرائيل تدينا، وتعبدا، كما بينت ذلك دراسات علمية أكاديمية جادة[٢].

وكم نود من صميم أفئدتنا أن يتحرر الغرب من هذه العقد، ويعامل المسلمين كما يعامل سائر الأمم والقوى في العالم. وإن كنا نؤمن أن الغرب ليس نمطا واحدا، ولا صنفا واحدا، ففي الغرب أناس وأفراد منصفون، نرجو أن يتزايدوا يوما بعد يوم.

---

(١) انظر: الجابري: قضايا في الفكر المعاصر ص ١٢٥ ـ ١٢٧.
(٢) انظر: البعد الديني في السياسة الأمريكية، للدكتور يوسف الحسن. نشر مركز دراسات الوحدة العربية.

مؤلفات فضيلة الدكتور: يوسف عبد الله القرضاوي

● في الفقه وأصوله :

١ ـ الحلال والحرام في الإسلام .

٢ ـ فتاوى معاصرة جـ ١ .

٣ ـ فتاوى معاصرة جـ ٢ .

٤ ـ تيسير الفقه : فقه الصيام .

٥ ـ الاجتهاد في الشريعة الإسلامية .

٦ ـ مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية .

٧ ـ من فقه الدولة في الإسلام .

٨ ـ تيسير الفقه للمسلم المعاصر .

٩ ـ الفتوى بين الانضباط والتسيب .

١٠ ـ عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية .

١١ ـ الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد .

١٢ ـ الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط .

● في الاقتصاد الإسلامي :

١ ـ فقه الزكاة (جزءان) .

٢ ـ مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام .

٣ ـ بيع المرابحة للآمر بالشراء .

٤ ـ فوائد البنوك هى الربا الحرام .

٥ ـ دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي .

● في علوم القرآن والسنة :

١ ـ الصبر في القرآن الكريم .

٢ ـ العقل والعلم في القرآن الكريم .
٣ ـ كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟
٤ ـ كيف نتعامل مع السنة النبوية؟
٥ ـ دروس في التفسير ـ تفسير سورة الرعد .
٦ ـ المدخل لدراسة السنة النبوية .
٧ ـ المنتقى من الترغيب والترهيب (جزءان) .
٨ ـ السنة النبوية مصدرًا للمعرفة والحضارة .

● **عقائد الإسلام :**
١ ـ وجود الله .
٢ ـ حقيقة التوحيد .

● **سلسلة : تيسير فقه السلوك في ضوء القرآن والسنة :**
١ ـ الحياة الربانية والعلم .
٢ ـ النية والإخلاص .
٣ ـ التوكل .
٤ ـ التوبة إلى الله .

● **في الدعوة والتربية :**
١ ـ ثقافة الداعية .
٢ ـ التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا .
٣ ـ الإخوان المسلمون ٧٠ عامًا في الدعوة والتربية .
٤ ـ الرسول والعلم .
٥ ـ الوقت في حياة المسلم .
٦ ـ رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد .

● **في ترشيد الصحوة والحركة الإسلامية :**
١ ـ الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي .
٢ ـ أين الخلل؟

٣ ـ أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة .
٤ ـ في فقه الأولويات .
٥ ـ الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه .
٦ ـ الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة .
٧ ـ ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده .
٨ ـ غير المسلمين في المجتمع الإسلامي .
٩ ـ شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان .
١٠ ـ الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم .
١١ ـ الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف .
١٢ الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم .
١٣ ـ من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا .

● سلسلة : حتمية الحل الإسلامي :
١ ـ الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا .
٢ ـ الحل الإسلامي فريضة وضرورة .
٣ ـ بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمغتربين .

● سلسلة : وحدة فكرية للعاملين للإسلام :
١ ـ شمول الإسلام .
٢ ـ المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة .
٣ ـ موقف الإسلام من الإلهام والكشف ، والرؤى ومن التمائم والكهانة والرقي .
٤ ـ السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها .

● إسلاميات عامة :
١ ـ الإيمان والحياة .
٢ ـ العبادة في الإسلام .
٣ ـ الخصائص العامة للإسلام .
٤ ـ مدخل لمعرفة الإسلام .
٥ ـ الإسلام حضارة الغد .

٦ ـ الناس والحق .
٧ ـ جيل النصر المنشود .
٨ ـ درس النكبة الثانية .
٩ ـ خطب الشيخ القرضاوي جـ ١ .
١٠ ـ خطب الشيخ القرضاوي جـ ٢ .
١١ ـ لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام والعصر.
١٢ ـ قضايا معاصرة على بساط البحث .
١٣ـ قطوف دانية من الكتاب والسنة .

● **شخصيات إسلامية :**

١ ـ الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه .
٢ ـ الشيخ الغزالي كما عرفته : رحلة نصف قرن .
٣ ـ نساء مؤمنات .

● **في الأدب والشعر:**

١ ـ نفحات ولفحات ـ ديوان شعر.
٢ ـ المسلمون قادمون ـ ديوان شعر .
٣ ـ يوسف الصديق ـ مسرحية شعرية .
٤ ـ عالم وطاغية ـ مسرحية تاريخية .

● **رسائل ترشيد الصحوة :**

١ـ الدين في عصر العلم .
٢ ـ الإسلام والفن .
٣ ـ النقاب للمرأة بين القول ببدعيته والقول بوجوبه .
٤ ـ مركز المرأة في الحياة الإسلامية .
٥ ـ فتاوى للمرأة المسلمة .
٦ ـ جريمة الردة وعقوبة المرتد في ضوء القرآن والسنة .
٧ ـ الأقليات الدينية والحل الإسلامي .
٨ ـ المبشرات بانتصار الإسلام .

٩ ـ مستقبل الأصولية الإسلامية .
١٠ ـ القدس قضية كل مسلم .
١١ ـ ظاهرة الغلو في التكفير.

● محاضرات الدكتور القرضاوي :
١ ـ لماذا الإسلام؟
٢ ـ الإسلام الذي ندعو إليه .
٣ ـ عوامل نجاح مؤسسة الزكاة في التطبيق المعاصر.
٤ ـ واجب الشباب المسلم اليوم .
٥ ـ مسلمة الغد .
٦ ـ الصحوة الإسلامية بين الآمال والمحاذير.
٧ ـ قيمة الإنسان وغاية وجوده في الإسلام .
٨ ـ لكي تنجح مؤسسة الزكاة في التطبيق المعاصر.
٩ ـ التربية عند الإمام الشاطبي .
١٠ ـ مع المصطفى في بيته .
١١ ـ السنة والبدعة .
١٢ ـ زواج المسيار ـ حقيقته وحكمه .
١٣ ـ الضوابط الشرعية لبناء المساجد .
١٤ ـ موقف الإسلام العقدي من كفر اليهود والنصارى .
١٥ ـ الشفاعة في الآخرة بين النقل والعقل .

المحتويات

رقم الإيداع ١٣١٨٦/٢٠٠٠
الترقيم الدولى X - 0659 - 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)